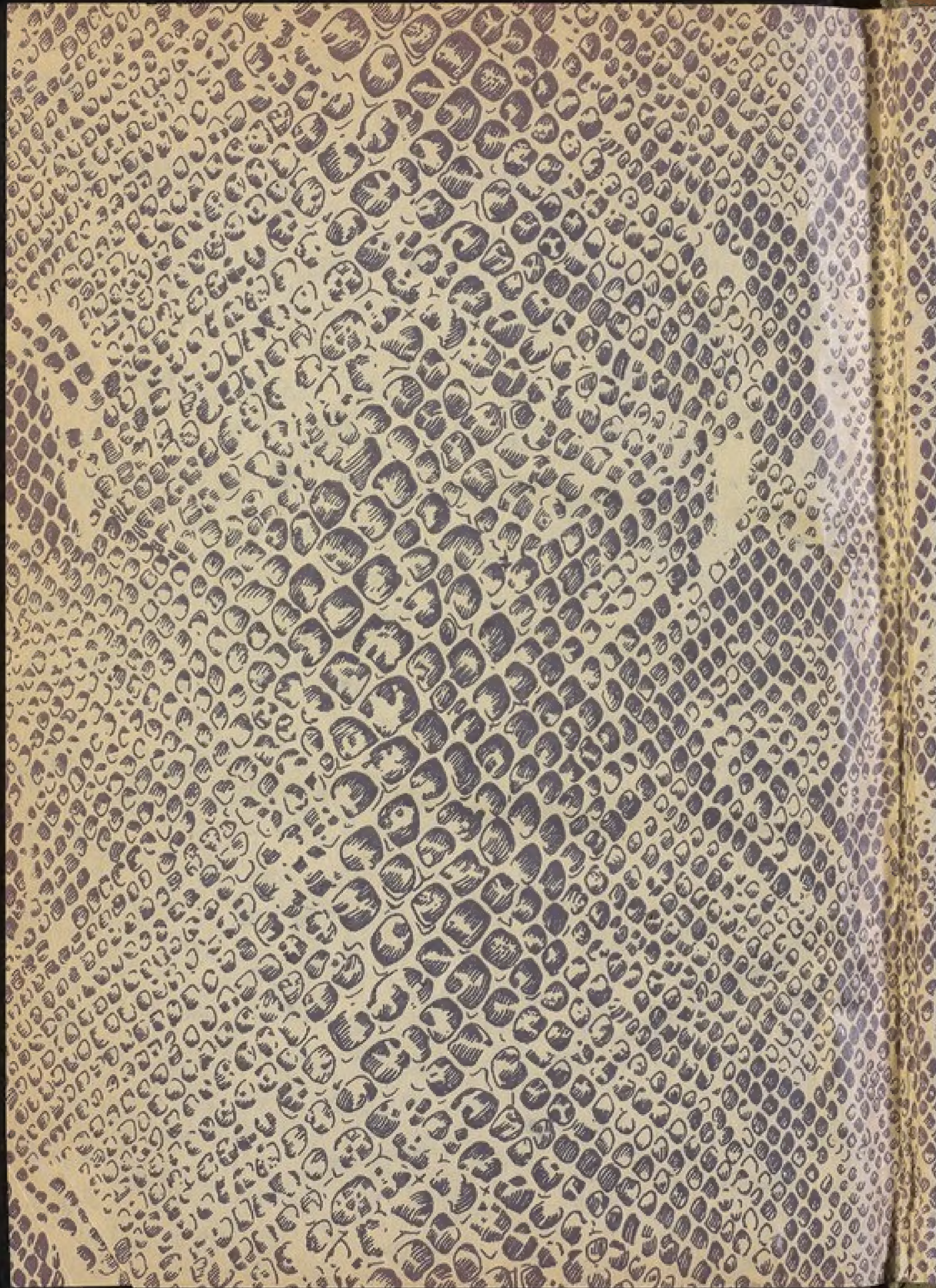
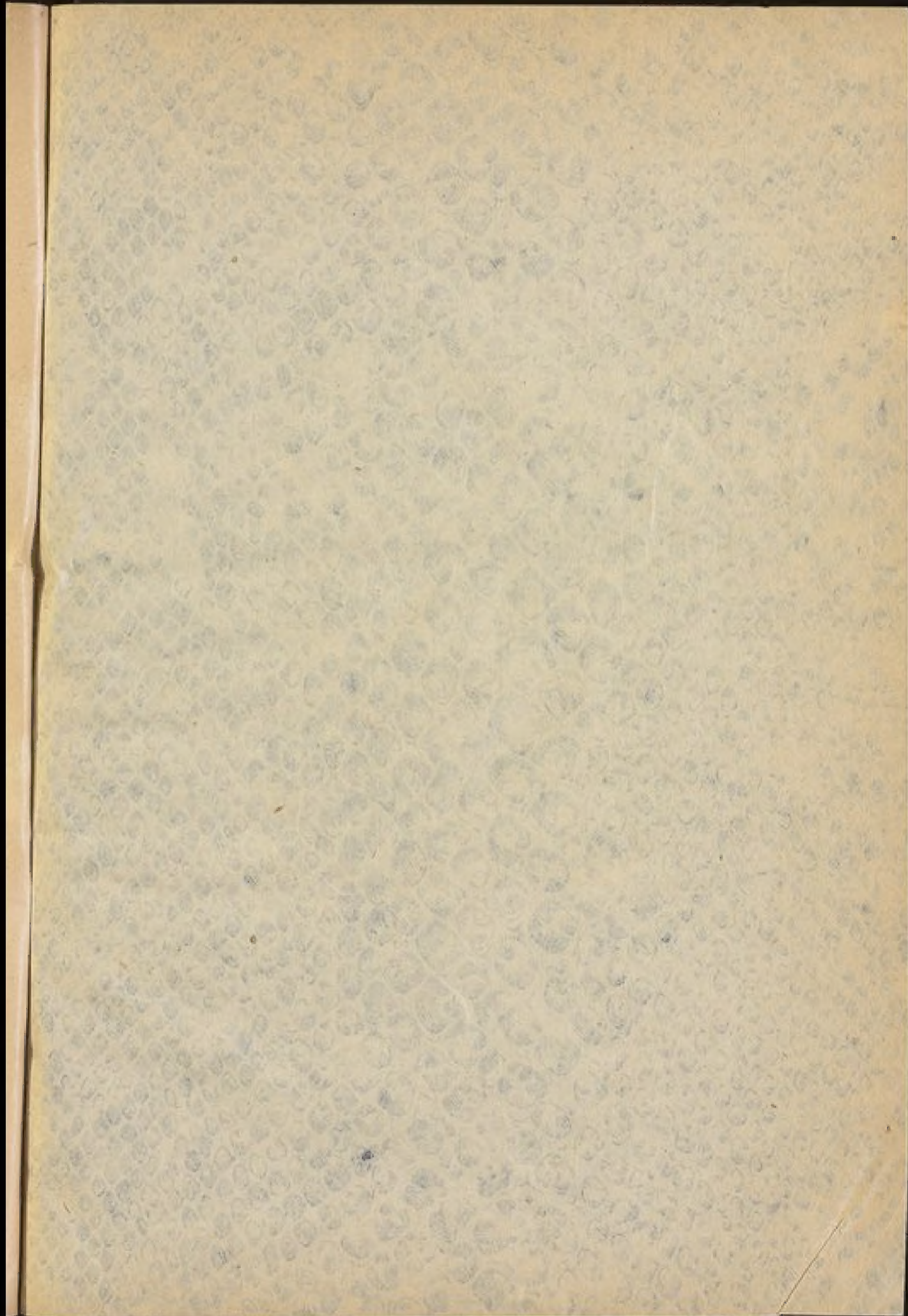


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







فن التشبيه

بلاغة - أدب - نقد

الجزء الثالث

تأليف

عبدالحق الجندى

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد علي (مما وراء الزبدان سابقا)

893.741
595

v. 3

v. 3

519576

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »
(قرآن کریم)

الفصل الأول

محسنات التشبيه

هناك نكت بلاغية بعضها لا يتحقق جمال التشبيه بدونه، وبعضها - إذا توافرت له - رفعت من قيمته ، وزادته حسنا على حسنه .

ومن العسير إحصاء هذه النكت ؛ لأن ما تزداد به الأشياء ملاحظة وقوة لا يكاد يحصى .

وقد حصر البلاغة بعض أهل الأدب والكلام في عشرة أقسام ، فرد عليه الباقلاني : بأن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام ، لا يعرف من البلاغة إلا القليل ، ولا يفطن منها إلا اليسير^(١) .

فن هذه المحسنات :

١ - إذا كان الغرض من التشبيه بيان الحال أو المقدار، فيجب أن يراعى الإتيان به محسوسا ؛ لأن المحسوس أيسر فهما وأسهل إدراكا من المعقول ؛ ولأن فيه تمثيلا للغائب المبهم غير المعتاد ، بالحاضر الواضح المعتاد ، فيتجلى حسنه بظهور معناه ، وبيان المراد منه .

وأن يراعى في وجه الشبه أن يكون معروفا ؛ لأن النفس تهش كلما تعرف وتأنس به وتقبل عليه ، ولهذا يقول الله - تعالى - : في معرض الاثنتان

على أهل الجنة : « كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ، قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا . »

وقد ذهب المفسرون في تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة : أن الإنسان بالمألوف آنس ، وإلى المغمود أميل ^(١) .

ثم يجب أن يراعى في بيان المقدار خاصة — زيادة على ما تقدّم — أن يكون المشبه به على مقدار المشبه في وجه الشبه بغير زيادة ولا نقص .

وكلما كان القدر المشترك أبعد من الزيادة والنقص ، كان التشبيه أدنى إلى القبول والانسليم ، وأبرأ من العيب والهجنة ؛ لأن الدقة في التحديد هنا مطلوبة ومرعية ، وعليها يتوقف كمال التشبيه وجماله وسلامته من النهايات .

٢ — إذا كان التشبيه مقلوبا ، أو إذا كان الغرض منه تقرير المشبه لدى السامع ، فيراعى أن يكون المشبه به محسوسا ، وأن يلحظ فيه أن يكون أتمّ نصيبا وأكمل اختصاصا بوجه الشبه المحسوس من المشبه ، ليتحقق معنى المبالغة ، وليتأكد في النفس ، وهما الثمرة المقصودة منه .

٣ — إذا كان الغرض من التشبيه بيان إمكان الوجود ، أو التحسين أو التقبيح ، فيراعى أن يكون المشبه به حكما صحيحا مسئليا ، وبرهانا مقنعا مقبولا سائغا ، وأن يكون وجه الشبه فيه أظهر وأشهر ؛ ليستعان به على إزالة عناد المعارض ومكابرته ، وتمهيد خضوعه وإذعاناه .

٤ — في تشبيه الاستطراف ، يراعى أن تكون الصورة أنيقة بديعة تخلب اللب وتبهر العقل ، وتبعث في النفس نشوة وأريحية ، وتثير فيها نوازع الشوق إلى استجملاء الجمال الفنى ، وتزيد في إرهاف الذوق وظمته إلى المتعة بطرائف البيان .

وأن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن مطلقا ؛ لبعده عن متناول التصور ، أو نادر الحضور فيه عند حضور المشبه لبعد إدراك النسبة بينهما

إلا لدى الأذكياء الملهمين ؛ لأن من طبيعة النفس أن تنفتح للأمر النادر ،
وتتشوّف إلى الجديد المستحدث ، وتُشيع عن المكرر والمعاد .

٥ - أن يضع الأديب نُصب عينيه بعامة ، صبّ الأمور المعنوية
في قوالب المحسوسات تحقيقاً لكونه التشبيهي ، وإبرازاً للأصل الذي قام
عليه وأنشأه من أجله ؛ وهو توضيح الشيء الخفي ، وتقريب المعنى
البعيد .

٦ - أن يكون وجه الشبه صحيحاً دقيقاً يتنا شاملاً للطرفين ، مؤدياً إلى
الغرض من التشبيه ، كاملاً وافياً بتحصيل ما عُلق عليه ، بريئاً من السوئية
والابتذال الذي يلحقه بكلام الحشوة والدهماء .

٧ - أن تراعى جهة التشبيه مراعاة تامة دقيقة ؛ فلا يحدث انحراف عن
الغاية المقصودة ، حتى لا يقود إلى الخطأ أو القبح كما سنفصله بعد ، وكما
عرضنا له في الجزء الثاني .

وفي ذلك يقول ابن طباطبائي : ينبغي للشاعر أن يتأمل شعره وتسبق
أبياته ، ويقف على حسن تجاوزهما أو قبحه ، فيلائم بينهما لتنظيم معانيهما
ويتصل كلامه فيهما كقول ابن هرمة :

وإني وتركي ندى الأكرمين وقد دحى بكفتي زنادا شجاعا^(١)
كشاركة يبيضها بالعصراء وملبسة بيضاً أخرى جناحا^(٢)
وقول الفرزدق يهجو جريراً :

فإنك إذ تهجو تميماً وترثي سراييل قيسراً أو سحوق العاهم^(٣)

(١) شجاعاً بالفتح . لا يورى ، كناية عن استجدائه البخل .

(٢) كشاركة : يريد بها النعامة ؛ لأنها ربما خرجت للعالم فتركت يبيضها وحصلت يبيض
غيرها ، ولهذا ضرب بها المثل في الحق .

(٣) سحوق العاهم : البالية .

كشريق ماء بالفسلاة وغرّة سراب أذاعته رياح السّائم
 يريد أن جريرا - وهو من تميم - يهجو الفرزدق وآله بنى دارم
 صفوة تميم ومناط نقرها ، ويمدح « قيس » وهم أعداء تميم جاهلية وإسلاما
 طلبا لرشوته لم بالأكسية ، فعيره بذلك ؛ لأن جريرا فى الحقيقة إنما
 يهجو نفسه وقومه .

وكان يجب فى الشعر أن يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق ،
 وبيت للفرزدق مع بيت لابن هرمة ، فيقال :

وإني وتركى ندى الأكرمين وقد حى بكفى زنادا شعاعا
 كشريق ماء
 ويقال :

فإنك إذا تهجو تميمًا وترثى سرايل قيس أو سحوق العائم
 كشاركه يعضها بالعراء
 حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا ، وإلا كان تشويها بعيدا ، غير واقع

موقعه الذى أريد له (١) .

ويانعم النظر فى معانى الآيات ، يظهر لنا الخطأ فى الترتيب الأول .
 وصحته فى الترتيب الثانى ؛ لأن من يترك استمناع الأجواد الكرماء المتحقق
 بذلم ، ويستطيع الأشقاء اللئام الذين لا تندى أيديهم ، يشبه من يريق ماء
 فى يده ، اعتمادا على سراب غرّار لا يجديه شيئا

وكذلك من يهجو قومه ويضع منهم بذمه ، ويمدح أعداءهم ابتغاء
 ما يناله من عرض حقير ، أشبه الناس بالنعامة الحقاء التى تحفو يعضها
 فيعطى ويموت ، وترخم على يعض غيرها فتمتعه الحياة والبقاء .

٨ - أن يفرق بين ما به المشابهة وما به الامتياز ، فلا ينظر إلى جميع الأوصاف ، بل إلى الأوصاف الخاصة التي تكون عناصر وجه الشبه ، متجاهلا غيرها مما لا يوجد في الطرفين معا ؛ كقول ابن المعتز في وصف الحرة :

وكان كفتيه تقسم في أقدا حنا قطعاً من الشمس
وقول تاج الدولة القضاعي في حسناوين ؛ إحداهما في ثوب ديباج
أحمر والأخرى في أسود :

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق
وفي ثوبين قد صبغا صباغ الخد والحدق
فتلك الشمس في شفق وهدي البدر في غسق
فلم يقصد من هذه التشبيهات غير المشاركة في الألوان دون غيرها من الصفات .

وليس كل شيء يُشَبَّه بشيء يقع التشبيه به من جميع الجهات حتى لا يُغادر منها شيء ، وقد يكون إنما شبه به ببعض ما فيه لا بأكمله^(١) .

وبمراعاة الشرط المتقدم يكون التشبيه جامعاً بين الاتفاق التام والاختلاف التام ، وبالجمع بين هذين يتحقق معنى الحسن والإبداع والسحر والخلابة .

٩ - أن يحصل بالتشبيه على الفوائد المقصودة منه ، وهي الوضوح والمبالغة ، والاختصار ، والتأكيد .

فقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً وباباً لدى وكرها العُتَاب والحشف البالي
من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء ؛ لأن مشاهدة العناب والحشف

البالى أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة وبأسية^(٢) .

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع
بجمع المقصودين من الظهور والمبالغة .

أما الظهور ، فلأن علم الناس بأن الليل لا بد أن يدرك النابغة أظهر من
علمهم بأن النعمان لا بد أن يدركه .

وأما المبالغة ، فإن تشبيهه بالليل الذى لا يصدّه حائل ، أعظم وأنعم
وأبلغ في المدح .

وقول النابغة أيضاً :

متوَّج بالمعالي فوق مفرقه وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر
يحمل معناه إلى الذهن جليلاً قوياً نفخاً من طريق موجز مختصر ، لا يتأق
بإمهاً بنا فى وصفه بالجمال والشجاعة .

وسر ذلك : أن الصور العقلية يسهل انتزاعها من الألفاظ الخاصة ،
ومن الأمور الجزئية والبسيطة ، أكثر من الألفاظ العامة ، والأمور
الكلية والمركبة .

فالشطر الأخير من البيت المتقدم يتضمن على قصره من المعانى
ما لا يستطيع تأديته من غير طريق الصور الخيالية إلا بتطويل وإفاضة ،
مع الخلو من المبالغة والقوة والتأثير والتقرير التى حوّاها هذا الكلام
الموجز القصير .

هذه القواعد التى ذكرناها قواعد رئيسية فى حسن التشبيه .

أما الأشياء التي يزيد بها حسنه فكثيرة ، منها :

١ - أن تجتمع عدة تشبيهات في بيت واحد أو ألفاظ يسيرة ، كقول امرئ القيس المشهور :

له أبطالا ظلي ومساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تستفل
فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء .
وذلك أن مخرج قوله :
له أبطالا ظلي

إنما هو على أنه له أبطالان كأبطل الظلي ، وكذا ساقان كساق النعام ،
وإرخاء كإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التنفل (١) .
وكقول ابن الساعاتي :

ما الجوى إلا عنبر والدوح إلا جوهر والأرض إلا سندس
سفرت شقائقها فهم الأفحوا ن بلسمها فرنا إليه الفرجس
فكان ذا ثغر ، وذا خد يحا وله ، وذا أبدأ عيون تحرس
هذا رأى قدامة ، ولعله يريد من اجتماع عدة تشبيهات أن تكون
الصورة غنية بألوان مختلفة من الأخيلة ، لتكون ممتعة من جهة ، ودالة على
مهارة منشئها من جهة أخرى .

ونحن لا نستطيع أن نفر هذا الرأي في كل حال ، فكثيراً ما تكون
كثرة التشبيهات في البيت الواحد من أسباب ثقله ، وفسولة تركيبه ، وتعقيد
معناها ، وكثيراً ما يكون التشبيه الواحد مليئاً بالجمال والخصب والحياة
بحيث لا تطاوله هذه التشبيهات المجمعة في عمق الخيال ودقة المعنى وبداعة
التصوير وبعد المسلك .

٢ - أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير كقول بعض النساء :
 هم الريح والشمس المعتمد والذروة العليا والركن الأشد
 ٣ - أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال
 كقول امرئ القيس - يصف الدرع في حال طيها -

ومشدودة السك موضونة تضام في الضم كاللهود^(١)
 ثم وصفها في حال النشر فقال :

تفيض على المرم أردانها كفيض الآتي على الجدد^(٢)
 وقول لبي الأخيلية ترى توبة بن الحنير :
 فتي كان أحيا من فتاة خريدة وأشجع من ليث بخفشان خادر^(٣)
 وقول العسكري :

إذا اهتز للهجاء فهو مهز - أو اهتز للإفضال فهو غمام
 وقول بعضهم :

جلوس في مجالسهم رزان وإن ضيف ألم فهم وقوف
 إذا نزلوا حسبهم بدورا وإن ركبوا فإنهم حتوف
 ٤ - أن يقع على صورة التشكيك - وهو نوع مما يسمى بجاهل
 العارف ومزج الشك باليقين - وتعريفه : أنه إخراج ما تعرف صحته
 بخارج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا .

وقد رأيناهم ، العرب ، احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع
 بالامتعارات والمجازات التي استعملوها وبالتشكيك في الشبهين .

(١) السك : السار ، والموضونة : الموضوعة حلفتين حلفتين : أي إذا طويت صغرت ولطفت
 حتى تصير كاللهود .

(٢) الجدد كقراة : الأرض الصلبة القوية أي إذا تدرت طاشت على لابسها فبض الغيث
 القوي على الأرض الصلبة اليابسة .

(٣) خفان كشاد ، مأسدة مشهور بقوة أسودها .

وهو من ملح الشعر وطرف الكلام ، وله في النفس حلاوة وحسن
موقع ، بخلاف ما للغلو والإغراق .

وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما
من الآخر .

مثاله من المنشور ما كتبه العسكري إلى بعض أهل الأدب : سمعت
بورود كتابك ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عظمي المرح أمام
مشاهدته ، فما أدري أسمع بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب
ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ، أم روض مطور ، وكلام منشور ،
أم وشى منشور ، ولم أدر ما أبصرت في أثنايه : أبيات شعر ، أم عقود
در ، ولم أدر ما حملته : أغيث حل ، بوادي ظمآن ، أم غوث سيق إلى لطفان .

ومثاله من المنظوم قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء مخبئات فحق لكل عصاة هداة (١)
فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء .

وهذا أملح من أن يقول : هم نساء وأقرب إلى التصديق .

وقول ذي الرمة :

فيأظية الوعساء بين جلاجل وبين النفا أنت أم أم سالم (٢)
فلو قال : أنت أم سالم على نفي الشك ، بل لو قال : أنت أحسن من
الظبية لما حل من القلوب محل التشكيك .

(١) الهداء : عداية العروس إلى زوجها .

(٢) الوعساء : رملة لينة ، وجلاجل يضم الجيم وفتحها ويروى بالخاء : اسم موضع بعينه ،
والنفا : السكيب من الرمل ، وأدخل الألف بين الهمزتين من قوله : أنت كراهية اجتماع
همزتين كما دخلت بين التوات في قولهم : أخريتان كراهية اجتماعهما .

وقول جرير :

فإنك لو رأيت عبيد نسيم وتيما قلت أيهما العبيد ؟

فلو قال : عبيدهم خير منهم لما كُنَّ به الصدق ، فاحتال في تقريب المشابهة ؛ لأن في قربها لطافة تقع في القلوب وتدعو إلى التصديق .

وقول أبي النجم يصف عرق الخيل :

كأنه من عرق يسربله ككسر سف الشداف لولا بطله (١)

فإنه لو قال : إنه الكرسف لم يكن في حسن هذا ؛ لأنه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع في الشك .

ومن ذلك قول أعرابي :

أيا شبيه ليلى ماليلي مريضة وأنت صحيح إن ذا لمحال
أقول لظبي مرّ بي وهو رانع أنت أخو ليلى فقبل يقال

وقول أعرابي آخر :

أقول والنجم قد مالت مياسره إلى الغروب تأمل نظرة حار (٢)
ألحّة من سنا برق رأى بصرى أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معنكر فلاح من بين حجاب وأستار

وقول المتنبي :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر بني برود وهو كبدى جمر (٣)
أذا الغصن أم ذا الدّءصر أم أنت فتنه وذبا الذي قبلكه البرق أم ثغر

(١) الكرسف بضم الكاف : القطن .

(٢) حار : مرخم حارث .

(٣) البرود : الشديد البرد .

وقول ابن هاني الأندلسي :

عَشَكَاتٍ لِحَظِّكَ أُمَ سَيُوفٍ أَيْكَ وَكَثُورِ خَمَرٍ أُمَ تَمَرِاشِفٍ فَيْكَ

وقول بعضهم :

أَأَنْتِ دِيَارُ الْحَيِّ أَيْتَهَا الرِّبَا الْإِنِّيْقَةُ مَ أُمَ دَارِ الْمَهْمَا وَالنَّعَامِ
وَسِرْبِ ظَبْيَاءِ الْوَحْشِ هَذَا الَّذِي أَرَى بِرَبِّكَ أُمَ سِرْبِ الظَّبْيَاءِ النَّوَاعِمِ
وَأَدْمَعْنَا اللَّائِي عَفَاكَ أَنْسَجَامُهَا وَأَهْلَاكَ أُمَ صُوبِ الْغِيَامِ السَّوَاجِمِ
وَأَيَامُنَا فَيْكَ الْوَأَقَى تَهْتَرَمَتْ مَعَ الْوَصْلِ أُمَ أَضْفَاثِ أَحْلَامِ نَانِمِ
وَهَذَا النَّوْعُ كَثِيرٌ فِي الْأَشْعَارِ ، وَالشَّكُّ هُنَا أَحْلَى فِي الصَّدُورِ وَقَعَا
وَأَنْدَى عَلَى الْإِكْبَادِ رَفِيفًا مِنَ الْبَقِينِ .

هـ — أن يكون قد وُطئ له بكلام سابق ؛ كقول ابن الرومي في وصف سوداء :

بِفَتْرَ ذَلِكَ السَّوَادِ عَنْ يَمَقِّقٍ مِنْ ثَغْرِهَا كَاللَّائِي الْفِيلَقِ
كَأَنَّهَا وَالْمَزَاحَ بُضَحَكُهَا لَيْلٌ تَفْرَعِي دَجَاهِ عَنْ فَالِقِ
وَفَضْلُ كَلَامِ ابْنِ الرَّوْمِيِّ عَنْ سَوَادٍ : أَنَّهُ قَدِمَ فِي التَّشْيِيبِ لِعَنَاءِ مُقَدِّمَةِ
أَيْدِيهِ ، وَوَطَأَتْ لَهُ الْأَذَانُ ، وَأَصْغَتْ الْأَفْهَامُ إِلَى الْإِسْتِحْسَانِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ :
بِفَتْرَ ذَلِكَ السَّوَادِ (١)

وقول الأعشى :

وَعَرَّيْتُ مِنْ مَلِكٍ وَخَيْرِ جَمْعَتِهِ كَمَا عَرَّيْتُ مِمَّا تَمَرَّ (٢) الْمَغَازِلِ
وقول إبراهيم الصولي :
أَرَاكَ إِذَا أُبْسِرْتَ خَيَّمْتَ عِنْدَنَا مَقِيمًا وَإِنْ أَعْمِرْتَ زَرْتَ لِمَامَنَا

(١) الذخيرة — ١٢١ .

(٢) تمر : تفنل .

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه أغبّ وإن كان الضياء أقاما
وقول المتنبي :

سقانا وحيانا بك الله إنما على العيس نوزر والحدور كأنهم
لما جعل هؤلاء الحسان زهرا وجملا الحدور كأنهم دعا لهم بالسقيا
كما تسقى الأزهار ، وفرّج عن ذلك أن جعلهم نجية يحيا بها ، كما جرت العادة
أن يحيا بالزهر والريحان ، وهو من المعاني الغزلة الرقيقة .

وقول أبي فراس الحمداني :

وقور وديعان الصبا يستقرّها فتأرن أحيانا كما يارن^(١) المهر
وقول محمد الشامي :

لا يحسن الشعر إلا في محاسنه كالدر أحسن ما يبدو على الجيد
فأنت ترى في هذه الأبيات جميعها : أنه قد تقدّم التشبيه ما يدل عليه ،
حتى ليكاد يتصور في ذهنك ؛ لو تأفك العلاقة بين الكلام السابق واللاحق .

٦ - أن يجمع فيه بين لونين من الشعر كالنسب والمدح مثلا .

فن ذلك قول القزّاز يمدح ابن حمّاد :

نقى الحب عن مقلّي الكرى كما قد نقى عن يديّ العدم
فقد قرّ حبك في خاطري كما قرّ في راحتيه المكرم
وفرّ سلوكك عن فكري كما فرّ عن عرضه كل ذم
لحبي ومفخره باقيا ن لا يذهب ان بطول القدم
فأبقى في الحب خال وجذم وأبقى له الفخر خال وعم

(١) أرن : مرح ونشط .

وقول إبراهيم بن محمد الأنصاري :

خطرت كيد القنا المتأطر ورتت بالحافظ الغزال الأعفر^(١)
وأنتك بين تطاعن وتداعب في فتك قسورة وعطفة جوذر
بجمع بين الحاسة والنسيب .

وهذا اللون يسميه أهل البيان : « الافتنان » .

٧ - أن يكون لطيف الصياغة ، عذب الالفاظ ، خفيف الظل ؛ كقول
أبي سعد المخزومي :

والورد فيه ~~كأنما~~ أوراقه ~~نزع~~ ورود مكانهن خدود
فلم يزد على التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت
إذا فسنته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست في نفسك هزة ،
ووجدت طريقة تعلم لها أنه انفراد بفضيلة لم ينازع فيها^(٢) .

٨ - أن يكون تشبيه حالة وجود بحالة عدم ، أو حالة عدم بحالة وجود .

فن الأول - وقد جاء كثيراً في أشعارهم - قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات كخالخال
ولم أسبأ الزوق الرعوى ولم أفلح لخبلى كرمى كرة بعد إجفال
وقول متعم بن نؤيرة في أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة^(٣) حقبة من الدهر حتى قبل لن يتصدعا
فلما تفرقنا ~~كأنى~~ ومالكنا أطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(١) جذيمة الأبرش ملك الحيرة .

(٢) الأعفر : ما يعلو ياضه حرة من الظباء .

(٣) الوساطة لقاضي الجرجاني - ١٤٧ .

وقول أشجع السلي :

كان لم يمت حتى سواك ولم تقم
وقول إبراهيم بن المهدي :

كان لم يكن كالغصن في ميعه الضحا
سقاء الندى فاهتز وهو رطيب
كان لم يكن كالدر يلمع نوره
بأصدافه لما أشبهته نقوب
كان لم يكن زين الفناء ومعقل م النساء إذا يوم يكون عصب
وقول أبي نواس :

تضحك الدنيا إلى ملك
قام بالآثار والسنين
سنّ للناس الندى فندوا^(١)
فكان المحمل لم يكن
وقول ابن الأحنف :

كان لم يكن يبق ويترك هوى
ولم يك موصولا بحبلكم حبل
وإن لا استحي لكم من محدث
يحدث عنكم بالملالة والمطل
وقول ابن زيدون :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والدمر قد غرض من أجفان راشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
وقول ابن يحيى :

إن يغدروا أو يفجروا أو يبنخلوا لم يبنخلوا
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا
وهو من بارع الهجاء ، وفيه تتمثل صفاته الوجه وصلابته أدق تمثيل ،
وكان قائله نظر إلى الحديث الشريف ، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ، .

(١) ندوا : أي أنصبروا .

وفيه بقول قدامة : ومن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمّد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق ، والبخل ضد الجود .

ثم أتى بعد ذلك بعد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال :

وغدوا عليك مرجلين

لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبيهة والقيحة التي هي من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس في كتابه ، في أخلاق النفس^(١) .

والشعر عندي لا يحتمل هذا التحليل العقلي الفلسفي ، وليس هو من مراد الشاعر العربي الذي لا يفهم هذه النظريات المعقدة ، وإنما غرضه أن يهجوهم بصفات تعير بها العرب ، ويغزى منها الرجل الشريف .

ثم زادم سباً مقذفاً ، فذكر أن هذه الصفات تندي لها جباه من لصقت بهم ، ويطأطئون لها رؤوسهم نجلاً ، ولكن هؤلاء لتجردهم من الحية والكرامة والنخوة والأنفة ، ولنضوب وجوههم من الحياء ، وموت ضمائرهم ومشاعرهم يمرون عليك . وقد رجتلوا شعورهم إيماناً في الصفاقة والاسهتار ولفتنا للأنظار - كأنهم لم يأتوا شيئاً منكراً على حين أنهم أتوا بأنكر الأشياء .

والذي ذكره قدامة ، مردّه إلى مذهبه الذي اعتنقه ، وهو أن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقيح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ، ويخطئ كل من يمدح بهذا ويزم بذلك ، ويستدل بإنكار عبد الملك على ابن قيس الرقيات في قوله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقوله له : تقول في هذا وتقول لمصعب :

إنما مصعب شهاب من الله م تجلت عن وجهه الظلماء

وزبدة رأى قدامة أنى بها الشاعر في قوله :

وعيب الفقى فيما أنى باختياره ولا عيب فيما كان خلفا مركبا

وفد ذكر الخفاجى أن الأمدى أنكر على قدامة مذهبه ، وقال : إنه
خالف فيه مذاهب الأمم كلها عربيا وعجميا ؛ لأن الوجه الجميل يزيد في
الهيبة ويقيم به ، ويدل على الخصال المحمودة .

فإن كان قدامة يعتقد أن ذاك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق
عليه . فهذا حكم جميع الفضائل الإنسانية ؛ فإن الكريم قد خلق كريما
والشجاع شجاعا والماعل عاقلا ، وكما لا يقدر القبيح الوجه على أن يستبدل
صورة غير صورته ، كذلك لا يقدر الجاهل على أن يستفيد عقلا فوق
عقله ، ويلزم قدامة ألا يميز المدح بشرف النفس ، وكرم الأصل ، لأن ذلك
يجرى مجرى الصور ، ولا يصنع للممدوح في شيء منها ، والأمر في هذا ظاهر .

فأما إنكار عبد الملك بن مروان على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج ،
فإنما أنكره . لأن التيجان من زى ملوك العجم ، ولم يكن خلفاء العرب
يعرفونها ، فقال له : تمدحنى كما تمدح ملوك الأعاجم ، وتمدح مصعبا كما
تمدح الخلفاء .

والأمر كما قال عبد الملك ، لأن مدح الخليفة بأنه شهاب من الله
- تعالى - أبلغ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه^(١) .

وهذا الذى ذكره الأمدى صحيح ، ولو لم يكن فى ذلك إلا ما جبلت
عليه النفوس من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى .

وبما يدل على خطأ قدامة في تهوينه من قيمة الجمال : ما جاء في الآثار من
أن الله لم يبعث رسولا قط إلا جميل الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت .

وكان الرسول — صلوات الله عليه — حسن الصورة ، وقد مثل على
— كرم الله وجهه — : أكان وجه رسول الله مثل السيف ؟ فقال : لا ؛
بل مثل القمر .

وقد جاء في صفته الشريفة : كأن الشمس تجري في وجهه ، وفيه يقول
شاعره حسان :

فأجل منك لم تر قط عيني وأكل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفي بالخير يدعو كضوء البدر زايه الظلام
وكان عمر إذا رآه ينشد قول زهير :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر
ونظرت إليه السيدة عائشة يوماً فتبسمت ، فسألها عن ذلك ، فقالت :
كان أباكثير الهنلى عناك بقوله :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وكان — عليه الصلاة والسلام — يدعو إلى جمال الباطن بجمال الظاهر
كما قال جرير بن عبد الله البجلي : أنت امرؤ قد حسن الله خلقك
فأحسن خلقك .

كما كان يستحسن أن يكون الرسول حسن الوجه حسن الاسم ،
وفي ذلك يقول : « إذا أبردتم بريداً^(١) فليكن حسن الوجه حسن الاسم » .

(١) أي إذا أرسلتم رسولا .

وقد ذهب بعض المفسرين في قوله — تعالى — : « يزيد في الخلق ما يشاء » ، أنه الوجه الحسن ، والصوت الحسن .

والحسكاء يقولون : إن حسن الصورة أول سعادة الإنسان ؛ لأن الله — تعالى — باطيف حكمته لم يخلق الصورة مختارة الصفات سليمة من الآفات ، إلا وأضاف إليها ما يناسبها من العقل والصفات .

وقالوا : قلما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة .

والمؤمن يقول : إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة ، وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة .

ورحم الله شوقي إذ يقول :

والحسن من شرف الوجوه وخيرهم ما أوق القواد والزعماء

وقد كان الفرس يقيمون بالوجه الحسن كما كانت العرب تتمدح بهال
الوجه ؛ قال ابن عنقاء الفراري في محميلة الفراري .

غلام رماه الله بالخير يافعا له سيمياء لا تشق على البصر^(١)
كان الثريا علقت في جبينه وفي خده الشعرى وفي وجهه القمر
وقول البحري :

ولما حضرنا سدة الإذن أخسرت رجال عن الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من فوري إلى ذي مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وكل ما اشترطوه في ذلك ألا يفسد المادح في مدحه حتى يشبه النسب
كقول المتنبي :

أغار من الزجاجة وهي تجري على شفة الأمير أبي الحسين

(١) رواية البرد في السكامل . رماه الله بالحسن ، وقد اقتضاه أبو رباح ، وقال لابرويه بالحسن إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود . رغبة الأمل — ١ — ١٠٨ .

وقول ميار في صاحب أبي القاسم بن عبد الرحيم :

إذا صاحب استقبلت غيرة وجهه بدا قرء واف وما من قضيب
أما تشبيه حالة الدم بحالة الوجود - ضد الأول - فكقول عنقرة
في ناقته - وهو من التشبيه المقلوب : -

وكان رُباً أو كُخَيْلاً مُنْقَداً حشّ الوُقُودُ به جوانب قُنُقُم^(١)
ينباع من ذفرى غضوب جَسْرَة زِيَا فة مثل الفتيق المَكْدَم^(٢)
شبه العرق السائل من رأسها وعنفها بطلاء أو قطران ، وضع في ققم
أوقدت عليه النار حتى غلى وسال .
وعرق الإبل أسود ، لذلك شبهه بالطلاء والقطران ، وشبه رأسها
بالققم في الصلابة .

٩ - أن يكون من المحسوسات الناصعة حتى كأنه يرى أو يسمع أو يشم
أو يذاق ، وقد يملؤه الشاعر قوة وخصباً فيخيل إلينا أن الحياة تدب فيه
وأن له سمياً وحركة ، ولا ريب أن بعض الصور البيانية يبلغ من روعتها
وعظم حيويتها وصدق أدائها ورفقة ماثها وصفاء قوالها وشدة إشعاعها ،
أنها تصل إلى هذه المنزلة الرفيعة .

فن التشبيهات البصرية التي تنوب عن التصوير قول بعض الشعراء :

قوس ظهري المشيب والضعف والدمر يا صاح كله عجز
كأنني والعصا تدب معي قوس لها - وهي في يدي - وتر
وقول آخر :

وما الحب إلا شعلة قد داحت بها عيون المها باللحظ بين الجوانح

(١) الرب : الطلاء ، والكحيل : القطران ، والمنقذ : الغل حتى ينفذ .

(٢) الذفرى : ما خلف الأذن ، والجسرة : الموتقة الخلق والزينة المنبعثة ، والفتيق الفحل
السكرم ، والمكدم : العضوض .

وقول صاعد الأندلسي في وردة لم تتفتح ؛ حملت إلى المنصور أبي عامر
الأندلسي :

ودونك يا سيدي وردة بذكرك المسك أنفاسها
كمذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها
وفي رواية : أنتك أبا عامر .

وقول الصنوبري في وصف بحيرة :

بحيرة طاف بها الغلمان أبدع في صنعها الزمان
كانها فيما حكى العيان فواره وماؤها دخان
في بركة حباؤها نيران إذا تبدت حزن الريحان
وسرت الجيوب والأردان

وقوله :

أرايت أحسن من عيون الرجس أم من تلاحظهن بين المجلس
در تشققي عن يوافيت على قضب الزبرجد فوق بسط السندس
وقول أبي عينة :

فيأطيب ذاك القصر قصراً ومنزلاً بأفيع مهل غير وعز ولا ضنك
بفرس كأبكار الجوارى وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
كان قصور القوم ينظرون نحوه إلى ملك موف على منبر الملك
وقول الناشئ :

قضب الزبرجد قد حملن شقائقها أنمارهن قراضة المقيان
وكان قطر الطل في أهدابه دمع مرته فواتر الأجفان^(١)
وقول المتنبي في المغيث العجلي :

أقامت في الرقاب له أباد هي الأطواق والناس الحمام

شبه نعمه في رقاب الناس بالأطواق في رقاب الحمام ، ووجه الشبه
الملازمة .

وطوق الحمامة يضرب بها المثل لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم .

وقوله في مدح سيف الدولة :

صدمتهم بخميس أنت غرته وسهرته في وجهه غمم
شبه الجيش بالفرس ، وسيف الدولة في مقدمته بالفرقة في وجهه ،
والرماح المشرعة في أيديهم بالغم ، وهو كثرة شعر الناصية .

وقوله في الكأس :

كان يياضها والراح فيها يياض يحدق بسواد عين
وقوله :

كان بنات نعش في دُججها خرائد سافرات في رحداد
ومن البدائع وصف قدح لابن الرومي أهده إلى يحيى بن المنجم :

وبديع من البدائع يسبي كل عقل ويَطْطِي^(١) كل طرف
دق في الحسن والملاحة حتى ما يوفيه وأصف حق وصف
كفم الحب في الملاحة أو أشق^(٢) م وإن كان لا يُناغي بحرف
تنفذ العين منه حتى تراها أخطائه من رقة المُستشف
كهواء بلا هباء مشوب بضياء أرقق بذاك وأصف
وسط القدر لم يكبر الجرع متوال ولم يصغر الرشف
لا عجزول على العقول جهول بل حليم عنهم في غير ضعف

(١) يطى : يدعو ويستميل .

(٢) أشق : أصغر وأضيق ، وهذه رواية القائل في أماليه - ١ - ٢٨٢ وفي الديوان

بل أحلى .

ما رأى الناظرون قدًا وشكلا فارساً مثله على بطن كف
فيه لوز مُعَقَّر عَظْفَه حكام الغيوب أحسن عطف
مثل عطف الأصداغ في وجنات من غزال يُزْهِى بحسن وظرف
ومن التشبيهات المسموعة^(١) قول يزيد بن عوف العلي - بذكر
صوت جرع رجل قُرى اللبن - :

فعب دخالا جرعه متواتر كوقع السحاب بالطراف الممدد
فهذا المشبّه إنما يشبه صوت جرع اللبن على عصب المرى. من خلق
الإنسان ، بصوت المطر على الخباء المصنوع من الآدم .
ومن جودته أن الأصوات تختلف ، وأن اختلافها إنما هو بحسب
الاجسام التي يحدث الأصوات اصطكاكها .

وليس يُدفع أن اللبن وعصب المرى اللذين أحدث اصطكاكهما
صوت الجرع ، قريبا الشبه من الأديم الموتن والماء اللذين حدث عن
اصطكاكهما صوت المطر ؛ لأن المرى من جنس الآدم ، واللبن من جنس
الماء فصوتاهما متشابهان .

والغرض من هذا التشبيه المبالغة .

وكذا قول الأشجعي في تشبيه حلب عنز بصوت الكير إذا نفخ :
كان أجيج الكير إرزام شخبها إذا امتاحها في محلب الحى مانع^(٢)
وقول بعضهم :

نسمع لذاء كهوت المسحّل بين ورديها وبين الجحفل^(٣)

(١) نقد الشعر - ٦٥ - ٦٦ .

(٢) الأجيج والإرزام : الصوت ؛ والشخب : ما خرج من الضرع من اللبن والمانع
المستدر اللبن .

(٣) المسحّل : حمار الوحش له حنجرته يشبهون بها كثيرا ، والمسحّل أيضا : المبرد ،
الجحفل : جمع جفلة بمنزلة الشفة الغيل والبغال والحير .

وقول أبي الفضل الميداني :

شَفَّةٌ لَمَّا زَادَ فِي الْمَى فِي رَشْفٍ رِبْقَتَهَا شَفَاءُ سَفَامَى
قَدْ ضَمَمْنَا جَنَعَ الدَّجَى صَوْتَ كَقَطْكَ أَرْوَسِ الْأَفْلَامِ
وقول ابن مقبل :

وَالْفَرَادُ وَجِيبٌ نَحْتِ الْأَهْرِه لَدَمْ الْغَلَامُ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ
شَبَّ خَفْفَانِ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَرَى تَحْتَ الْأَهْرِه — وَهُوَ الْعَرَفُ الْمُنْصَلِ
بِهِ — بِصَوْتِ الْحَجَرِ الَّذِي يَرَى بِهِ الصَّبِيَّ مِنْ خَلْفِ حِجَابٍ وَلَا يَرَاهُ .

وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون بالحجارة

وقول المتنبي :

وَلَا تَحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زِقْمًا وَقَبْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ
وَتَرَكْكَ فِي الدُّنْيَا دَوْبًا كَأَنَّمَا تَتَدَاوَلُ سَمْعُ الْمَرْءِ أَغْلُهُ الْعَشْرُ
شَبَّهَ ، دَوْبَ الذِّكْرِ بِالدَّوْبِ الَّذِي يَسْمَعُهُ الْمَرْءُ حِينَ يَسُدُّ أُذُنَهُ بِأَنَامِلِهِ .
وقول شوقي :

حَلَوُ الْقَسَلِسِلِ مَوْجُهُ وَخَرِيرُهُ كَأَنَامِلِ مَرَّتْ عَلَى أَوْتَارِ

ومن التشبيهات ذوات الحركة قول بعض الأعراب :

حَنْتَنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَدُنْهُ لَهَيْدُ
قَرِيبُ الْخَطْوِ يَحْسِبُ مِنْ رَأْيِي وَلَسْتُ مَقْبُودًا أَمْشِي بِقَيْدِ

وقول المجنون^(١) — وهو أحد المحسنين في هذا المعنى — :

كَأَنَّ الْقَلْبَ قِيلَ غَدَاةً يَنْدَى بِلَيْسَ الْعَامِرِيَةِ أَوْ بُرَاحِ

(١) شبه العسكري في ديوانه الماعز إلى قيس لبي ، وفي بعض الروايات : أنه لتعيب .

قطاة عزها^(١) شَرِك فبانت
وقوله :
وداع دعا إذ نحن بالخيف من مني
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
وقول قبس لبي :
أنبكي على لبي وأنت تركتها
فإن تكن الدنيا بليتي تقلبت
كأن في أرجوحة بين أجبل
وقول بعض الأعراب :
الا بأبي من ليس واقه ناهي
ومن كبدي تهفو إذا ذكر اسمه
وقول ابن ميادة :
أن فؤادي في يد ضبيث^(٢) به
وقول بشار :
بروتعه السرار^(٣) بكل شيء
كان فؤاده ككرة تنزوي
وقول العباس بن الأحنف :
أعيزك أن تشق بقتلي فإني
إذا القلب أو ما أن يطير صباية
كان جناحيه إذا هاج شوقه

تجاذبه وقد علق الجناح
فهبج أحزان الفؤاد وما يدرى
أطار بليلى طائراً كان في صدرى
وكنيت عليها بالملأ^(٤) أنت أقدر
فللدهر والدنيا بطون وأظهر
إذا فكرة منها على القلب تخطر
بئيل ومن قلبي على النأي ذا كره
كهفو جناح ينقصر السّطل طائره
محاذرة أن يقطع الحبيل قاضيه
مخافة أن يكون به السرار
يحذر البيز لو نفع الحذار
أخاف عليك الله أن سميتني حتى
ضربت له صدرى وألزمته كني
بداقينة هوجاء تضرب بالدف

(١) عزها : غلبها . (٢) الملا : السحراء .

(٣) ضبت به : قبس عليه بكفة . (٤) السراو : التحدث خفية .

وقول أبي نواس :

كانها حين تمشي في وصائفها تخطو على البيض أو خضر القوارير
وقول مسلم بن الوليد :

كان قلبي وشاحها إذا خطرت وقلبها فلبها في انصمت والخرس^(١)
وقول المتنبي :

يخدن^(٢) بنا في جوزه وكاننا على كرة أو أرضه معنا مفسر
وقوله :

كاننا قدما إذا انتقلت سكران من خر طرفها ثمل
وقوله :

وكان برقاً في متون غمامة هندیة في كفه مسلولاً
وقوله يهجو ابن كعب غلبغ :

ما زلت أعرفه فرداً بلا ذنب خلوا من البأس ملواً من الزرق
كريشة في مهبّ الريح ساقطة لا تستقر على شيء من القلق
وقول السري الرفاء يصف دولاباً :

الماء يلعب كالأراقم موجه والسفن بالأذئاب فيه عقارب
والصوت من دولاب كل متوج أطفال زنج للرضاع نوادب
فانظر إليه كأنه وكأنما كبرانه والماء منها ساكب
فلك يدور بأنجم جعلت له كالعقد فهي شوارق وغوارب

وقوله - يمدح الأمير الحسين الحمداني ويصف جيشه :

إذا ماج الحديد ضحا عليه حبت البر بجرأ ذا الطراد

(١) القلب بالضم : السوار (٢) يخدن : يسرعن ، والجوز : الوسط ، والضمير للفرس :

وقول شاعر :

كأنما الليل راكب فرسا منهزما والصباح في طلبه
وقول آخر :

لدى أفعوانات يُطفن بناضر من الورد بحر الثياب نصيد
إذا الريح هزته نوهمت أنها تغور هوت قصداً لعض حدود

١ - أن يظهر فيه أن المشبه به محتاج إلى المشبه كقول المتنبي في الخصبى :

لم نفتقد بك من مزن سوى لشق ولا من البحر غير الريح والسفن
ولا من اللبث إلا قبح منظره ومن سواه سوى ما ليس بالحسن
وقوله في مدح أبي سهل الأنطاكي :

يا صائد الجحفل المرهوب جانبه إن الليوث تصيد الناس أحيانا
وقول آخر .

حبّيته بشقائق في مجلس ورأى الرقيب فشقّ ذاك عليه
فار من خجل فأنبئت خده أضعاف ما حملت يديّ إليه
وقول آخر :

مليح يفار الغصن عند اهتزازه ويخجل بدر الثم عند شروقه
فافية معنى ناقص غير خصره وما فيه شيء بارد غير ريقه
وقول آخر :

ولما رأيت البحر في الجودية ومن جوده الدر الثين المقلد
تساءلت من في الناس علك الندى فقال أمير المؤمنين محمد

١١ - أن يختار له الالفاظ المعبرة المترققة بمعانيها الحية النابضة ،

والتي تتعرج منها الأشعة وتتوحد على لحظ العيون ، وتصف بها ظلال
ذات قيم شعورية ، تشير إلى معان أخرى ترف على المعاني الأصلية رفيف
المهالة على صفحة القمر .

وإنك لتلنس هذا في قول المتنبي :

كان الفجر رجباً مستزار
كان نجومه حلى عليه
كان دجاء يحجبها سهادى
أقلب فيه أجفانى كانى
وقوله بصف بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغو
والموج مثل الفحول مزبدة
والطير فوق الحباب تحسبها
كانها والرياح تضربها
كانها في نهارها قصر
فهى كآوبة^(١) مطوقة
رُ دقء وماؤها شيم
تهدر فيها وما لها قسطن^(٢)
فرسان بلق تخونها اللحم
جيشا وغى هازم ومنهم
حفت به من جناها ظم
جرمد عنها غشاؤها الأدم

وقول ابن خفاجة :

وليل تعطينا المدام وبيننا
نعاوده والكأس يعبق نفحها
ونقل^(٣) أفاح الثغر أوسوسن الطلى
حديث كما هبّ النسيم على الورد
وأطيب منها ما نعيد وما نبدى
وزجسة الأجفان أو وردة الحد

إلى أن سرت في جسمه الكأس والكرى

وما لم بمطفيه قال على عضدى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعي
وعاينته قد سلّ من وشى برده
ليان بحسن واستقامة قامه
من الحرّ ما بين الثنايا من البرد
فعاينت منه السيف سلّ من الغمد
وهزة أعطاف ورووق إفرند

(١) الجيوب بالفتح : الأرض . (٢) القطن : حياج الفعل .

(٣) الآوبة : المرأة ، والأدم : الجلد .

(٤) النقل بالفتح والضم ما ينتقل به على المراب ، والطل : جمع ثلثة بالضم ومعنى العنق ، شبهها بالدوسن في بياضها .

أعاق منه الفصن في مفر من القنا وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فإن لم يهكها أو تكته فإنه أخوها كما قد الشراك من الجلد
تسافر كأننا راحتي بحسبه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهد
فهيبت من كشحيه كنى رهامه وتصد من نهديه أخرى إلى نجد

فهذه القطع وكثير غيرها تطالعك بصور مبهجة ، توفق بصرك . ونغم
شجي بطرب سمعك ، وعبير شذى يחדّر أعصابك ويهدد شجوتك ،
ويحملك إلى أفق موشى منصور الجنبات بديع الرؤى مسكر المناظر ، تهم
فيه مع الأوهام السارة والأحلام اللذيذة .

وهكذا تظهر قيمة الألفاظ المختارة بعناية في إبراز المعاني جياشة
بالحركة عميقة المغزى مليئة بالقوة ، كأنما تهم أن تفيض من معارضها فيضاً
وتنسكب في أذنك .

فالمصورة الكلامية التي يستخدمها الشعراء إن أجيد استخدامها كانت
أداة مفيدة في أيديهم ، فيفضلها تشخيص المعاني المجردة ، وتصب في قوالب
مرتبعة محسوسة ، وبذلك تكتسب قوة ونصوعاً .

وما هذا التشخيص إلا واحد من مئات من طرائق التعبير وأساليبه
عند الشعراء يريدون بها ألا يقتصروا في أداء المعنى على مجرد سرده وبسطه .
بطريقة مستقيمة مباشرة ، لأنهم إن فعلوا كانوا يخاطبون العقل ومهمتهم
أن يثيروا بالفاظهم المختارة وصورهم الجيدة كل ما يمكنهم أن يثيروا
في أنفس القراء من مشاعر وذكريات .

ومن أهم هذه الطرائق التي يصطفها الشعراء في أداء المعاني : التشبيه
والاستعارة ؛ وذلك لأن الشاعر يرى بين الأشياء التي تبدو منفصلة لعلالة
لأحدهما بالآخرى روابط وصلات ، فإذا ما ربط بعضها ببعض كانت له
استعارة أو تشبيهاً (١) .

٩٢ - أن يعقد صلة بين الأشياء المتباعدة التي لا يقع في الظنون أن
تشابه وتماثل كالذي أشده الشَّعْبِي :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنْتَ وتعبّر في القلاة سواء
وجعل له بعضهم عجزاً آخر فقال :

فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً

فإن الإنسان باديء ذي بدء لا يرى معنى لمساواة الخلق من العشق
بالحار الوحشي أو الحجر الجليد !

ولكن أرباب الغرام الذين ابتلوا به ، وفلاسفة الحب الذين درسوا
علله وأسبابه ، يرون أنه لا يصدر عن غليظ الطبع ، أغلف القلب ، كثيف
الذوق ، مطموس البصر والبصيرة ، محجوب العقل عن رؤية الجمال
واستجلاء أسرارهِ وتذوق بدائعه ، وأن العشاق في العادة موسومون بخفة
الروح ، وعذوبة النفس ، وسلامة الحاشية ، ورقة الشمايل ، ولطف الشيم ،
والارتياح للمعروف ، والرحمة بالباطسين ، والعطف على المعذيين ، والنفور
من القسوة والبخل والعدوان وعبادة الماديات ، إلى غير ذلك من القيم
الإنسانية العليا التي ترفع البشر إلى درجة الملائكة المقربين !

وإلى بعض ذلك أشار مجنون ليل في قوله :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا لتُحمد يوماً عند ليلى شمائله

وقال الهاء زهير :

وأني لأهوى كل من قبل عاشق ويزداد في عيني جلالاً وبشرف

يعظم من يهوى ويطلب قربه فتكثر آداب له وتزلف

ومن هنا صحَّ لهم أن يجعلوا المجرّد من الصياغة عدلاً للحجار والحجر ؛
لأنه في نظرهم حرم الشعور النبيل، والعاطفة السامية، والقلب الكبير الخفاق
بأجل الأحاسيس وأرقها وأرفعها !

لذلك لا نعجب إذا سمعنا قول العباس بن الأحنف :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتكم والظلام كأنه يوم النوى ، وفؤاد من لم يعشق

وقول بعضهم :

وما سرفى أنى خلى من الهوى ولو أن لى ما بين شرق إلى غرب

وقد تكون هذه الدعوى جامعة ، ولكنها مسئلة عند أصحابها على الأقل .

على أن الأبحاث الحديثة تسند دعواهم ؛ فقد قام بعض أساتذة جامعة شيكاغو بأبحاث نفسية لدراسة الحب في حياة الإنسان ، وقد أجمع هؤلاء الأساتذة على أن الحب هو ترمومتر الحياة ، بحيث يوجد الحب ، أو يوجد الإحساس بالجمال ، وحيث يوجد الإحساس بالجمال يوجد النظام ، وحيث يوجد النظام ، يوجد الحرص على الحياة .

ومعنى ذلك : أن الحياة الحب ، والحب الحياة كما قيل :

وأن من حرم نعمته كان قيناً أن يلحق بعالم العجاوات ، بل بعالم الجمادات .

وكذا قول الآخر :

إذا ما كنت ذا قلب فنوع فأت ومالك الدنيا سواء

فإن النظرة المعجلى العابرة لا تسوئى بين الفقير المعدم الفروع ، المحروم من مباحج العيش ، ومتع الحياة وزينة الدنيا ، وبين ذي الجاه العريض والنفوذ المبسوط والثراء الواسع ، ولكن إذا روينا في الأمر وأصقينا لصوت العقل وحكمنا التجارب ، وقسنا الأشياء بمقاييس المنطق السليم والحكمة البليغة ، بان لنا أن السعادة الحق ليست في تسنم المناصب ، وزخرف الحكم ، وبريق الأموال ، وسعة الضياع وأبهة القصور ، وكثرة الأثاث والرياش ،

(١) تزيين الأسواق - ١٠ . (٢) أخبار اليوم ١٩ / ٤ / ٤٢ .

(م - ٢ فن التشبيه)

وتناول الأطلعمة الفاخرة والأشربة المشبعة ، ولكنها في هدوء النفس ،
وسكينة القلب ، واطمئنان البال وراحة الضمير ، والقناعة في غير ذل
ولا ضراعة بما قسمه الله ، وابتغاء مرضاته بالعمل الصالح المرجو ثوابه
في حياة أخرى سرمدية البقاء !

وهذه الدرجة العليا من السعادة الخالية من حرقة الهم ، ولوعة الحزن
وجوى الحسد ، وشفاء الشكائب والتهالك على الخطام الزائل ، قد تجدها عند
سكان الأكواخ ولاسي الجلايب الزرق الذين يعيشون على الكفاف ،
وتفتقدوا بين أرباب القصور الشم ، والحلل الحريرية ، والسيارات الغالية
والأرصدة المدخرة ، لأنهم فقدوا كنزاً أنفس من كل ما حوته أيديهم من
ذخائر وأعلاق ، هو كنز الرضاء والقناعة ، حتى لو كان لأحدهم جبل من
ذهب لتمتني آخر من فضة ، فهم في شفاء دائم وكبد مقم !

وما أجمل قول الشاعر (١) :

إذا عوفي المراء في جسمه وخوله الله قلباً قنوعاً
وألقي المطامع عن نفسه فذاك الغنى وإن مات جوعاً

ولقد صدق من قال : ما أكثر لذات الحياة ! في كل شيء وفي كل عمل
لذة ! بل إن النضال للبقاء فيض من اللذة ، والمغامرة المثيرة لا يعرفها
الحاملون من الأغنياء ، وهم الذين يقعون بسرعة فريسة الملال والسأم (٢)
وكقول المعري في قصيدته الخالدة :

وشبه صوت النعي إذا قيس م بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنست م على فرع غصنها المياد
فهو هنا يسوّى بين صوت البشارة الشجي المطرب ، وصوت النعي
القابض المحزن !

(١) نسب في الواهب الفتحة — ٢ — ١٩٩ إلى علي — كرم الله وجهه — .

(٢) فلسفة السعادة للدكتور محمد فني — ٦٧ .

وهذا أمر عجيب في الظاهر حتى لتبدو استحالة التسليم به ، ولسكتنا حينما
ننعم النظر في عواقب الأمور وخوائفها ؛ فنرى الدنيا على حقيقتها دار
فناء وقرارة شقاء ، ومنزل ضنك وبؤس . وأن الحياة تنتهي فيها بالموت
الحتم ، والفناء الذي لا معدى عنه ، وأن كل فرح مصيره الترح ، وكل هناء
غايته الشقاء ، وكل لذة إلى ألم ، وكل شباب إلى هرم ، وكل صحة إلى سقم ،
وأن هذا المولود الذي تطلعت له الوجوه ، وابتنست له الثغور ، ودقت
لمقدمه البشار ، سيشتت يوماً بالعويل والنحيب ولطم الخدود وشتق الجيوب
إلى قبر أغبر ، جلس فيه الوحدة ، وأنيسه الوحشة ، حكمتنا مطمئنين : أن الدنيا
ظل زائل وسناد مائل ، ولون حائل ، وسراب خداع غرّار ، وأن صيحة
البشير ونعقة الناعي ، وزمر الزامر ، ورنه الشكلى ، ودق الطبول ، ولطم
الخدود ، تستوى عند ذى اللب اللبيب ، والرأى الأريب ، والنظر الثاقب
البيد ، وأن المعرى صادق كل الصديق في هذه الدحة الفلسفية الدقيقة
العميقة !

الفصل الثاني

موقع الألفاظ حسنا وقبحا في التشبيه

قد يحى التشبيه صائبا محكما دقيقا ، ولكن الذوق لا يستميعه لقبح لفظه أو قبح دلالة ، فتمجج النفس وتنبو عنه الأذن ، ويشيل في ميزان البلاغة ، ولو أنه انتقى له اللفظ البارع الأنيق لجمع بين الحسنين .

فن ذلك قول امرئ القيس^(١) :

وتعطو برخص غير شئني كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل
الأساريع والأساريع : دود يكون في البقل والأماكن الندية ، تشبه أنامل النساء ، كما تشبه بالعمى إذا كانت مطرقة .

والإسحل : شجر تدق أغصانه في استواء فتشبه الأصابع .
شبه الشاعر أنامل محبوبته في لينها ونعومتها بدود هذا المكان المسمى ظبيا .

وشبهها في دقتها واستوائها بمساويك هذا الشجر المسمى بالإسحل .
وتبعه في بعض هذا التشبيه ذو الرمة بقوله :

خرايب أمثال كأن بناتها بنات النقا تحق مراراً وتظهر^(٢)
وبنات النقا : هي الأساريع .

وقال الجاحظ : هي شحمة الأرض وشحمة الرمل ، يعناء حسنة تشبه بها كف المرأة .

(١) الملتفات السبع للزوزنى — ٢٣ .

(٢) الخرايب : جمع خرعوبة بالضم ، وهي الشابة الحسنة الخلق ، أو البيضاء اللعينة .
الجسيمة اللينة الرقيقة .

وقال أبو سليمان الغنوي : هي أعرض من العِظاة ، بيضاء منقطة بحمرة وصفرة أحسن دواب الأرض (١) .

وقال القالي : يقال للدودة تنسلخ فتصير فراشة : يسروع وأسروع . ويقال : هي الدودة التي تكون في البقل ، ويقال : هي بنات النقا ، وبنات النقا : دود أبيض يكون في الرمل تشبه الأصابع ، ثم ساق بيت ذي الرمة : خرايعب أمثال (٢) ...

وسواء أكانت الأساريع هي بنات النقا أم غيرها ، وبالرغم من اتفاقهم على حسن شكلها وقرب شبهها بالأصابع ، فهي لا تخرج عن كونها ضرباً من الديدان تستقذرها النفوس بمحض الفطرة مهما أسهب اللغويون في نعمتها بسمات الجمال !

وفي ذلك يقول ابن رشيق : والأساريع أحسن من البنان لينا وبياضاً وطولاً واستواء ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابته الحناء ، وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضري المولد إذ سمعت قول أبي نواس في صفة السكاس :

تعاطيكنها كفّ كأن بنانها إذا اعترضتها العير صف مدارى (٣)
أو قول ابن الرومي :

سقى الله قمرأ بالرُصافة شاقني بأعلاء قَصْرِى الدلال رُصافي
أشار بقُصُبان من الدر قُصمت بواقيت حمراً فاستباح عفاقي
أو قول ابن المعتز :

أثمن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

(١) الحيوان ٦ — ١١٩ .

(٢) الأمالي — ٢ — ١٦٣ .

(٣) المدارى : الأمشاط جمع مدوى بالكسر .

كان ذلك أحب إليه من تشبيه البتآن بالدود في بيت امرئ القيس ،
وإن كان تشبيهه أشد إصابة (١) .

وقد نستطيع أن نعهد العذر لامرئ القيس فإنه كان جاهلياً وإن كان
ملكاً ومن أبناء الملوك ، ولذى الرمة فقد كان يصب على قوالب البدو وإن
عاش في العصر الأموي ، ولكننا لا نستطيع أن نعتذر عن أبي تمام في قوله :
بسطت إليك أناملأ أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا
وقد نشأ في الحضارة وناغى الترف والذميمة .

ولم يرقعه في هذا القبح إلا التقليد للمتقدمين دون تبصر وتميز ، ولعله
لم ير الأساريح في حياته كلها .

ومن الإنصاف أن نعترف بأن انتشار المدنية وكثرة الرفاهية في العصر
العباسي بشطريه ، أقامت على الشعراء معاني جديدة مستملحة في تشبيهات
الأنامل البضة المخضبة كما رأينا في شعر أبي نواس وابن الرومي وابن المعتز
المتقدم :

وكما نرى في قول الخليفة الرضي :

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها في خدها وقد اعتلفن خضابا
فأخضر تحت بنائها فكأنها غرست بأرض بنفسج عنابا
وفي رواية (٢) :

فكأنها بأنامل من فضة غرست بأرض بنفسج عنابا
وقول النابغة — وهو أحسن الواصفين لهذا المعنى — (٣) :

من كف جارية كان بنائها من فضة قد مطرقت عُنَابَا (٤)

(١) العبد — ١ — ٢٠٤ .

(٢) نهاية الأرب — ٢ — ٨٩ . (٣) خزانة الأدب لعمادى — ٢١٧ .

(٤) ديوان النابغة — ١ — ٢٠٤ . (٤) طرقت المرأة بنائها : خضجته .

وكان منهاها إذ نطقت بها تلقى على يدها الشمال حسابا
وقوله :

لنا قينة ترنو بناظرين بما في قلوب الناس عالمين
تخال تطاريف الخضاب بكفها فصوص عقيق فوق قضب لجين
وقوله :

متعاقبين مكاتمين هواها قد قام بينهما العتاب فطابا
يتناقلان اللفظ من جففيهما فكأنما يتدارسان كتابا
وإذا هدت عين الرقيب تخالست كفاهما خلص السلام سلابا
بأنامل منه يلوح مدادها وأنامل منها كسين خضابا
فكأنما يحني لها من كفها عبا ونجنيه له عتابا
وقول كشاجم :

فأأنسها لا أنس منها إشارة بسبابة النني إلى خاتم الفم
وأعلنت بالشكوى إليها فأومات حذار من الواشين ألا تكلم
فلم أر شكلا واقعا فوق شكله كعنابة نوى بها فوق عندهم
وقول الشريف الرضي :

وألمستني وقد جدّ الوداع بنا كفا تشير بقضبان من العنم
وقول ابن المعتز :

أثمرت أغصان راحتها لجناة الحسن عتابا
وفي التطاريف السود يقول بغض الأندلسيين :

خضبت أناملها السواد وقلبا أبصرت أقلاما بغير سواد
ويقول ابن المعتز :

وكف كأن الشمس مدت بنانها إلى الليل تجلوه فقمعها الليل

ويقول بعضهم :

وحوراء اللوا حظ بين قلبي وبين جفونها حرب البسوس
 ترى ماء النعيم يجول فيها كمثل الخمر في صافي الكئوس
 كأن بناتها أقلام عاج مرصعة الرؤوس بآبنوس
 كما أنه من الإنصاف أيضاً أن نذكر : أنه ورد من الشعر القديم
 في وصف الأنامل ، ما خالف نهج امرئ القيس وذو الرمة ، وسامى شعر
 المحدثين في رفته وحسنه وطرافته ؛ كقول النابغة في المتجردة زوج النعمان
 ابن المنذر :

سقط النصف ولم تزد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد^(١)
 بخصيب رخص كأن بناته عجم على أغصانه لم يعقد
 وقد زاد التشبيه حسناً بقوله : لم يعقد : أى إنه لم ينضج ويدرك فينبس
 ويسود .

وقول الأسود بن يعفر^(٢) :

يسعى بها ذو توأمين مقرطى قنات أنامله من الفيرصاد^(٣)
 وقد ذكر العسكري : أنه أجود ما قيل من قديم الشعر في معناه^(٤) .
 ومن هذا النوع المستهجن قول بعضهم يصف روضاً .
 كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء
 فإن الشقائق شديدة الحرارة جداً ، وبينها وبين الثياب الراوية من الدماء
 مشاكلة محسوسة لا تخفى .

(١) النصف : الحمار والعمامة وكل ما غطى الرأس .

(٢) يعفر كيئف ، وفي طبقات الشعراء الجعفى بضم الياء والفاء .

(٣) التومة بالضم : التؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، والمقرطى : لباس القرطى بالضم
 وهو لباس قصير شبيه بالقباء وأصله بالفارسية : كرنه ، العامة تقول : شابة ، وقد أخطأ
 بعض الشعراء فظن المقرطى لباس القرط ، وإنما هو مقرط ، والفرصاد بالكسر صمغ أحمر .

(٤) ديوان المعاني ١ - ٢٤٤ .

فالتشبيه مصيب ولكن فيه بشاعة بذكر الدماء التي تعاف الأنفس
اللطيفة رؤيتها ،

ولو قال من العصفور مثلاً أو ما شاكاله ، لكان أوقع في النفس وأقرب
إلى الأنس^(١) .

ومثله قول الفصاح :

طرب الشقائق للحمام وقد شدا فوق الغصون فشقّ فضل ردائه
فكأنه الحبشي يضع جسمه فيأبه مخضلة مائه
وقول شوقي :

والجلتار دم على أوراقه قاني الحروف كخاتم السّفاح
فذكر الدم هنا وتصور منظره يقبض الصدر ويحزن القلب ، ولا تغنى
عن ذلك شيئاً جودة التشبيه وطرافته .

وقول أبي محجن النقي في وصف قينة :

ترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطنّ ذباب الروضة الغرد
فإن أحذق الثّبيان لا تستطيع أن تباري ذباب الروض في رفعه صوته
مرة وتخفضه أخرى ، على هذا النسق الرتيب الذي يجرى عليه طبيعة لا تكلفا .
ولكن أى قينة ولو كان صوتها مثل صوت الحمار نكراً ، ترضى أن
تشبه بالذباب كما يقول ابن رشيق :

على أنه سرق بيت عنقرة :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المترنّم
وقليه فأفسده^(٢) .

(١) المدة — ١ — ٢٠٥ — خزانة الأدب للعبّس — ٢٢٥ .

(٢) المدة — ١ — ٢٠٦ .

وقول العُمانى الراجز :

ياربّ جارية حوراء ناعمة كأنها عومة في جوف راقود^(١)

وهذا تشبيه أقل ما يوصف به أنه مقرّر يدعو سامعه إلى الغيابة

وقد حدث حماد عن أبيه إسحاق الموصلى^(٢) : أن الأصمعى دخل إليه

يوما وعنده أخ للعمانى المتقدم ، فأراد أن يعيث بالأصمعى فقال : من هذا ؟

أهو الباهلى الذى يقول ؟^(٣) :

فما صفحة مآدومة . بإهالة بأطيب من فيها ولا أقط رطب^(٤)

فقال الأصمعى — قبل أن يستقم كلامه — هو على كل حال من

قول أخيك العمانى :

يارب جارية .

فألقمه حجرا

وقول مسلم بن الوليد :

فقطت بأيديها ثمار نخورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

والتشبيه مصيب جداً ، ولكن عيبه جاء من أيدي الأسارى المثقلة

بالأغلال ، فإنه لا يصح فى الذوق أن تشبه بها أيدي الحسان التى تستر

رمان الصدور .

وقد أخذه مسلم من قول النابغة :

يُخَطِّطن بالعيدان فى كل منزل ويخبئن رمان التّدى النواهد

(١) العومة بالضم : دويبة كالصرد ، وهو طائر أبيض البطن ، والراقود : دن

كبير أو طويل الأسفل يعلو بالتار خاضله . (٢) الموضع — ٢٩٧ .

(٣) نسب فى ديوان الحماسة إلى بعض الأعراب .

(٤) الإهالة بالسكسر الشعم أو ما أذيب منه أو كل ما يؤندم به أو التزيت : والأقط .

كسكف ورجل وابل : شىء ينفذ من المحيط النفس (الرايب) :

وقول الحاجري في وصف العذار .

وما اخضر ذاك الخال نبثا وإنما لسكثرة ماشقت عليه المراتر^(١)
وقد قالوا فيه : ما زاد على أن جعل خد محبوبه مسلخاً^(٢) « مسلخانة »
قالتليل حسن ، ولكن عيبه جاء من ناحية اللفظ ، وهو شق المراتر
على الخد لما فيه من معنى التقدير !

وبعضهم لم يكتف بشق المراتر على خد الحبيب حتى سفك عليه الدماء
بقوله

وما احمر ذاك الخد واخضر فوقه عذارك إلا من دم ومراتر
ولو أنه توخى الإحسان وقصد الإصابة وتحرى الجودة ، لقال كما قال
أبو الحسن الحاج الأندلسي :

ومعذر رقت محاسن وجهه فقلوبنا وجدا عليه رفاق^(٣)
لم يكس عارضه السواد وإنما نفضت عليه صبغها الأحداق
فقد علل سواد العارض بعله طريقة تصور حسن المحبوب أبدع تصويره ،
وترفع بقدره إلى غاية الغابات !

وقول بعضهم في مدح بعض الملوك :

فإن كان أملاك الزمان أرقا فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان
وصحيح أن الثعبان أضخم من الأرقم ، وأهول منه منظراً ، ولكن
لا يسوغ في الذوق السليم تشبيه العظماء به .

ولو أنه عدل إلى التشبيه بالحية لخلص من الملام ، لأن اسم الحية
أشرف من اسم الثعبان .

(١) شق المراتر : كناية عن الشدة والمول .

(٢) خزانه الأدب العموي — ٢٢٥ .

(٣) المعذر بالشديد والكسر : من ثبت عذاره .

وقد جرت عاداتهم أن يصفوا بها الكبراء من الناس ، والعادات رسوم
محترمة معتبرة ، ولذلك سموا الرجل : حية ، وقالوا : هو حية الوادى :
للحامي حوزته وللنبيح الجانب ، وهم حيات الأرض : لدواهيها وفرسانها ،
وهو حية ذكر : للشهم ، ورأسه رأس حية : للذكي ، وأكلت حياتنا
حياتكم : إذا قتلت فرسانهم فرسانهم :

وقال ذو الإصبع المدوائى يذكر قومه :

عذير الأرض من عدوا ن كانوا حية الأرض
وقال بطرقة يصف نفسه :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه كحشاش كراس الحية المتوقد^(١)

وقال أبو نواس يمدح الخصيب والى مصر :

وأطرق حيات البلاد الحية خصيبة التصميم حين تسور
وقد تساءل الخفاجي^(٢) : إذا كان التين هو الحية ، وكانوا كثيراً
ما يشبهون الممدوح بالحية ، ويقولون : هو صل صفاة ، وحية واد ، وأرقم
وأسود وغير ذلك كما قال أبو الطيب :

يمد يديه فى المفاضة ضيفهم وعيناه من تحت التريكة أرقم^(٣)

وقول السرى الرقاء فى مدح سيف الدولة :

تعتد نجده عدى عدة وتخاله صيد الأراقم أرقاً
وقال آخر :

إنى على رأس العدو وتحت لغام قسطة وحية واد
وقال الرضى :

نبت منى يا أبا الغيثداق أصم لا يسمع صوت الراقى

(١) الضرب : الرجل القليل اللحم ، والمرب تمدح بذلك لأن الدهن عنوان السكس
والبلاد ، والحشاش يتلثب الماء : الملقى فى الأمور .

(٢) سر الفصاحة - ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) المفاضة بضم الميم : الفرع الواسعة ، والتريكة وهى البيضة من الحديد .

ذا ريقه شهراً بالدرّياق كأنما أم من الإطراق^(١)

وقال حرب بن عتّاب :

أترجو الحياة يا بن بشر بن مسهر وقد عليقت رجلاك في ناب أسودا

من الصم تكفي مرة من لعبه وما عاد إلا كان في العود أحدا

وأمثال هذا كثير ، فكيف يكون ذكر التين عيباً ، ولا يكون ذكر

الأرقم والصل والأسود عيباً ومعنى الجميع واحد

والجواب أننا لم نذكر التين لأجل معناه فيقال لنا : إن معنى

التين والحية واحد ، وإنما عيبناه من أجل مدحه ، لأن هذه اللفظة لم

تستعمل في المدح وتلك الألفاظ قد استعملت فيه ، وليس يتمتع أن

يكون للشيء الواحد اسمان يستعمل أحدهما في موضع ، ويستعمل الآخر

في موضع آخر .

وهذا شيء . إنما أصله العرف والعادة دون أصل وضع الأسماء في اللغة ،

الآن ترى أن الإنسان إذا مدح ، ذكر الرأس والسكران والهامية ، وإذا هجا

ذكر القفا والأعراع والقذال وإن كانت معاني الجميع متقاربة ، وليس

يحسن أن يخاطب الملوك فيقال لبعضهم . وحق يافوخك أو قمحندوتك

أو أعادعك أو قذالك أو قفاك ، قياساً على أن يقال له : وحق رأسك ،

لأن الاستعمال يختلف في الألفاظ وإن كان المعنى فيها غير مختلف على

ما قدمناه .

على أن بعضهم كان يستقيح المدح بالحبيات ، فقد ذكرنا^(٢) . أن

محمد بن علي العباسي قال لكثير عزة : تزعم أنك من شيعتنا وتمدح

آل مروان

(١) أم بالبناء المجهول : شج رأسه .

(٢) الوضوح - ١٤٤ .

فقال كثير : إنما أنا أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب وأخذ
أموالهم .

يشير بذلك إلى قوله في عبد الملك :

يقلب عيني حبة بمحارة إذا أمكته شدة لا يُقبلها
ويكون النكير أشد والاستهجان أكثر حينما يكون التشبيه متعلفاً
بالمطعم والمشروب ، وما يدخل في الاستمتاع عامة ، لأن مجازاة الذوق
فيه واضحة .

وذلك كقول يزيد بن معاوية في الخمر :

إذا شتجها الساق حسبت كحباها عيون الدني من تحت أجنحة النمل^(١)
وقول الأخطل :

عقار كمين الديك صرفاً كأنها لعاب جراد في الفلاة يطير
وقول أبي الهندي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية - وهو
أول من وصف الخمر من المسلمين^(٢) :

فتبت ندماي وقلت له اصطبج باين الكرام من الشراب الأصهب
صفراء تبرق في الزجاج كأنها حديق الجراد أو لسان الجنْدُب
ومثله قول آخر :

صفراء من ماء الكروم كأنها ماء المفاصل أو لعاب الجنْدُب^(٣)
وقول الحسين الخليلع :

فقتضت خواتمها في نعت واصفها عن مثل رقرقة في جفن مرهأ^(٤)

(١) الشج : النزج والدي : صغار الجراد .

(٢) فوات الوفيات - ٢ - ١٥١ .

(٣) المفاصل : ما بين الجليلين .

(٤) المرهأ : التي ايضت عايق عينيها من ترك السكحل .

كان تأليف ما حاك المزاج لها سُلخ مُحلَّته عن ظهر رُقشاء^(١)
وقد علق المغفور له الدكتور زكي مبارك على هذا الوصف بقوله :
ونحن لا نستطيع اليوم في وصف الخمر : بأنها بدت مثل رققة في جفن
مرهاة ، ولا يسرنا أن يكون الحب ألفت فوقها صورة تشبه ظهر الحية
الرقشاء^(٢) .

وأنا أقول : إن هذه الصورة مستقبحة في كل زمان ومكان ، فإن
الذوق العام لا يختلف في مثل هذه الأوصاف التي تنفر منها النفوس ، وتمجها
الطباع بإصل الجبلة .
وقول أبي نواس :

وإذا ما الماء واقعها أظهر شكلا من الغزل
لؤلؤات ينحدرون بها كانهدار الدّر من جبل^(٣)
وقول كشاجم :

عذبت الرشف منها شفة مصتها أطيب من نيل الأمل
وعليها حمرة في لعس تستعير اللون من صبغ الخجل
هي فيما خلت آثار دم من فؤادي علّ فيه ونهّل
وتشبيه حمرة الشفة بآثار الدم ليس وراه مزيد في القبح ، وبخاصة إذا
قرن بذكر الرشف والمص ، ولا يشفع له أنه من دم القلب .
وقول ابن هون الكاتب :

تلاعبها كف المزاج محبة لها وليجري ذات بينهما الألس

(١) السُلخ : الجلد السلوخ . والرقشاء : الحية .

(٢) اللؤلؤة بين العمراء — ٢٨٢ .

(٣) الدّر : صغار الخجل .

فكزبد من تيه عليه كأنها عريضة خدر قد تحيطها المس
فبشاعة هذا التشبيه - كما يقول الحموي - تمنحها الأذواق الصحيحة
وتنفر منها الطباع السليمة ؛ فإن أهل الذوق لا يطيب لهم أن يشربوا شيئاً
يشبه زبد المصروع !

وقول أبي القاسم بن بابتك :

وأغيد معسول الشائل زارني على فرق والنجم حيران طالع
فنازعته الصباء والليل دامس رقيق حواشي الورد والنسر واقع^(١)
عفار عليها من دم الصب نقطة ومن عبرات المستهام فواقع
وقول بعض المولدين :

هات مدا ما كان فيها نصب أحداقها الديوك
ومن الذي يلذ له أن يتحسى عصير أحداق الديوك ؛ وأي خيال سمح
لهذا الشاعر بهذا التشبيه الباعث على الاشتزاز .

وإن غاب عنه قول الموصلي في هذا المقام :

وكأس مدام يحلف الديك أنها ليدى المزعج من عينيه أصنى وأور
شبهها بعين الديك لأنها يضرب بها المثل في الصفاء ، ويشبه بها
الشراب الصافي .

ويقول الموصلي : سمعتني أعرابية وأنا أنشد البيت المتقدم ، فقالت :
يا أبا محمد ، بلغني أن الديك من صالحى طيوركم وما كان ليحلف كاذباً^(٢) !
وجمال التشبيه هنا أن الموصلي جعل الخمر كعين الديك في الصفاء

(١) النسر : كوكبان يقال لأحدهما : الراقع وللآخر : الطائر .

(٢) نحر القلوب - ٣٧٤ .

والنقاء والبريق ، ولم يجعلها نفس عين الدبك التي هي مزيج من لحم ودم كما
جعلها الأول ، والفرق شاسع بين المذهبين .

ولعل أقبح من كل ما تقدم قول السرى الرفاء :

يسيل فم الزئبق الروى كأنه جراحة زنجي يسيل نجيعها
وقوله :

اشرب فقد شرد ضو . الصبح عنا الظلما

وصوب الأبريق في الكأس مدا مدا عذما

كأنها إذ يجتأ مقهقها يكي دما

ولا يقل عنه شناعة قول البارودي :

الاعطينها بنت كرم تزوجت على نغمات العود بأبن سماء

إذا انتقدت في الكأس خلّت وميضها

على وثرات الكف نضج دماء

فإنه بقدر ما أحسن في بيته الأول المرقص ، أساء في بيته الثاني بذكر

نضج الدماء ، وقد جاءه ذلك من التقليد لمن سبقوه بلا تبصر .

وقد يقال ولكنهم يستحسنون قول الأعشى :

وسيتة مما تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها

فما الفرق بين دم الذبيح ، ونجيس الزنجي السائل من جراحته ؟

والجواب : أن الفرق واضح بين دم الذبيح المذكى ، الطيب اللحم ،

الحلال الأكل ، وبين دم ينشعب من جرح آدمي حي ، على أثر طعنة جائفة

أو حادثة تكتنفها الأوجاع والآلام !

وصفوة القول : أن هذه التشبيهات المتقدمة في وصف الجرح بتملأ

النفوس انقباضاً منها ورغبة عنها !

ومن الغريب أن أكثرها وقع من شعراء عرفوا بالإبداع في وصفها ،
وسار لهم في ذلك ذكر تناقله الناس ، ولولا أنهم شهروا بحبها والاستهتار
بها لقلنا : إنهم يدعون إلى التفسير منها ، إذ لا يتأتى لناسك متعب أن يقول
في تقييدها أكثر مما قالوا ١

والعادة المتبعة فيها نحن بسبيله ، أن يتعاشى الشاعر الألفاظ المثيرة
لانتفاض الصدر واشتزاز النفس ، ويتخير ما تطرب له الأذن ، ويشرح له
الصدر ، ويهش له القلب ، لأنه إنما يتكلم عن شيء يخالط الجوف ويمزج
بالبدن كقول السري الرفاء :

وصفراء من ماء الكروم شربتها على وجه صفراء الغلائل غضة
تبدت وفضل الكأس يلمع ساطعاً كأن رجلة زيتت بإكليل فضة
وقول العسكري :

وكأس تمتطي أطراف كف كأن بناتها من أرجوان
أنازعها على العيلات شرباً لمن مضاحك من أقحوان
بلوح على مفارقها حجاب كأنصاف الفرائد والجمان

ومن قبيح ما جاء في المَطْعوم قول الحكمم الضعزعي : يصف
غليان القدر بما فيها من قطع اللحم - :

كأن جذول الناب فيها إذا غلت دعامير تخشى صائداً فتموم^(١)
يصف قطع اللحم إذا دومت بها القدر في حال غليانها بصغار الضفادع
التي تسبح على أديم الماء خوف اصطيادها ،
ولا مربة أن هذا التشبيه يُعنى النفس ، ويوحش الصدر ، لأن منظر

(١) الحفول : أصول الشيء ، جمع جذل بالكسر ، وانساب : الناقة المسنة ، والدعامير :
ديدان سوداء تكون في القدران إذا فشت .

الدعائم مستنكر قبيح ؛ ومن الغريب أن قدامة يصفه بالجودة^(١) .
وقول العسكري في الفالوذ :

حرام في بيضاء فضية وظرف كافور وحشو الخلق^(٢)
يَطْوَف الدهن بأرجائه إطفاء الدمع يحفن المشوق
ونشبه الدهن في الفالوذ بالدمع المطيف يحفن المشوق ، بشع مستكره
غير مستساغ ، وهو خليق أن تصدف به النفس عن تناوله .
هذا إلى أن المشابهة غير محكمة بين ركني التشبيه ، فالدمع لا يطوف
يحفن المشوق ، بل يترقق فيه أو ينتثر منه .

فإن يقع هذا من قول بعض المعصرين بصف ألواناً من الفطائر^(٣) :

وإن أنسى فلن أنسى فطائر سمئها بحرى
كان اللوز منضوداً بها سمط من الشذر^(٤)
كان أديمها الصافي توشح صفرة الصففر^(٥)
وقوله^(٦) :

وعجل بها كأكف الملاح تأتقن في صبغها بالخصاب
ومحشوة بالزبيب الأحمر ومقبة بالشهاد المذاب
إذا جال فيها بنان الأديب تنسم منها أريج الملاب^(٧)

(١) فقد الشعر — ٧٠

(٢) الخلق بالفتح : الطيب .

(٣) ألحان الأصيل — ٧٢ .

(٤) الشذر : قطع الذهب .

(٥) الصففر : النحاس الأصفر .

(٦) ألحان الأصيل — ١٠٨ .

(٧) الملاب كحلب : المطر أو الزعفران

وإن أوغلت يده في الصميم أنه بكل عَجِيب عَجَاب
ذخائر في جوفها أودعت كما سكن الدر جوف العُباب
ومن ذلك النوع المستفبح قول المأموني في أقراص السحور :

عندئٍ للأكل إذا ما قت للفسحر
ملسوة بسمها وسمسم لم يُقشر
مثل البدور الطالعا ت في صدر الأشر
أو أوجه الترك إذا أثر فيها الجدرى

فقد شوه هذا الشعر الخفيف الظل ، اللطيف العذب ، بالبيت الأخير ،
ولا أدري كيف يستطيب أكل أقراص كالوجوه المجدورة ، وإن كانت
بيض الألوان كوجوه الترك !

وقريب منه قول ابن خلاد في خبر الأرز بالملح - وإن كان أقل
هجة - :

رغيف بملح طيب النشر خلطة خوارجه تغنيك عن أرج العطر
عليه من الشونيز آثار كاتب وجلاب وراق يُنْقَط بالهبر^(١)
ومن سمسم قد زعفروه كأنه قُرَاضة تبر في لجينة غُرّ
والشاهد في البيت الثاني .

وقول ميار في رمانة حمراء :
ما أم أولاد ~~كثيرة~~ العدد تروى رَضاعا وهي بكر لم تلد
تبسم عن عذب الرضاب بارد لولا دم بصيغه قلت برود
وقول ابن سعد الخير في وصفها :

(١) الشونيز : ضم الشين وفتحها : الحبة السوداء .

وساكنة في ظلال العصون بروض تروك أفسانه
تضاحك أترابها فيه إذ غدا الجو تدمع أجفانه
كما فتوح الليث فاه وقد تضرع بالدم أسنانه
وقول ابن الرومي في التوت :

ومختصات من نجيع دماها إذا جنيته في بكرة الغدوات
تسكاد بأن تُطنفا إذا مالستها فأرحمها من سائر الثرات^(١)
وقول ابن شرف فيه - وقد أهداه - :

انظر إلى توت الجنان الذي وافي به الناطور في جام^(٢)
يمكي جراحا دما سائل لدى جـسـوم من بني حام
فانظر كيف جاء هذان الشاعران إلى هذه الفاكهة المشتهة ، وألقيا
عليها ظلا من تصويرهما يجعل العيون تغذى بها ، والنفوس تعزف عنها .
ولكن تأمل قول محمد بن روح - يصف الرمان السفري في أبيات
كتب بها إلى بعض من أهداها إليه - :

ولابسة صدقا أحمرأ أنتك وقد ملكت جوهرأ
كانك فأنح حق لطيف تضمّن مرجانه الأحمرأ
حبوباً كمثل رئات الحبيب رضاها إذا شئت أو منظرأ
وللسفر تعزى وما سافرت فتشكو النوى أو تُقاسى السرى
بلى فارقت أيكها ناعماً رطباً وأغصانها تُضربأ
وجاءتك معاضة إذ أنتك م بأكرم من عودها عنصراً
بعود ترى فيه ماء الندى وبورق من قبل أن يثمرأ

(١) تطفأ : تشدح ، وأصله تطفأ .

(٢) الناطور : حافظ السكرم والنخل والزرع ، وهو من ألقاظ التؤاد وليس بهرق ثالث .

هدية من لو غدت نفسه هديته ظنه قصراً

وقول بعض الأندلسيين في التوت — وقد أهداء — :

تفاءلت بالتوت الجنى لزورة وذلك قال ما علمت صدوق^(١)

فأهديته غصناً حكى حديق المها له منظر بالحسن منه يروق

فذا سبج لما حكى بأسوداده وذا لاحمرار اللون منه عقيق^(٢)

ومن المضحكات : أن محمد بن الجهم سأل علياً الأسوارى : كم أخذ من

الدواء الذى جئت به ؟

قال : مقدار بعرة !

فجاء بلفظ قدر ولم يبين المراد ؛ لأن البعر يختلف في الكبر والصغر ،

ولا يعرف أبعره ظلي أراد أم بعرة شاة أم بعرة جمل^(٣) .

فهذه الألفاظ التى تقدمت في كل هذه التشبيهات الماضية ليست قبيحة

في ذاتها ، ولكنها قبيحة لأنها استعملت في مواضع تعد من مجال الحسن

ومواضع الجمال ، فشاعت بها التشبيهات مع أنها من حيث إصابة الموقع

ومراعاة الجهة بالغة الشاؤ البعيد والمدى المستطيل .

ومن ثم زارها مستحسنة سائفة ، واقمة موقعها غير نابية ولا مستكرهة

إذا استدعاهما المقام ، وذلك في المواضع الآتية .

١ — إذا كان الفرع الهجاء ، فيفتن الشاعر ما شاء له الخيال في تشويه

الصورة تشويهاً محكوماً بقواعد الفن ، كقول جرير :

إذا ضحكك شبت أباها الملا خنافس سوداً في صرارة قلب^(٤)

(١) ما : في ما علمت زائدة .

(٢) السبج : غرز أسود .

(٣) الصناعتين — ٢٤٨ .

(٤) الصرارة : البقية .

وإنما خص أنبياءها العليا دون السفلى ؛ لأنها تبدو في التسم والتكلم
وعند التأويب .

وقول حماد عجرد في بشار :

ما صور الله شبيهاً له	من كل من من تخلفه صوراً
أشبهه بالخزير وجهاً ولا	بالكلب أعراقاً ولا مكسراً ^(١)
ولا رأيت أحداً مثله	أنجس أو أظفئ أو أقذراً ^(٢)
لو طليت جلده عنبراً	لنقنت جلده العنبراً
أو طليت مسكاً ذكياً إذا	تحوّل المسك عليه

وقوله أيضاً :

ما خلق الله شبيهاً له	من رجنه طوراً ومن إنسه
والله ما الخزير في نفسه	من ربه بالعشر أو خمسة
بل ريحه أطيب من ريحه	ومته ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه	ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده	وجنسه أشرف من جنسه

ويقول الجاحظ في ذلك : وأنا - حفظك الله - استظرف وصفه
الخزير بهذا المكان ، وفي هذا الموضع حيث يقول :

وعوده أكرم من عوده . . .

أين عود الخزير من الكرم^(٣) .

وقول ابن الرومي يهجو بخيلاً :

(١) الكسر كثرل : الخبز والأصل .

(٢) الظفس محركا : قدر الإنسان لعدم نهده نفسه .

(٣) الحيوان - ١ - ١١٣ - ١١٤ .

أبدت في أوليات أوامرك ما قدرت في أخرياتك الآخر
كالقَطِرَان الذي يرى أبداً في رأسه ما اقتنى من العُكْر
وهذا من قول الناس : أول الدن دردى^(١) .

وقول البازري في رجل قبيح الفم :

وقد علت أسنانه صفرة تكدر العيش المرىء المريع^(٢)
ولحها من ورم فاسد كالرئة المحبوس فيها نجيع
وقد أعجب الحموى بهذا الهجاء فقال فيه : لو جمع المتأمل بين المشبه
المهجور وبين المشبه به ، وشاهد التخيل الغريب عينا ، صدق صحة
الدعوى^(٣) .

وقول ابن طباطبا في مجدور :

ذو جذرى وجهه	يحكيه جلد السمكة
أو حجر الحمام كم	من وسخ قد دلكه
أو وكر زنبور إذا	فرخ فيه تركه
أو سلحة جامدة	قد نقرتها الديكة

وقول بعضهم :

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذو وجود فزجوك للقرى
ولا أنت ممن يُرتجى لكرهية عملنا مثالا مثل شخصك من ...
وقول عبدان الخوذى في قينة :

لنا قينة تحمى من الشراب شرابنا فقد آمنوا سكرأ وخوف نخار

(١) ديوان المغانى - ١ - ٢٠٦ .

(٢) المريع : الحبيب .

(٣) غزاة الأدب - ٢٢٦ .

تتكسر عن أنيابها في غنائها فتحكى حاراً شم بول حار
وقد ورد ذلك في غير الأناسي كقول ابن شرف الفيرواني في التين :

لا مرجحاً بالتين لما أتى بسحب كالليل عليه وشاح
مزق الجلباب يحكى لنا هامة زنجي عليها جراح
٢ — أن يكون القصد حكاية حال تحسن معها المبالغة كقول
الأيبوردى :

نزلنا بنعمان الأراك والندى سقيط به ابتلت علينا المطارف^(١)
وقفت به والدمع أكثره دم كافٍ من جفني بنعمان راعف
فهذه الحال لا ينكر جريان الدمع معها دماً ، فإنها حال لائفة بحرياته
على هذه الصفة ؛ لأن هذا الشاعر لما نزل بنعمان الذي هو منزل أحبابه
ووجده مقفراً منهم ، لاق بحاله أن يجرى الدم لشدة الأسف دماً .
ومثله قول ابن قاضي ميلة :

ولما التقينا محرمين وسيرنا بلبثك ربنا والوكائب تعسف
نظرت إليها والمطى كأنما غواربها منها تعاطس رُعِف
فهذا التشبيه غاية في هذا الباب ، وجريان الماء من غوارب المطى
لائق بحكاية حالها ، فقد تضمنت لطف الكناية عن التعسف في شدة
السرى^(٢) .

وبالحق هذا كل ما شاكلة كقول ذي الوزارتين أبي الحسن بن اليسع ،
وقد أنشده المعتمد بن عباد^(٣) :

ولما التقينا للوداع غدرة وقد خفقت في ساحة القصر رايات

(١) نساء الأراك بالفتح : واد بين مكة والمائف أو جبل .

(٢) خزاة الأديب للصوى — ٢٢٦ .

(٣) فلاذ العيان — ٩ .

بكينا دماً حتى كأن عيوننا — بحرى الدموع الحمر منها جراحات
وهو ينظر إلى قول القائل :

بكيت دماً حتى لقد قال عائدى — أهذا الفنى من جفن عينية برعف
وأحسب هذا البيت مأخوذاً من قول أبي تمام :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا — فلا تكفثن من شأنك أو يكيفا
لا عذر للصب أن يقضى السلوة ولا — للدمع بعد مضى الحى أن يقفا
حتى يظل بناء سافح ودم — فى الربيع يحسب من عينيه قد رُعفا
وأبو تمام أخذه من قول أبي وجزة^(١) :

عيون ترمى بالرُعاف كأنها — من الشوق صردان تدب وتلع
وقد قبل فى تفسيره : شبه الدمع — وقد عصفرة الدم — بالرُعاف ،
وشبه العيون — وهى تفيض بالدمع تارة وتخبسه أخرى — بالصردان
تتفرض تارة ، وتظهر تعرضاً من الأرض تارة .
وبيت أبي تمام أجود لفظاً ونظماً^(٢) .

٣ — أن يكون الغرض وصف شىء لا يستكمل دونه بغير هذه
الالفاظ : كقول ابن الحاجب فى احمرار الشمس عند المغيب :

وكانها عند الغروب ب جفون عين الأرمد
وقول ابن طباطبا فى الشمس المنقبة بالنجم :

وأقذبت عين شمسنا لحكت — من خلل القيم طرف عشاء

وقول الألبيرى يصف المربة^(٣) :

(١) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٨ .

(٢) اللوازم — ٤١٢ — ٤٤٣ .

(٣) المربة كغنية من مدق الأندلس ، وموضع آخر بها .

قالو المربة فيها نظافة قلت إيه
كانها طست نهر ويصق الدم فيه

وقول الوراق :

أبدى لنا لما بدا فرعة يحار في تشبيها القلب
فقلت هل تشبه يقطنة فقال لو كان لها لب

وقول جرير يهجو الأخطل بثورم أنفه من السكر :

وشربت بعد أبي ظهير وابنه سكر الدنان كان أنفك دمل

وقد جرت العادة أن أنوف السكرى المدمنين تتورم ؛ قال الجاحظ :

رأيت جماعة ممن يعاقرون الشراب قد عظمت آناقهم وصارت لها خراطيم
منهم روح الصائغ وعبد الواحد صاحب اللؤلؤى ، وجماعة من ندمان حماد
ابن الصباح ، وعبد الله أحنهر من عسكر ، وناساً كثيرين .

وقول عبد الله بن عتبة في وصف السكران نفسه :

وشربك من ماء الكروم كأنه إذا نجّ صرفاً في الإناء خضاب

صرجع مدام والنداء يلونه وفي الشدق في سائل ولعاب

وقد عد العسكرى هذا الشعر والذي قبله أبدع ما قيل في باب^(١) .

وقول أبي البداء الرياحي - وهو مما أنشده الجاحظ - .

وشعر كبر الكيش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل

وهذه الكلمة على قبحها لا يوجد خير منها في هذا المكان ، فإنها

واضحة الدلالة إلى حد تصوير المعنى المراد ؛ وهو عدم التناسب والتلائم

بين أبيات الشعر .

وذلك أن بحر الكيش لا يقع إلا متفرقا .

وقول جورج ديهاميل : أؤكد أن القصة اليومية هي إحدى قروح
أدبنا الخفية ، قرحة يسيل منها كثير من الدم الزكي الجميل (١)
فهذه الألفاظ تراها حسنة في هذه المواضع ، بقدر ما كانت قبيحة
في المواضع الأخرى ، لتباين المناسبات واختلاف المقامات ، ذلك لأن
قبحها وحسنها لم يأت من ذاتها وإنما هو وصف طارئ عليها يتغير
بتغير السياق .



الفصل الثالث

اقتران التشبيه بالحلى البلاغية

كثيراً ما يقع التشبيه متصلاً بحلية بلاغية فيزداد روعة رجحاناً . وتعلو قيمته بمقدار ما وقّرت له الحلية الإضافية من وثنى وتخيير ، وطرافة وجدّة وخصب وقوة .

وهذا أمر طبيعي ؛ فإن انضمام شيء حسن إلى حسن مثله ؛ يضاعف روعتهما وبهاءهما ، ويولد من اتصافهما مزايًا جديدة لم تكن لأحدهما منفرداً قبل هذا الازدواج .

والمهم في ذلك أن تكون الحلية قد جاءت عفواً دون اجتناب ولا استكراه وإلا لحقه الثقل والغثائية .

وهذه الحلى كثيرة ، منها اجتماعه :

١ - مع التذييل كقول الخطيبه :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوءى بأنف الثاقفة الدنيا
وقع التشبيه في النصف الأول ، وتذيّل بالنصف الثانى .

وقول أبى بكر الداني :

وسعودهم ثلثى الأعادى عنهم إن السعود كتاب لا نهزم

استوفى المعنى في الشطر الأول ، وتذيّل بالتشبيه في الشطر الآخر .

٢ - مع الإيغال كقول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول غباثنا وأرحلنا الجزع الذى لم ينقّب

فقد أتى على التشبيه كاملاً قبل القافية ؛ وذلك أن عيون الوحش شبيهة
بالجزع بفزع الجيم وكسرهما ؛ وهو عررز يمانى صينى فيه سواد وبياض ؛ أشبه
به الأعين .

ثم لما أتى بالقافية أوغل^(١) بها في الوصف ، وجوَّده وأكده بقوله :
لم ينقب ، وهى بالجزع الذى لم ينقب أدخل في التشبيه ، لأن عيون
الوحش غير منقبة .

وقول زهير من معلقته :

كان فتات المهن في كل منزل نزلن به حبب الفنا لم يحطم
شبه المهن - وهو المصروف الأحمر - بحب الفنا - وهو حب تقيته
الأرض ، أحمر اللون فيه نفض سود ، ولكنه إذا كسر ابيض لونه .

فاستظهر في القافية لما جاء بها بأن قال ؛ لم يحطم ، فأكد التشبيه بإفعال
في المعنى :

٢ - مع أسلوب الحكيم كقول الأريجاني^(٢) :

غالطتني إذ كست جسمي ضئي كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني ، صدقت لكز سقاما

وقول ابن حجلة المغربي :

شكوت إلى الحبيبة سوء حظي وما ألقاه من ألم السعاد
فها أنت إن حظك مثل عيني فقلت نعم ولكن في السواد

٣ - مع الاستطراد كقول مسلم بن الوليد :

(١) الإيغال أن يستوفى معنى السلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتي المقطع فيزيد معنى
آخر ، يزيد وضوحاً وشرحاً وتوكيداً حسناً .

(٢) أسلوب الحكيم : عمل لفظ في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذلك متعلقه .

أجذك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تُنَشَّرُ (١)
لهوت بها حتى تجلّت بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر (٢)
وقول إسحق الموصلي في وصف الخمر (٣) :

وصافية تغشى العيون رقيقة سلية عام في الدنان وعام
أدناها الكأس الروية موهنا من الليل حتى أنجاب كل ظلام
فأذرت قرن الشمس حتى حسبتنا من العسّ نحكى أحمد بن هشام
وقد ذكروا : أن ابن هشام قال له : لم هجرتني مع الصداقة بيتنا ؟
فقال : لأنك قعدت على طريق القافية !

وقول أبي بكر الخوارزمي :
ولقد بكيت عليك حتى قد بدا دمعي يحاكي لفظك المنظوما
ولقد حزنت عليك حتى قد حكي قلبي فؤاد حسودك المحموما
ومن بديعه قول ابن رشيق لبعض الرؤساء :

إني لقيت مشقة فأبعث إلى بشفة (٤)
كنزل وجهك حسنا ومثل ديني رقة (٥)
وكان الرئيس ظريفا فقال له : أما مثل دينك رقة فلا يوجد بوزن
أمثال رمل الرقة !

وقول أبي بكر بن النطاح في ماله بن طوق التغلبي :
ففي شقيب أمواله بعفانه كما شقيت بكر بأرماع تغليب

(١) القرون : خصل الشعر .

(٢) يحيى بن خالد البرمكي وابنه جعفر .

(٣) هذه رواية المبرد ، وليس بها بعضهم لصابي .

(٤) الشفة بالضم : واحدة الشفق من الثياب .

(٥) الرقة بالفتح : بلد على الفرات وأخرى غربي بغداد .

والاستطراد هنا ملبح جداً ، لأن مالك من أبي تغلب أعداء بكر ،
فصار الاستطراد زيادة في مدحه .

وقول أبي الطيب في هجاء كافور :

يموت به غيظاً على الدهر أهله كما مات غيظاً فانك وشيب^(١)
وهذا البيت ليس المقصد فيه مدحاً ولا هجاء للرجلين ، ولكن التشبيه
والحكاية لا غير^(٢) .

ومن الاستطراد الجامع قول أبي محمد بن مكرم :

وليل كوجه البرقعى ظلمة وبرد أغانيه وطول قروته
قطعت ، فتوى عن جفوني مشرد كمفل سليمان وخفة دينه
بذى أزلت في أعوجاج كأنه أبو جابر في خطبه وجنونه^(٣)
إلى أن بدا وجه الصباح كأنه منا وجه قرواش ونور جبينه
فقد استطراد من تشبيه ، وصَف به حاله إلى أربع تشبيهات هجا فيها
ثلاثة ومدح واحداً .

ومن ذلك أن ابن جلنك الحلبي كتب رقعة إلى قاضي القضاة ابن
الملكاني يسأله فيها شيئاً فوقَّع له برطلين حبر ، فتوجه ابن جلنك يوماً
إلى بستان يرتاض فيه ، فقبل له : إنه لقاضي القضاة ، فكشِب على حائط
البستان :

لله بستان حللنا دوحه في جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنايبراً رأت قاضي القضاة فتفتشت أذنانها

(١) فانك : أمير مصرى كان منافساً لكافور ، وشيب : أمير عربى ثار على كافور
فقتله بدمشق .

(٢) النخبة - ٢ - ٣٩ .

(٣) الأولى : الجنون .

وفيه يقول الحموي : فاستطرد من وصف البستان ، وتشبيه البان تشبيها
مخترا ، إلى هجو مرقص لقاضي القضاة عند سماعه ، وما شك أحد من أهل
الأدب : أن التشبيه غريب في اختراعه .

وقيل : إن الشبيخ بدر الدين بن مالك ألقى على هذين البيتين كرامة
في البديع^(١) .

والعادة في الخروج من الاستطراد بطريق التشبيه ، أن تجعل أداة
التشبيه مع المستطرد به في آخر الكلام^(٢) .

٥ — مع المذهب الكلامي^(٣) كقول النابغة — يعتذر للنعمان بن المنذر
عن مدحه آل جفنة الفسائين — :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكمت في أموالم وأقرب
كفملك في قوم أراك اصطفتهم فلم ترم في فعل ذلك أذنبوا
يريد : لا تلمني ولا تعتب عليّ أن مدحت آل غسان وقد أحسنوا إليّ ،
كما لا يصح أن يلام قوم مدحوك على إحسانك إليهم ، فكما أن مدح
أولئك لك ، لا يعد ذنبا يؤخذون به ، فكذلك مدحي لهم لا يعد ذنبا
أحاسب عليه

وهذه الحجة على صورة الثبيل الذي يسميه الفقهاء قياسا
ويمكن رده إلى صورة قياس استثنائي ، بأن يقال : لو كان مدحي لآل
جفنة ذنبا ، لكان مدح أولئك القوم لك أيضا ذنبا ، لكن اللازم باطل
فكذلك الملزوم^(٤) .

(١) خزائن الأدب .

(٢) الصدر والرقم نفسه .

(٣) المذهب الكلامي : إيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام . وهي أن تكون
المدحيات بمد تسليمها مستلزما للمطلوب .

(٤) معاهد التصحيح — ٢ — ٨ .

وقول جابر الأندلسي :

لو قضى الله أن قلبي يبق ما حكي لحظه الغزال التفاتنا
لكن اللحظ قد حكاه قلبي قد قضى نحيبه زمانا وماتا

وقول ابن مالك بن المرحل الأندلسي :

لو يكون الحب وصلا كاه لم تكن غاياته إلا الملل
أو يكون الحب مجرا كاه لم تكن غاياته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا يستطاب الماء إلا بالغلل

البيتان الأولان : قياسان شرطيان .

والبيت الثالث - وفيه الشاهد - قياس فقهي ، فإنه قاس الوصل
على الماء ؛ فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لا يستطاب
إلا بعد حرارة الهجر .

وما احسن قول بعضهم في هذا المعنى :

لولا اضطراد العيد لم تلك لذة فتطاردى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أشعر الشباب وماله من لذة حتى يصيب غليلا

٦ - مع التناسب كقول البحترى فى وصف النوق :

يتفرقن كالسراب وقد خُصن م غمارا من السراب الجارى
كالقسي المعطفات بل الاعمهم م مبرية بل الأوتار
فإنه لما شبه الإبل الناحلة بالقسي وأراد أن يكرر التشبيه ، كان يمكن
أن يشبهها بالعراجين ، أو بنون الخط ، لأن المعنى واحد فى الانحناء
والدقة ، ولكنه قصد المناسبة بين الاعمهم والأوتار لما تقدم من ذكر
القسي .

وقول السلاحي :

والنقع ثوب بالسيوف مطرّز والأرض فرش بالجياذ مخمل
وسطور خيلك إنما ألفانها سمر تنقط بالدماء وتشكل
ناسب بين الثوب والتطريز ، والفرش والخل ، والسطور والآلات ،
والنقط والشكل .

وقول بعضهم :

ومن عجب أن بحرسوك بخادم وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر وخدك ياقوت وعالك عنبر
ناسب بين العذار والثغر ، والحد والخال ، والريحان والجوهر ،
والياقوت والعنبر لللامة في أسماء الخدم .

وقول السري الرفاء :

وغيم مرصّفات البرق فيه عوار والرياض به كوامس
وقد سلّات جيوش الفطر فيه على شهر الصبام سيوف ياس
ولاح لنا الهلال كشمطر طروق على لبات زرقاء اللباس

وقول ابن الفارض :

وقد سخّنت عيني عليها كأنها بها لم تكن يوماً من الدهر قرعت
فإنسانها ميت ودمعى غسله وأكفانه ما أبيض حزناً لفرقتي

٧ - مع التقسيم كقول عمر بن أبي ربيعة :

وهي كشيء لم يكن أو كنارح به الدار أو من غيبته المقابر
فلم يبق مما يعبر به عن إنسان مفقود قسماً إلا أتى به في هذا البيت .
وقول العباس بن الأحنف :

وصالكم تحرم وحكم قلتي وعطفكم صد وسلمكم حرب
وكان محمد بن موسى المنجم^(١) يحب التقسيم في الشعر ، وكان معجبا
بقول ابن الأحنف المتقدم ، وقد حكى عنه أنه قال : أحسن والله فيما قسم
حين جعل لكل شيء ضده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيات
أوقليدس^(٢) .

وقول ابن قتلافس يتغزل :

حملت من الأزهار أشباه الربا فساوت الأمانال والأشكال
فالأس صمدغ والأفاحى مبسم والورد خد والبنفسج محال
وقول الشهاب محمود :

وإني لني نظري نحوها وقد ودعتني قبيل الفراق
ولا صبر لي فأطيق الهوى ولا طمع إن نأت في اللحاق
ولا أمل يرتجى في الرجوع ولا حكم في رد تلك النياق
كفنى يودع روحا غدت براها على رغبة في السياق^(٣)
٨ - مع التقسيم^(٤) كقول جنوب في رثاء أخيها عمرو بن عاصم
ذي الكلب^(٥) :

وخرق فجاوزت مجهولة بوجناء حرف تشكى الكلالا^(٦)
فكنت النهار به شمس وكنت دجى الليل فيه الهلالا

(١) المدة - ٢ - ٢٢ .

(٢) أوقليدس بضم وزبادة وأوكافى القاموس .

(٣) السياق : الاختصار .

(٤) التقسيم ويسمى الإرماد أيضا : أن يجعل قبل المعجز من الفقرة أو البيت ما يدل على المعجز إذا عرف الروي .

(٥) انظر خبر قتله في زهر الأدب - ٣ - ٢١٢ .

(٦) المرق : الغفر والأرض الواسعة المجهولة تتخرق فيها الرياح .

لما ذكرت النهار جعلته شمساً ، ولما ذكرت الليل جعلته ملامحاً كان
القافية ، ولو كانت القافية رائية مثلاً لجعلته قرأ .

وسر الصنعة في هذا الباب : أن يكون معنى البيت مفتحياً قافيته ،
وشاهداهما ودالاً عليهما^(١) .

وترى ذلك واضحاً فيما ذكره علي بن ظافر الأزدي ، قال : خرجنا
للفاء القاضي الفاضل ، فرأيت في الموكب رجلاً أسود اللون عليه جبة حمراء
فأنكرته ولم أعرفه ، ولقيت القاضي الأسعد أبا المكارم فقلت له : من
هذا الأسود الذي كأنه لجمة في دم حجامه ؟

فقال : كأنه ناظر طرف أرمـد .

فقلت له : يصلح أن يكون بعده :

أو مثل خال فوق خد أرمـد .

وأن يكون قبله :

وأسود في ثوبه المورـد .

ثم لقيت بعد ذلك ابن سناء الملك فأنشدته إياهما وكنتم الأول ،
وقلت : قد صنعت لها أولاً ، فاصنع أنت أيضاً ، وقصدت بذلك اختيار
القافية وتمسكها إذ كل خاطر إنما يقادر إليها .

فقال :

وأسود في ملبس مُورـد .

فمجيئ من توارد الخاطرين لما كانت القافية متمكنة غير مستعدة
ولا محتلة ، إلا أن قوله : في ملبس أحسن من قولي : في ثوبه^(٢) .

٩ - مع الاستخدام كقول ابن جابر الأندلسي :

(١) المدة - ٢ - ٢٦

(٢) بدائع البدائـه - ٩ - ١٠ .

في القلب من حيكم بدر أقام به فالطرف يزداد نوراً حين يبصره
تشابه العقد حسنا فوق لبنته والثغر منه إذا ملاح جوهره

١٠ - مع حسن التعليل كقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للسكان العالي
وقول ابن جنيب البغدادي :

ريقته الشهد والدليل على ذلك نمل في خده صعيداً^(١)
وقول الفاضل الفاضل :

لو لم يُعطل خاطري عن سلوة ما كان خدي بالمدامع حالي
أودعته قلبي نغان وديعتي فسواده في خده كالحال
وقول ابن اللبابة :

زادوا جفاء فانتقصت مودة ومن الزيادة موجب التقصان
أنا مثل مرآة صَفِيل صفحها ألقي الوجوه بمثلها تَلْقَانِ^(٢)
وقول آخر :

انظر إلى الصبح المنير وقد بدا يغشى الظلام بمائه المتدفق
غُرِقت به زُهر النجوم وإنما سلم الحلال لأنه كالزورق
وقد أعجب عهد القاهرة باجتماع التشبيه مع حسن التعليل ، فقال : ينبغي
أن تعرف أن باب التشبيهات قد حظي من هذه الطريقة بضرب من السحر
لا تأتي الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنهه ما ناله من اللطف والعارف ،
فإنه قد بلغ حداً يرد المعروف في طباع الغزل ، ويلهي الشكوان ، وينفث

(١) النمل : كناية عن شعر العارضين أول خروجه .

(٢) الصفع : الجانب .

في عقد الوحشة ، ويشهد ما ضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يطيل
لسانه في الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر^(١) .

١١ - مع تجاهل العارف كقول ابن هاني الأندلسي في المعز الفاطمي :
أبني العوالي السمرية والموا ضي المشرفة والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبجع في حير
ويحكى : أنه لما أنشدهما ترجل العسكر كله ، ولم يبق راكب
سوى المعز .

فلا يعلم شعر كان جوابه نزول عسكر جرار غيره^(٢) .

وبما نسب إلى يزيد بن معاوية :

أيل دجا أم شعرك الفاحم الجعد وبدر بدا أم وجهك القمر السعد
وزجسة هاتيك أم هي مقله وتفاحة ذاك المضرج أم غد
وحقان من حاج لطيفين رُكبا بصدرك أم ثديان هذان أم نهْد
وقول ابن الفارض :

أو مبيض برق بالأبيض لاحا أم في ربا نجد أرى مصباحا
أم تلك إلى العامرية أسفرت ليلا فصيرت المساء صباحا
وقول شاعر :

أجفون كحيلة أم صفاح وقدود مهترئة أم رماح

١٢ - مع التدييج^(٣) كقول ابن الساطي :

من معشر ويجيل قدر علاته عن أن يقال لمثله من معشر

(١) أسرار البلاغة - ٢٣١ .

(٢) خزائن الأدب للصوى - ١٥٤ - معاهد التنصيص - ٢ - ٥٤ .

(٣) التدييج : أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من المدح أو غيره ألوانا لفصد السكتاية
أو التورية .

بيض الوجوه كأن زرق رماحهم سرّ يحلّ سواد قلب العسكر
وقول أبي بكر الخالدي :

ومدامة صفراء في قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء
فالراح شمس والحجاب كواكب
وقول بعضهم :

الغصن فوق الماء تحت شقائق مثل الأسنة خُصّبت بدماء
كالصعدة السمرات تحت الراية الحمراء م فوق اللامة الخضراء
١٣ — مع المقابلة كقول العباس بن الأحنف :

اليوم مثل الحول حتى أرى وجهك والساعة كالشهر
وقول الحداد المصري :

أما ترى الغيت كلما ضحكك كأنم الزهر في الرياض بكى
كالجيب يبكي لديه عاشقه وكلما فاض دمه ضحكا

١٤ — مع تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس : كقول أبي القاسم
الطاهري :

قضيبي ولكن مبسم الشور ثغرها وبدر ولكن المحاق ينصرها^(١)
وقول آخر في وصف الخيل :
منها الدجوجي ومنها الأرمك^(٢)
وقول آخر :

هو الكلب إلا أن فيه ملالة وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

(١) محاق المصر . كناية عن دانه .

(٢) الأرمك : ما يخالط غيره سواد .

وقول آخر :

معشر أشبهوا القـرود ولكن خالفوها في خفة الأرواح

٥ - مع صحة التفسير كقول العسكري :

كيف أسفروا أنتِ حقف وعصن وغزال لحظا وردفا وقد (١)

وقول المثني :

ففي كالسحاب الجئون يخشى ويرجى رُجى الحبا منها وتخشى الصواعق

وقول بعض الشعراء :

شبه الغيث فيه والليث والبدر ر فسمع وعُرب وجميل

١٦ - مع الرجوع (٢) كقول السراوندي :

كالبدر بل كالشمس بل ككاهما كالليث بل كالغيث مطال الديم

وقول ابن سناء الملك :

ومليئة بالحسن يستخر وجهها بالبدر ، يهزأ ريقها بالقـرف (٣)

لا أرتضى بالشمس تشبيها لها والبدر ، بل لا أكتفى بالملكوت (٤)

وقد أخذ من قول ابن المعتز ولم يحسن الأخذ :

والله لا كلمته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كالملكوت

قايست بين جماله وفعاله فإذا الملاحاة بالخيانة لا تنق

١٧ - مع الإدماج كقول ابن قلاقس :

كان دمرعى إذ تسكار وقعها نعد على الدنيا بين المساويا

(١) الحقف بالكسر : الرمل الموج ؛ يريد به العجز

(٢) الرجوع - المود إلى كلام سابق بالنقض والإبطال لتسكنة .

(٣) القرف كجعفر : الممر يرعد منها صاحبها .

(٤) الملكوت : أحد خلفاء بني العباس وقد شهر بالجمال .

فقد ضمن في وصف كثرة دموعه شكايته من الدنيا .

وقول القاضي الفاضل :

وقد خفقت ربابته فكأنها أنامل في عمر العدو تحاسبه

ومن الطريف قول الخيمي في سبعة :

وسبعة مسودة ؛ لونها يحكى سواد القلب والناظر

كأنى وقت اشتغالى بها أعد أيامك يا هاجرى

ومما جاء في شعر المتنبي قوله في طول الليل :

أقلب فيه أجفانى كأنى أعد بها على الدمر الذنوبا

١٨ - مع المزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحترى :

لعمرك إنا والزمان كما جنت

على الأضعف الموهون عادة الأقوى

وقول زياد الأعجم :

وإنا وما تُلقي لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما يُلقي في البحر يفرق

وقد أشاد عبد القاهر بهذا البيت ، لأن عمل الشاعر فيه أدق وطريقه

أغرض ، ووجه المشابهة فيه أغرب^(١) .

٩ - مع الجناس كقول صاحب في أخوين صبيح وقيبح :

يحيى حكى الحنبا ولكن له أخ حكى وجه أبى يحيى^(٢)

وقول ابن جزي الأندلسى :

أيا من كفت النفس عنه تعففا وفى النفس من شوقى إليه لهيب

(١) دلائل الإعجاز - ٧٢ .

(٢) أبو يحيى : كنية ملك الموت .

ألا إنما صبرى كعبر وإنما على النفس من تقوى الإله رقيب
ويصح بدل « لهيب » : غرام ، وبدل « رقيب » : لجام .
وهذا يسمى التخيير البديعي ^(١) .

٢٠ - أو مع التورية كقول الصفدى :
ورب صديق غاظه حين جاده من القوم صفح دائم الهطل بالهطل ^(٢)
فقلت له تأبى المروءة أنسا تخليبك يا بستان فينا بلا نخل
والنخل يستعمله المولودون بمعنى الصفح .

وقول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :
قالوا أما فى جلق زهة تنسبك من أنت به مفرى ^(٣)
يا عاذل دونك من لحظها سهما ومن عارضها سطرأ
والمهم والسطر من متزهات دمشق المشهورة .
وقول أبى الحسين الجزار :

أنت طوقنى صنيعا وأسمعك م شكرا كلاهما ما يضيع
فإذا ما شجأك شكرى فإنى أنا ذاك المطوق المسموع
وقول ابن الوردى :

يا شيخ خل النصابى فالرمد بالشيخ ألبق
ولا تحث كميننا ^(٤) فإن فودك ألبق

٢١ - مع العكس ويسمى التبديل كقول بعض الشعراء :

(١) نفع العليق - ٣ - ٢٧٢ .

(٢) جاده : أمطره .

(٣) جلق بكسر وتشديد اللام مع الفتح والكسر : دمشق .

(٤) الكمين : الخمر .

ألمست ترى أطباق ورد وحولها من الترجس الغض الطرى قدود
فقلت حدود ما عليهن أعين وتلك عيسون ما لهن حدود
٢٢ - مع التفريق كقول بعضهم .

قاسوك بالغصن في التثني قياس جهل بلا اتصاف
هاذاك غصن الخِلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف (١)
٢٣ - مع الزاغة - وهو المحجور بالفاظ منزوعة عن الفحش - كقول
أبي تمام :

بن فعيصة ما بالى وبالكم وفي البلاد منادح ومضطرب
لجاجة لى فيكم ليس يشبهها إلا لجاجتكم في أنكم عرب
٢٤ - مع الاستدراك كقول الفاعل :

وإخوان تحذتهم دروعا فكانوها ولكن للأنعادي
وخطتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فزادي
وقد يجتمع التشبيه مع عدة بدعيات كقول أبي تمام :
مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل
في هذا البيت يقول ابن أبي الإصبع : إنه من أفضل بيوت المناسبة
لما انضم إليه معها من المحاسن :

ففيه مناسبة تامة بين مها وقنا ، ومناسبة ناقصة بين الوحش والخط
وأوانس وذوابل .

وتشبيه في مها وقنا ، وقد حذفت الأداء منه ليدل على قرب التشبيه به .
والاستثناء في قوله : إلا أن هاتا أوانس ، وإلا أن تلك ذوابل ؛

ليثبت للموصوفات التائيس ، وينق عنهن النفار والتوحش في الأول ،
وليثبت لمن اللين وينق عنهن اليبس والصلابة في الثاني .

والمطابقة في الوحش وأوانس ، وهاتان التان للفريب وتلك التي للبعيد .
والمساواة ؛ فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر عنه

والإتلاف ، لكون ألفاظه من راد واحد ، متوسطة بين الغرابة
والاستعمال ، وكل لفظة منها لائقة بمعناها لا يكاد يصلح في موضعها غيرها .
والتكئين ، لاستقرار قافية البيت في موضعها وعدم نفاها عن محلها (١) .

وفي أقوال ابن أبي الأصمبغ شيء من المبالغة ؛ فقد استحسن من
أبي تمام الاستثناء في قوله : إلا أن تلك ذوابل ، معللا ذلك بإثبات اللين
لمن ، ونق اليبس والصلابة عنهن .

وهذا يخالف قول الأمدى الذي يخطئ أبا تمام في هذا ؛ لأنه إنما قيل
للقنا : ذوابل ، للينها وتلثيها

وأبو تمام نق ذلك عن قدود النساء التي من أكمل صفاتها التلثي واللين
والانعطاف ، كما قال نعيم بن معقل :

يهرزن للشئ أوصالا منعمة هزّ الجنوب ضححا عيدان يهرينا
أو كاهـرزاز ردينـّ تداوله أيدي التجار فزادوا متته لينا
فشبه نعيم قدودهن بالرديني للينه وتلثيه لا غير ، وهذا أجود من كل
ما قاله الناس في مشي النساء وحسن قدودهن (٢) .

(١) خزائن الأدب المحمدي — ٢١٠ .

(٢) الموازنة — ١١٠ .

الفصل الرابع

التشبهات المبتكرة

من الأمور الشاقة المجهدة رسم طريق معبد لابتكار المعاني ومرد ذلك إلى تعدد مناحي التفكير في الناس ، وتباين أنظارهم إلى الأشياء ، واختلاف طرائقهم في الاستنباط ، وتفاوت عقولهم في القوة والضعف ، والنفوذ والكلال .

وكل ما يستطاع أن يقال في هذا المقام : أن الزود من مختلف الثقافات والارتشاف من مناهل العلوم والمعارف وبخاصة الفلسفات ، والانتفاع بكل جديد تبذعه المدنية والحضارة ، وإنعام النظر وإعمال الفكر في ملكوت السموات والأرض وما تستجلبه حواسنا ، واستخلاص العبر من الحوادث والخطوب والمثالات ، كل أولئك من شأنه أن يوسع ألق الأدب ، ويخصب قريحته ، ويشقق معلوماته ، ويفتح خياله ، ويعمق تفكيره ويمهد سبيله إلى اقتناص الشوارد ، وتقييد الأوابد ، أما ما عدا ذلك من المتعذر ضبطه وتحديد .

وقد فطن إلى ذلك ابن الأثير فقرر : أن المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ، لأن ذلك مما لا يمكن ، ومن هنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره .

وكيف تنقيد المعاني المخترعة بقيد ، أو بفتح لها طريق يسلك ؛ وهي تأتي من فيض إلهي بغير تعليم ، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض ، والذي يختص بها يكون قدما يوجد في الزمن المتطاوّل (١) .

ثم يرسم ابن الأثير طريقا يظنه موصلا جيدا لاقتناص المعاني — وهو ليس بموصل على الحقيقة — إذا لم يوجد الطبع السليم والوحى المشع ، والإلهام الفياض .

قال : سأقول لك في هذا الموضوع قولاً لم يقله أحد غيري ، وهو أن المعاني المتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهراً لبطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأواسطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني ، ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية ، إلا أن هذا لا يقع في كل معنى فإن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه ، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا أمراً غريباً لم يأت مثله ، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم شعر ، فإن الكاتب والشاعر يعثر على مظنة الإبداع^(١) .

وفي كلام ابن الأثير كثير من الحق ، ولكن لا نقره على أن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه ؛ فالمعاني حقل خصب بكر متراعى الأطراف لانهاية لحدوده ، ولم تأخذ العقول منه إلا كما اغترف الظأى جرة بيده من نبع ثرار والمعاني أكثر من الألفاظ وأوسع رفعة وأعمق لجة ، ولا تزال متجددة على تراخي المدة وتعاقب الأيام بما تمدنا به الفتوح العلمية والعقلية من أمداد متصلة زاخرة لاتنفد على إضائق ، وإنما خيل لابن الأثير أن المعاني قد طرقت أو استنفدت لأن شعراء العصور الخالية قد سجنوا أنفسهم في نطاق ضيق محصور من الموضوعات يمدون فيها ويمدون ، فتجسروا ما وسعته الله عليهم ، فالذنب ليس للمعاني ولكن لضيق آفاقهم . يقول « تومسون » لقد أكدت كثيراً على ضرورة الجهاد من أجل الحصول على قوة الابتكار ، وقد سألتني أحد الأشخاص : هل في إمكان الشخص أن يتعلم

كيف يصبح مبتكرا ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما أحسن طريقة يجب اتباعها ؟ لأن الابتكار أو الاختراع أو الخلق سمه ما شئت ، يمكن بكل تأكيد أن يكون مكتسبا ، وفي نفس الوقت هناك بعض الناس ولدوا وعندهم ميل عظيم نحو الابتكار .

ثم يجب عن السؤال : بأن أساس المسألة : هو أن الابتكار عبارة عن مجرد القدرة على ترتيب الأفكار المألوفة ، ووضعها في قالب جديد مشيد على صلات جديدة^(١) .

وقد عرف ابن رشيح الابتكار بأنه : ما لم يسبق إليه ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، ومثّل له بآيات منها : قول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموت حجاب الماء حالا على حال
فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره . وسلم الشعراء إليه : فلم ينازعه أحد إياه^(٢) .

ثم هو يتفق مع « أرسطو » في أن وصف الأشياء المادية كما هي في الواقع لا فنية فيه ولا ابتكار ، كما أنه ليست هناك فنية في الأشياء الموجودة بالضرورة ولا اللازمة لزوما عقليا ، ولا في المسائل الرياضية والعملية إذا عرضت على طبيعتها مجردة عن الإضافات التي نزيد عليها^(٣) .

أما ابن الأثير ، فيرى أن المعاني على ضربين^(٤) :

١ - أحدهما يتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه . وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، وبين له عند

(١) أسرار النجاح - ٦٩ .

(٢) البنية - ١ - ١٧٥ .

(٣) بلاغة أرسطو - ٣٧ .

(٤) المثل السائر - ١٢٣ .

الأمور الطارئة ، كقول أبي تمام في وصف المصلوبين :
بكروا وأمروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربيط التجار
لا يوحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفّر من الأسفار
والخاطر في هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كلفة ، لشاهد
الحال الحاضرة .

وجملة الأمر : أن الشاعر والكاتب ينظر إلى الحالة الحاضرة ثم يستنبط
لها ما يناسبها من المعاني ، وقد يستخرج من المعنى غير المبتدع معنى مبتدعا .
فن ذلك قول ابن السراج في الفهد .

تنافس الليل فيه والنهار معا فقمّاه بجلباب من المقل
وليس هذا من المعاني الغربية ، ولكنه تشبيه حسن واقع موقعه .
وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل ، يقال له : ابن مسهر ، فاستخرج
من هذا البيت معنى غريبا فقال :

ونقطته حياء كى يسالمها على المنايا نعاج الرمل بالحدق
والمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة ، أصعب من الالما
لا يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لا يكارها سر لا يهجم على مكانته
إلا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم .

والضرب الثاني من المعاني : هو الذي يتخذى فيه على مثال سابق ، ومنهج
مطرود ؛ وذلك جُلّ ما يستعمله أرباب هذه الصنعة ، ولذلك قال عنتره :
هل غادر الشعراء من متردّم .

ولكن لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان ؛ لئلا يقنط من الترقى
إلى درجه الاختراع ، بل يعول على القول المطمع في ذلك ، وهو قول
أبي تمام :

لازلت من شكرى في حلة لابسها ذو سلب فاخر^(١)
يقول من تفرع أسمعكم ترك الأول للآخر
وعلى الحقيقة فإن في زوايا الأفكار خبايا، وفي أبكار الخواطر سبايا،
لكن قد تقاصرت الهمم، ونكصت العزائم، وصار قصارى الآخر أن
يقبع الأول، وليته تبعه ولم يقصر عنه.

ومهما يكن فليس الشاعر هو الناظر للصور المرئية، إنما الشاعر المبتكر
هو الذى يرى الصورة غير المرئية، بل هو الذى يبتكر الصور، والابتكار
لا يستمد عناصره من المنظور فقط، بل من المتصور والمفروض أيضاً.

إن النظرة الداخلية هى التى يعتمد عليها الشاعر، وفيها مزيج معقد
مخلوط من مناظر مرئية وغير مرئية، شعورية وغير شعورية، وفيها
خطوط وألوان وأصوات من كل ما تقذف به العاطفة، ومن كل ما ينبع من
النفس: من فكر وعلم وحكمة وخيال^(٢).

وعلى كل فنحن لا نريد من الابتكار أو الاختراع أو الخلق كما يسمونه
أن يأتى المثنى بشئ جديد من عدم عض: فهذا فوق الطاقة البشرية،
والتكليف به تكليف بالمحال كما هو ضد التواميس الكونية.

ولنا فى ذلك أسوة بأمناء الطبيعة نفسها، فهذه الكائنات علوية وسفلية
— على ضخامتها وعظمتها وتباين مظاهرها وتنوع خصائصها — تتألف من
عناصر محدودة لا تتجاوز المائة.

ثم هى — مع ذلك — نروعنا بما بينها من فروق شاسعة، لا تؤذن فى
الظاهر بتماثل، ولا نشعر بصلة، مع أنك لو حطنتها لعجبت من تقاربها

(١) السلب بالفتح: ما يسلب، يريد به الثياب.

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٢٥٦.

في التركيب ، ومن سريان الوحدة الشاملة فيها ، وأن هذا التباين القليل في عناصرها قد أدى إلى هذه السمات المتنوعة المتغيرة .

فنحن لا نخلق شيئا من العدم ، والمؤلفات التي تصدر عن العدم قد تسلينا ساعة من الزمن ، ولكنها تفتقر إلى المادة افتقارا مسرفا ، ولهذا ترتد إلى العدم^(١) .

وإذن فليس معنى الابتكار أن نخلق شيئا من لا شيء ، ولكن معناه : أن نؤلف صورا جديدة لأشياء أخذنا عناصرها الأولية من صور ذهنية سابقة مرت بنا في حياتنا ، ودخلت في حوزة تجاربنا .

ولذا كان ما يهمنا بالدرجة الأولى في هذا المجال ؛ هو كثرة المعلومات والأفكار ؛ لذا ينبغي أن نقرأ ونلاحظ وتعلم من أي شيء ومن أي شخص ولا تتواني في شحن عقلك بالأراء والأفكار .

ثم اختر لنفسك بعض الدراسات الخاصة ، وتبحر فيها ؛ لأنه ليس في إمكان الإنسان أن يصبح مبتكرا بصفة عامة ؛ لأن الابتكار يجب أن يدور حول بعض النواحي الخاصة كالميكانيكا والطب والأدب وما شابه ذلك ، فاختر طريقك ، وسر فيه ، وتعلم كل ما يمكنك أن تتعلمه من هذا الطريق .

ثم كن دائما مستقبلا للأراء الجديدة ؛ ابحث عن وجه الشبه أو الأسس التي تربط الآراء بعضها ببعض ، وغالبا ما تتوقف الفكرة المبتكرة أو الاختراع الجديد على شيء واحد فقط ، ألا وهو اكتشاف بعض الصلات ، واستخراج بعض المبادئ والأسس التي تربط بين الحقائق المشهورة .

وبالبحث عن الابتكار يجب أن يتعلم كيف يفكر بطريقة استنتاجية ، وأن يسأل ويقول : لماذا ؟ فلو لم يسأل « نيوتن » ذلك السؤال عند ما رأى التفاحة وهي تهوى إلى الأرض ، لما اكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

وتعلم أيضا أن تعقل وتفكر بالمقارنة ؛ لاحظ وجه الشبه وحاول أن تستخدم مبادئ هذه المجموعة من الحقائق في شرح مجموعة أخرى ، وعن طريق مثل هذه الوسائل يأتي كثير من الاختراعات إلى عالم الوجود^(١).

ومن الضروري — كما يقول شارل بلوندل ، أن يستعير كل مخترع المواد الأولية لاختراعه من بيئته^(٢) وبقدرة ما اخترعه الإنسان في خاطره من هذه الصور المختلفة ، يكون حظه من كثرة الابتكار ، وقدرته عليه وافتتاحه فيه .

فالغنى بهذه الصور كالثرى من المال كلاهما يتيسر له الإتفاق كما يشاء وكيف يشاء بلا جهد ولا عناء .

وعكس ذلك خاوي الوفاض منهما ؛ فإنه لا يتأتى له أن يبسط خياله أو يبسط يده لعسرته التي تثقله بالأصناف في شئون الفكر وشئون المال . وبذلك يمكننا أن نقول : إن أكثر الناس ابتكارا هم الذين تشبعوا بخبرات كثيرة عن طريق التقليد ، فأكثر الكتاب والأدباء والباحثين قد ابتكروا على أساس خبرتهم وتقليدهم لمن سبقهم^(٣).

فثلا يقول عدِي بن الرَّقاع العاملي في زواج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بأم حكيم بنت الحكم الأموية :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الأستار مثلهما فيمن رأى منهم ومن سمعا
دام المرور له بها ولها وتنهأ طول الحياة معا

(١) أسرار النجاح — ٦٩ .

(٢) مقدمة علم النفس الاجتماعي — ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق — ٢٨ .

فكان أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر ، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا (١) .

والشمس والقمر ليسا بالجديدين على العيون والخواطر ، فهما يظالمان الناس كل يوم ، وصورتاهما مقررتان في النفوس .

ولكن هذا الشاعر أتبع له أن يسبق الشعراء إلى عقد صلة بين المروسين وبين القمرين ؛ فالجدة هنا ليست في الأجزاء الأولية لأنها معروفة ولكن في الصورة التركيبية .

فالابتكار — كما يقرره أرسطو — إضافي ؛ لمحبة الأديب في ذاتية من الذاتيات أو في عرضية من العرضيات . فألح عليها وأبرزها ، فهو من عمل الشاعرية إن لم يكن هو الشاعرية نفسها ، ولا يقدح في شاعرية الابتكار أن يكون مصدر الابتكار نفسه فكرياً أو عقلياً ، فالذي يقلب الفكرة — فيجعل البخيل كريماً إذا مدح ، والكريم بخيلاً إذا هجا — مبتكر أضاف جديداً إلى الفكرة ، أو فهم في الفكرة غير ما يفهمه الناس ، والذي يقلب الحكم العقلي إلى حكم عاطفي : مبتكر لأنه أضفى على الحكم المقرر شيئاً جديداً لم يتنبه له سائر الناس .

والفنان يستطيع أن يتشكر جمالاً من شيء لا جمال فيه ، وأن يضفي جمالاً على شيء ليس جميلاً في ذاته وليس موضعاً للجمال (٢) .

يقول بشار في تحريك القسم للباب :

طرقني صباً فحركت الباب ب هُدُوءٍ فارتعت منه أرتياباً
فكأنني سمعت حس حبيب نقر الباب نقرة ثم هاها

(١) نزار القبوب — ٢٢٩ .

(٢) بلاغة أرسطو — ٢٧ — ٤١ .

وقلّ من الناس من لم يحدث له ذلك ، ولكن بشاراً وحده هو الذى سجل هذا المعنى فى هذا التشبيه العجيب .

ويذكر الصولى بمناسبة ذلك : أن المكتنى بالله كان قائماً فسمع دق الباب فأنقبه له مرتاماً ، ثم سكن قليلاً ، ثم عاد فنظر فإذا الريح تحرك الباب حركة كأنها دق بيدها .

قال : فقلت له : ذكر الشاعر ذلك ، وأنشدت البيتين السابقين .

فقال المكتنى : ما كنت أظن أنه قيل فى هذا شيء ، وما أقل ما يجرى مما لم يذكره الناس^(١) .

ويقول صرّ دُرّ :

إنما المرء فوقها هو - لفظ - فإذا صار تحتها فهو معنى

واللفظ والمعنى معروفان ، ولكن الجديد تصوير الإنسان الحى فوق الأرض - يضطرب فوقها ويسمى - باللفظ ؛ لأن اللفظ كائن حى مشغول ، يجرى على اللسان ويلتقطه السمع .

وكذلك تصويره تحتها قائماً : بالمعنى ؛ لأن المعنى لا يرى ولا يتمثل فى غير اللفظ الذى هو كالجسد له .

وقد وفق كل التوفيق فى هذا التشبيه كما وفق فى تصويره ؛ للعلاقة بين اللفظ والمعنى ؛ فإنك لو جردت الشاعر من أبحره وألفاظه وقوافيه - كما يقول كروتشة - لما بقي هنالك فكرة شعرية كما يتخيل إلى بعضهم ، بل لما بقي شيء ألبته^(٢) .

وهو كقول جاريت : إن الفكرة جنين حتى تصاغ فى السمكات^(٣) .

(١) ديوان المعاني - ٢ - ٤٧ .

(٢) المجلد فى فلسفة الفن - ٦٠ - ٦١ .

(٣) فلسفة الجمال - ١١٨ .

فنحن حقاً في حال الحياة ألفاظ منطوقة ، وفي حال الفتاء معان مجردة .
وهكذا يقال في جميع الصور البيانية التي تعجب بها ونهتز لها ، ونحكم
لقائلها بالسبق والتفرد ؛ فلسنا نطرب لهذه الجزئيات التي تألفت منها هذه
الاشكال السكبكية ، فهي بين أيدينا وعلى مرأى ومسمع منا في كل موقف ،
ولكن الذي يوتقنا ويدهشنا ، ويسحر عيوننا وألباننا هذه الصور في إطارها
النهائي : كيف أمكن تأليفها على هذا المثال العجيب الغريب من جزئيات
معروفة مألوقة ، حتى لكانه لأصله بين رؤيتنا لها جملة ورؤيتنا لها تفريقاً !

ومع هذا الحذر أن ننظر أن ابتكار الأشياء على هذا النحو شيء مذل ،
سهل المقادة لكل شاعر أو أديب ، فالخلق أنه شيء عسير جداً ، صعب جداً ؛
لأنه فن من الخلق ، والخلق من صفات الخالق — له المثل الأعلى — فهو
يحتاج إلى دقة ملاحظة ، وشمول نظر ، وتغلغل في قرارة الأشياء ، وذوق
مرهف في تخير الأصابع ، وإحكام مزجها ووضعها بعضها بإزاء بعض ، حتى
لا تلبو عنها النفس وتقتحمها العين .

إن الاختراع هبة علوية لا تتاح لكل إنسان ، إنها ملكة هي بلا ريب
أشد الملكات جموحاً ، فالإنسان يستطيع أن يمرن على الصبر والشجاعة
والقدرة ، بل على دقة الإحساس ذاتها ؛ ولكنه لا يستطيع أن يثير وأن
يقهر القدرة على الاختراع .

وعلى من حي شيئاً من تلك الهبة الثمينة بين الهبات ، أن يعبر لها
بجراها ، وأن يخصصها بالعمل ، ويوجهها بالبلاء ، وأخيراً عليه أن يحققها
فعلاً ، مع حمايتها من الفساد الذي يستنفدها ويفنيها^(١) .

ثم لا ننسى حاجتنا معها إلى بيان ناصع يترجم ما استكنّ في أعماق
السرائر ، ويحسد هذه المعاني المجردة ، ويهب لها الحياة ، وينفخ فيها الروح ،
ويسكبها في الأذان نفثاً حلواً ، ولحناً عذباً مسكراً .

لقد كان سقراط يعزو قوة الابتكار الأدبي إلى ما سماه طبيعة خاصة ،
وهي التي وصفها بأنها قادرة على أن تنعمس وهذا صحيح ، ولكن هذه
الحاسة لا غناء فيها ، إذا لم تكن هنالك قوة تعبر عنها تعبيراً لفظياً
مفهوماً (١) .

ولنفاسة هذه الهبة وندرتها واختصاص قليل من الناس بها ، كان
المخترعون أفراداً يحصون عدا .

ومؤرخو الأدب يذكرون في هذا الشأن بشارا وأبا نواس ، وعندما
أن أكثر المحدثين معاني ونوليداً أبو تمام .

على أن أبا القاسم بن مهرويه يزعم : أن جميع ما لأبي تمام من المعاني
المختزعة ثلاثة .

ويقول ابن الأثير : قد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين
ابتداعاً للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين
معنى ، وأهل هذه الصناعة يكثررون في ذلك ، وما مثل هذا من قبل أبي تمام
بكثير ، فإني عددت المعاني التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه
العدة ، وهي مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه (٢) .

ويرى ابن رشيق : أن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومي (٣) .

صور للتشبيهات المبتكرة .

والتشبيهات المبتكرة كثيرة في الشعر ، وقد تتبعناها في مواطنها المختلفة
وأتينا على صدر صالح منها ، وتركنا ما سخط نسيجه أو استغلق معناه .

فن ذلك قول بعض ملوك اليمن :

(١) قواعد النقد الأدبي — ٢٨ .

(٢) المثل السائر — ١٢٧ — ١٢٨ .

(٣) المبدعة — ٢ — ١٨٩ — ١٩٠ .

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ وطلوعها من حيث لا تُنسى
تجرى على كبد السماء كما يجري رحام الموت في النفس
أخذه مسلم بن الوليد فقال :
تجرى محبتها في قلب عاشقها جرى المعافاة في أعضاء متكيس
وفي رواية :

جرى السلامة

وأحسن اتباعه أبو نواس فقال في الخمر :
تمشيت في مفاصلهم كتمشى الجُرء في السقم
. . . .

وقول امرئ القيس :
كان المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القُطر^(١)
يعلّ به برد أنيابها إذا غرّد الطائر المُستجير^(٢)
وفي رواية : ونشر العَطير ، ولعله تحريف .
. . . .

وقوله يصف الناقة :
كان الحصى من خلفها وأمامها إذا نجت رجلها حذف أعمر^(٣)
شبه رمى خفيها للحصى برمي الأعمر ؛ لأن رميه يقع في جهات متفرقة .
أخذه الشماخ فقال :
لها منسِم مثل المحارة خفية كان الحصى من خافه حذف أعمر^(٤)

(١) القطر بضم فسكون : العود الذي يتبخر به .

(٢) المستجير : المصوت في البحر .

(٣) النجل والحذف : الرمي ، والأعمر : من يعمل بيده القمامة .

وقوله فيها أيضاً :

وعنفس كالواح الإيران نسائها على لاحب كالبرد ذى الحبرات^(١)
شبه الناقة في عظمها بالتابوت الضخم ، وقد حثا على السير بعصاه على
طريق واضح كالبرد البنى المنقوش .

أخذه طرفه فقال :

أمون كالواح الإيران نسائها على لاحب كأنه ظهر برجد^(٢)

• • •

وقوله — يصف الثغر — :

منابته مثل السدوس ولونه كشوك السبال وهو عذب بفيض
شبه لثاتها بالسدوس — وهو الشبايح — في مواردها ؛ لأنهم كانوا
يذرون عليها الإمد ، وشبه الأسنان نفسها في بياضها بالسبال — وهو
شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن .

• • •

وقوله — يصف جرى الفرس — :

إذا ما جرى شاووين وأبتل عطفه تقول هزير الريح مرت بأثاب
بالغ في وصفه وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شاووين ويبتل
عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالا في صفته بذكر الأثاب وهو شجر ، للريح في
أصغاف أغصانه حفيف عظيم ، وشدة صوت .

وقوله في الفرس أيضاً :

كأن دماء الهاديات بنحرة عصاره حناء بشيب مَرَجَل

(١) النفس : الناقة الصلبة ، والإيران : التابوت العظيم ، والنساء : العصا ، واللاحب :

الطريق الواضح .

(٢) الأمون : الناقة التي يؤمن عشارها ، والبرجد : كساء مخمط .

يقول : كأن دماء الهاديات - وهي أوائل الوحش والصيد - على
نحر هذا الفرس ، عصارة حناء خضب بها شيب مسرّح .
شبه الدم الجامد على نحره من دماء الصيد ، بما جف من عصارة الحناء
على شعر الأشيب ، وآتى بالمرجل للقافية .

• • •

وقوله - يشبه فرند السيف بمدب النمل - :
متوسد عضباً مضاربته في منته كدبة النمل
يدعى صقيلا وهو ليس له عهد بشموه ولا صقل

• • •

وقوله - يصف العقاب - :
كان قلوب الطير رطباً وبابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى
وامرؤ القيس^(١) : هو أول من شبه النساء بالظباء والمها والبيض .
وشبه الخيل بالمقيان والعصى ونيس الحلب^(٢) .
وشبهها بالظباء والسرحان والنعامة^(٣) .
وشبه الحمار بمقل الوليد^(٤) . وكر الأندرى^(٥) .
وشبه الطلل بوحى الزبور فى العسب^(٦) .

(١) الشعر والشعراء - ٥٥ .

(٢) الحلب كنكر : نبات .

(٣) العقد الفريد - ١ - ٨٣ .

(٤) الفلّ والمقلاة : عود يلعب به الصبيان .

(٥) الأندرى : الحبل التليظ .

(٦) الوحى : الكتابة ، والعسب : جريد النخل المستقيم المكشوط الخوص .

ويقول عنه ابن رشيقي : له اختراعات كثيرة يضيق عنها هذا الموضع ،
وهو أول الناس اختراعاً في الشعر ، وأكثرتهم توليداً^(١)

• • •

ولزهير في البشر عند السؤال :
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ويقول المسكري : ولو قال : مكان ، إذا ما جئته ، : إذا ما سألته
لكاد أجود .

ويعيبه بعضهم بأن تصوير الممدوح بأنه يفرح لو أعطى ما أعطاه للسائل
فيه زراية على قدره وحيلة له .

• • •

ولبعض شعراء كندة في مدح عمرو بن هند :
هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت على كل ضوء والملوك كواكب

• • •

ولعمرو بن كلثوم في وصف الندى من معلقته :
وثدياً مثل حبق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا
ويقولون : إنه أول من وصف الندى بحق العاج^(٢) .
وقد نشكك داود الإنطاكي في ذلك فتذكر : أن ما قيل : من أن أول
من وصف الندى عمرو بن كلثوم ، أمر يحتاج إلى مزيد استقصاء وإحاطة ؛
لأن العرب تغزلت كثيراً ، غاية الأمر أن المتأخرين ألطف^(٣) .

(١) المبدع — ١ — ١٧٥ .

(٢) دولة النساء للبرقوق — ١٥٥ .

(٣) تزيين الأسواق — ٢٢٨ .

وقول أعرابي في امرأة :

قامت تصدمني له عمدا لتقتله فلم ير الناس وجدا مثليا وجدا
بجيد آدم لم تعقد قلائده وناهد مثل قلب الظبي ما نهدا
فظل كالحائم الهيمان ليس له صبر ولا يأمن الأعداء إن وردا
شبه نديها في نهوده بقلب الآدم — وهو الظبي المشرب لونه يابضا —
في صلابته .

ويقول ابن قتيبة الدينوري : ولا نعلم أحدا شبه الندي بقلب
الظبي غيره (١) .

وللتابغة الديباني بعثت للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
وتبعه في ذلك شعراء كثيرون .

وللأعشى :

كان نعام الدو باض عليهم إذا ربيع يوما للصربخ المتد (٢)
أخذه زيد الخيل فقال :
كان نعام الدو باض عليهم وأعينهم تحت الحديد خوازر (٣)

ولعنبرة في القرم :

(١) عيون لأخبار — ٢ — ١٨٨ .

(٢) الدو : الفلاة ، والصربخ : النيث والمستقيث أيضا ، والتد بالفتح : المتفرق ،
وبالكسر : المصروح باليوب .

(٣) المزور بالفتح : كسر العين أو ضبطها أو منفرها .

تهد القطاة كأنها من صخرة ملساء بغشاها المسيل بمحضيل
شبه القطاة — وهي كفل الدابة ومقعد الرديف منها — في نهودها
وبروزها ، بالصخرة الملساء بغشاها الليل الجارف .

* * *

ولمعدى بن زيد العبادي :
لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري^(١)
قال ابن عبد ربه : وهو أول من سبق إلى هذا المعنى^(٢) .

أخذه العباس بن الأحنف فقال :
قلبي إلى ما ضرت داعي يكثر من همي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعي
وقال آخر :

كنت من كرتي أفرز إليهم وهم كرتي فأبن الفرار
وقال آخر :

إلى الماء يسعى من بغص بريقه فقل أين يسعى من بغص بعماء

* * *

ولليد :
من المسبلين الرياط لاذأ كأنما تشراب ضاحي جلده لون مذهب^(٣)
أخذه الأخطل فقال :

لذآ تقبله النعم كأنما مسحت رائبه بعماء مذهب

(١) الاعتصار : شرب الماء قليلا قليلا لازالة الظمأ .

(٢) البند الفرید — ١٨ .

(٣) الرياط : الأنواب المينة الرليفة .

ولليد أيضاً يذكر قوماً ماتوا :

وإنا وإخواننا لنا قد تابعوا الكلفندي والرايح المتجسر^(١)
أخذه بعض المحدثين فقال :

سبقونا إلى الرحيل م وإنا على الأثر

• • •

وله في تشبيه الأباريق بالبط :

تضمن أيضاً كالأوز ظروفها إذا أفاقوا أعناقها والحواصل^(٢)
أخذه شجرة الضي فقال :

كان أباريق الشمول عتبة أوز بأعلى الطيف عوج الخاجر^(٣)
وأخذه أيضاً أبو الهندي فقال :

سبغني أبا الهندي عن وطنب سالم أباريق لم يعلق بها وضر الزيد^(٤)
مقدمة قترًا كان رقابها رقاب بنات الماء تفزع للرعدي^(٥)

• • •

ولطرفة عين العبد اختراعات كثيرة في معلقته ، منها قوله في الموت :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكطول المرخى وئيباه باليد
ومنها قوله في السفينة :

(١) المتجسر : السائر في الهاجرة .

(٢) أفاق السقاء : ملأه .

(٣) الطيف بالفتح : موضع قرب السكوة والجانب والسطح .

(٤) الوط : سقاء البين .

(٥) المقدمة التي عليها : المساق ، وبنات الماء : كل

طائر يألف الماء .

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم القرب المفايل باليد^(١)
أخذه ليبد فقال :

تشق حمائل الدهن يداه كما لعب المقامر بالفيال
وأخذه الطرماع فقال :
وغدا تشق يداه أوساط الربا قسم الفيال تشق أوساطه اليد

وللنايعة الجمعدى فى وصف الفرس :

كان نمائل أرساغه رقاب وعول على مشرب
شبه أرساغه — وهى سيقانه وأقدامه — فى غلظها وانحنائها ، وعدم
الاتصاب فيها ، رقاب وعول قد مدتها لتشرب الماء .
وهو من بدائع التشبيه ، لأنه يستحب أن تكون أرساغ الفرس
غلاظاً يابسة .

وله فى صفة القوس :

كان مقط شراسيفه إلى طرف القنب فالمقنب^(٢)
لطحن بترس شديد الصفا ل من خشب الجوز لم يتقب
أخذه ابن مقبل فقال :

كأما بين جنبيه ومقنبه من جوزه ومناط القنب ملطوم
بترس أعجم لم تنخر مناقبه مما تحثير فى أطامها الروم

(١) المفايل : هو الذى يحجم للراب فيدفن فيه شيئاً ، ثم يقسمه قسمين ويسأل عن الدفين
فى أيهما هو ، فن أساب كسب ومن أخطأ خسر .

(٢) الشراسيف : ما أشرف على البطن من الأضلاع ، والقنب بالضم : جراب قضيب
الغاية ، والمقنب : سرية الغاية .

وللمر بن تولب في إعراض المرأة :

فصدت كان الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضئت بحاجب
أخذه أبو نواس فقال :

يا قرا للنصف من شهره أبدى ضياء لثمان بقين
يريد : أنه أعرض عنه بوجهه فرأى نصفه فقط ، وهو المقدر بضياء
ثمان ليال .

وله أيضا .

فإن تك أثوابي تمزقن عن يلقى فإن كمثل السيف في خلق الغمد
أخذه أبو هسان وزاد في معناه فقال :

لعمري لئن يئست في دار غربة ثيابي إذ ضاقت على المآكل
فإن كمثل السيف يأكل غمده له حلية من نفسه وهو طامل

ولجندب العكلى يصف امرأة :

على قدم مكنونة اللون رخصة وكعب كذفرى جؤذر الرمل أدرما
شبه كمها الأدرم - وهو المستوي - بذفرى الجؤذر - وهو العظم
الشاخص خلف أذنه - .

وللسباح :

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت

تخامص حافي الرجل في الأعرس الوجي^(١)

(١) التخامص : التخاصم ، والأعرس : المكان الصاب ، والوجي : الذي رفق قدمه من المشي .

(م - ٧ فن التشبيه)

وتركيب البيت : تخامص حافي الرجل الوجي في الأمعز .

أخذه ذو الرمة فقال يصف الإبل :

تشكو الوجي وتجافي عن صفائفها تجافي البيض عن برد الدماليج^(١)

• • •

ولامية بن أبي الصلت في عبدة بن جعدان :

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

وأرضك أرض مكرمة بنتها بنو نيم وأنت لها سماء^(٢)

أخذه أيمن بن خريم في مدح بني هاشم فقال :

أجعلكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأتم لأعينهم وأرؤسهم سماء

• • •

وللقب العبدى في وصف الناقة :

كان مواقع الثفنات منها معرّس باكرات الورد جون^(٣)

• • •

ولعمرو بن شاس :

وأمنابنا آثارهن كأنها مشافر قرحى في مباركها هدل^(٤)

أخذه الكميت فقال :

نشبّه في الهام آثارها مشافر قرحى أكلن البربر^(٥)

• • •

(١) الصفائف : الحزم من الخوص جمع سفيقة .

(٢) بنو نيم : نيم بن مرة وخط أبي بكر الصديق .

(٣) الثفنات بالكسر : جمع ثفنة ، وهي الركبة ، والجون : السود والبيض والراد السود معنا

(٤) الهدل : المترخية .

(٥) البربر : أول عمر الأراك .

ولبعض شعراء الحناسة :

أناخ اللؤم وسط بني رماح مطبته وأقسم لا يبرم
كذلك كل ذي سفر إذا ما تنهى عند غايته بقم
وفيهما يقول ابن الأثير : وهذان البيتان من أبيات المعاني المتدعة ،
وعلى آثارهما مشى الشعراء (١) .

• • •

ولأرطاة بن مهبية في وصف الخيل :

كان أعينها من طول ما جشمت سيرَ الهواجر زيت في قوارير
أخذه بعضهم فقال :

إن الركائب مخسوف نواظرها كما تضمّنت الدهن القوارير (٢)

• • •

وللأسعر الجعفي في الخيل :

يخرجن من خلل الغبار عوابسا كأصابع المقرور أقمى فاصطلى
أخذه علي بن جبلة فقال :

كان خيلك في أنساء غمرتها أرسال قطر تنهى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الموت سامية نشر الأنامل من ذي الفقرة الصالى (٣)

• • •

وللسميري - يصف طيب المواضع التي شئ فيها الحبيب - وهو
أول من فعل ذلك - :

(١) المثل السائر - ١٤٩ .

(٢) مخسوفة النواظر : غائرة .

(٣) الفقرة بالسكسر : شدة البرد .

تضوع مسكا بطن نسمان أن مشيت به زينب في نسوة عطبرات (١)

• • •

ولبشار بن برد :

جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار

• • •

ولآخر :

ومولى كان الشمس بيني وبينه إذا ما التقينا ليس من أعانه

يقول : لا أقدر على النظر إليه من بغضه ، فكان الشمس بيني وبينه .

• • •

ولمسلم بن الوليد :

إذا ما نكحنا الحرب بالبيض والقمنا جعلنا المنايا عند ذاك طلاقها

• • •

وله :

تَنَال بالرفق ما تعبنا الرجال به كالموت مستعجلا يأتي على مَهَل

• • •

ولأبي نواس في الخمر :

أيهما الراتحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شمها

نألي باللام فيهما إمام لا أرى لي خلافة مستقيما

فأصرفهما إلى سواي فإني لست إلا على الحديث نديما

كبر حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشتم النسيما

(١) زينب : أخت المجاج .

فكأنى وما أزين منها قعدى بزىن التحكما
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيع ألا يقبا
والشاهد في البيتين الأخيرين ، والقعدى بفتح القاف والعين هو الذى
يرى رأى القعد بالتحريك وم الخوارج .

وعند ابن الأعرابي : أنه جمع قاعد كحارس وحرس .

وهذه الفرقة المسماة بالقعدة ، كانت ترى الخروج وتأمربه ، ولكنها
تقعد عنه .

وله :

وخدين لذات ، معلل صاحب يفتات منه فكاهة ومزاحا
قال ابغنى المصباح قلت له اتد حسبي وحسبك ضوءها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاج شربة كانت له حتى الصباح صباحا
وله :

لا يزل الليل حيث حلت فدهر شرابها نهار
حتى لو استودعت سرارا لم يخف فى ضوئها السرار^(١)
يريد أنها من شدة ضوئها لو أودعت السرار - وهو آخر ليلة من
الشهر - أى لو أودعت ما ليس شيئا لم يخف ذلك فى ضوئها ، وهو من
الإغراق .

وله :

ونخار حططت إليه ليلا قلائص قدورين من السفار^(٢)
لجهم والكرى فى مقلتيه كخمور شكا ألم الخمار

(١) السرار بالفتح والكسر .

(٢) القلائص : النوى الشواب .

أبن لي كيف صرت إلى حريمي وجفن الليل مكتمل بقار
فقلت له ترفق بي فإني رأيت الصبح من خلل الديار
فكان جوابه أن قال صبح ولا صبح سوى ضوء العقار
وقام إلى العقار فسدّ فاهها فعاد الليل مصبوغ الإزار
وله :

كان يوافيتا رواقدا حولها وزدق سنائير تُدير عيونها
وله :

ترى حينما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا
إذا غب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
أخذه ابن الرومي فقال وأحسن :

ومنهففت تحت محاسنه حتى تجاوزت مئة النفس
وكانه والكأس في فمه قر يقبل عارض الشمس (١)
لجمل الشارب قرا ، وليس ذلك في بيت أبي نواس .
وله :

شككت بزألهما والليل داج فسأل إلى عتيق الظلام (٢)
شبه الحفرة في حمرتها حينما انسكبت من الزق بعد ثقبه بالميزل بالعيوق ،
وهو نجم أحمر مضيء في طرف المجرة .
وله :

فتعزيت بصرف عقار نشأت في حجر أم الزمان

(١) العارض : سفعة الخد .

(٢) الميزال بالضم : موضع الميزل وهو الشق .

فتناساها الجديدان حتى هي أنصاف شطور الدنان^(١)
 فافترعنا مِرَّةَ الظم فيها نَزَقَ البكر ولين العَوان^(٢)
 واحتسبنا من عتيق رقيق وشديد كامن في لِيان
 لم يَحْصِفْهَا مِزَلُ القوم حتى نَجَعَت مثل نجوم السَّنان^(٣)
 أو كغرق السام تنشق عنه شُعَب مثل انفراج البنان^(٤)
 شَمَّها في البتين الأخيرين حين شق دنها عنها ، وأنبثت فصارت شعبا
 بالسنان اللامع ، وعروق الذهب إذا انفرجت انفراج الأصابع .

وله :

من شراب ألد من نظر المعشوق م في وجه عاشق بابتسام
 وله :

وكانها إنعام حُخلة عاشق بالبذل بعد تعشر ومكاس

• • •

وله في وصف الخارات المسيحيات ، ويروى لابن المعتز :
 ونحت زناير شددن عقودها زنايرُ أعكان معاقدها السُرر

• • •

وله في هجاء إبليس :

دب له إبليس فاقصاده والشيخ نفاع على لعنته
 عجبت من إبليس في تيهه وعظم ما أظهر من نخوته

(١) الجديدان : الليل والتمار .

(٢) الانفراج : الانتفاض ، كناية عن أنهم أوله من باشر بها .

(٣) جافة : بلغ جوفه .

(٤) السام : عرق القصب .

تاه على آدم في سجدة وصار قوادا لندريته

• • •

وله في هجاء إسماعيل بن أبي سهل :

خبز إسماعيل كالوشى م إذا ما شقُّ بُرْفا
 عجا من أثر الصنعة م فيه كيف يخفى
 إن رقامك هذا أحذق الأمة كفا
 فإذا ما الصق بالنصف م من الجردق^(١) نصفا
 ألطف الصنعة حتى ماترى مفرز إشنى^(٢)
 مثلا ما جاء من الثور ر ما غادر حرقا
 وله في الماء أيضا عمل أبدع ظرفا
 مزجه العذب بماء البئر م كي يزداد ضمفا
 فهو لا يسقيك منه مثلا يشرب صرفا

• • •

ولأحمد بن يوسف :

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اقتبلناه كسم نافع
 وكانما أثر الدموع بخدنها ظل سقيط فوق ورد يانع
 وقد قال أبو بكر الصولى : هو أول من أفصح عن هذا المعنى^(٣)

• • •

(١) المردق : الرغبة .

(٢) الإشنى : الثقب .

(٣) الأوراق - ١ - ٢٢١ .

وللعباس بن الأحنف :

أحرم منكم بما أقول وقد قال به العاشقون من عشقوا
صرت كاني ذبالة نصبت تُضي للناس ثم تحترق

• • •

ولخاله الكاتب :

بكي عاذل من رحمتي فرحنته وكم مثله من مُسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

• • •

ولأبي - تمام والتشبيه ضمني - :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للكان العالي

• • •

وقوله :

ليس الحجاب بمقص عندك لي أملا إن السماء تُرجئي حين تحجب

• • •

ولابن الرومي :

غدا الدهر يرميني فتدنو سهامه لشخصي وأخلق أن يهين سواديا
وكان كرامي الليل يرمي ولا يرى فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا

ويقول المرتضى في البيت الأخير : إنه أبدع فيه وأغرب ، وما علمت
أنه سبق إلى معناه لأنه جعل الشباب كالليل السار على الإنسان ، الحاجز
بينه وبين من أراد رميه لظلمته ، وجعل الشيب مبديا مقاتله هاديا إلى
إصابته لضوئه وياضه ، وهذا في نهاية الحسن .

وأراد بقوله رماني : أصابني (١).

• • •

وله :

عيني لعينك حين تنظر مقتل لكن لحظك سهم خفف مرسل
ومن العجائب أن معني واحداً هو منك سهم وهو مني مقتل

• • •

وله في العتاب :

توَدَدت حتى لم أدع متوَدداً وأفانيت أفلأسي عتاباً مرُدداً
كأنّي استدعى بك ابن خبيثة إذا ألزع أدناه من الصدر أبعداً (٢)

• • •

وله :

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كانكم شجر الأترج طاب معاً

حملا وتوزوا وطاب الأصل والورق (٣)

وشجر الأترج يضرب مثلاً لما طاب أصله وفرعه وكل شيء فيه ،
وهو أول من شبه به .

• • •

وللبحتري :

(١) أمالي المرتضى ١ - ١٧٣ .

(٢) ابن حنبة : كتابة عن القوس .

(٣) رواية الديوان : طاب البود .

يمشون في زرد كان متونها في كل معركة متون نهاء^(١)
 يبيض نسيل على الكاه نصولها سبيل السراب بقفرة يبداء
 وإذا الأسنة غالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء
 والشاهد في البيت الأخير .

• • •

ولملى بن جبلة :

تكفل ساكن الدنيا حميد فقد أضحت له الدنيا عيالا
 كان أباه آدم كان أوصى إليه أن يعلم فعلا
 ولا بن المعز في طول الليل :
 أقول وقد طال ليل الهموم وقاسيت حزن فؤاد سقيم
 عسى الشمس قد نسخت كوكبا وقد طلعت في عداد النجوم

• • •

وله :

إذا الهلال فارقه ليلته بدالمن يبصره وينعتبه
 كهامة الأسود شابت هامة

• • •

وله :

دمعتي تعلم وجدي واشتياقي فسلها
 لي من ذكراك مرآة أرى وجهك فيها

• • •

(١) نهاء بالكسر : جمع نهى بالكسر والفتح وهو ، الفدير أو شبيهه .

وله في وصف الخمر :

علّٰ عُقَّارًا صَفَرَاءَ تَحْسِبُهَا شَيْئًا بِمَسِّكَ فِي الدِّينِ مَفْتُوتٌ
لِلنَّاءِ فِيهَا كِتَابَةٌ عَجَبٌ كَتَلَ نَقْشٌ فِي فَهْرٍ يَأْقُوتُ

ولابن ماني :

وَكُنَّ صَفْحَةٌ خَدَهُ وَعِذَارُهُ تَفَاحَةٌ رَمَيْتُ لَتَقْتَسِلَ عَقْرَبًا^(١)

وللتنزي :

كَرِيمٌ لَفْظَتِ النَّاسَ لَمَّا لَقِيَتْهُ كَانَهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمٌ^(٢)
وَكَادَ سُرُورِي لَا يَبْقَى بِنْدَامِي عَلَى تَرْكِهِ فِي عَمْرَى الْمُتَقَادِمِ

وله :

أَجَزَنِي إِذَا أَنْشَدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مَرْدَدًا
وَدَعِ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرِ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ الْمُحَكَّمُ وَالْآخِرُ الصَّدَى

وله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عَيْسُونَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادٍ

وله :

وَلَوْ اسْتَطَعْتُ إِذَا اغْتَدْتُ رُؤُوسَهُمْ لَمَنْعْتُ كُلَّ سَحَابَةٍ أَنْ تَقْطُرَا

(١) يرهق بالمقرب : شعر الصدغ المتنوي.

(٢) هذه رواية البليمة وفي الديوان : بلفته .

فإذا السحاب أخو غراب فراقهم جعل الصياح بينهم أن يُمطروا
جعل السحاب أخا غراب الين في التفريق ، لأن صياح المطر : أعنى
سقوط الغيث منه ، كان سببا في ارتحالهم للنجدة ، كما أن صياح الغراب يكون
سببا للفراق :

وله :

فقر الجاهل بلال إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

وله :

كان العيس كانت فوق جفنى مُسناخات فلما مُثرون سالوا^(١)
يريد : كنت لا أبكى قبل فراقهم ، فكانت مطاياهم كانت مسناخة فوق جفنى
تحمس دمه عن الانسكاب ، فلما رحلوا سال دمعى ، فكانها نهضت من
فوق جفنى .

والمعنى فى غاية الدقة ، وقد حكى : أن البيت ترجمه لملك الروم فقال :
ما سمعت بأ كذب من هذا الشاعر !

أرأيت من ينيخ الجمل على عنبه ولا يهلكه^(٢) ؟

وله :

برغم شيب فارق السيف كفه وكانا على العسلات^(٣) يهضمان
كان رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسى وأنت يمانى

(١) العيس : السكرام من الإبل وتكون يضاء تحاطها شفرة ، ويروى : العير .

(٢) المثل الثامن - ١٢٩ .

(٣) العسلات بالسكسر . جمع الأحوال

يريد شيئاً العقيلي وقد خرج على كافور الإخشيدي بدمشق فقتله .
والمعنى : أن رقاب الناس لكثرة قطع شبيب إياها ، أغرت بينه وبين
سيفه لتفرق بينهما حتى تستريح من شره ، فقالت لسيفه : صاحبك من قيس
وأنت منسوب إلى الين فكيف تأتلفان !
والتتافر بين قيس والين معروف ، وبلغ أشده في زمن الأمويين بحكم
سياسة فرق تسد .

• • •

وله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

• • •

وله في وصف الحمى — وقد ذكر أم أعراضها المعروفة في الطب — :
وزائقي كأن بها حياء فليس تزدري إلا في الظلام^(١)
بذلت لها المطارف والحشايا فعاقبتها وباتت في عظامي^(٢)
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما فتوسمه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجاجم^(٣)
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعددها والصدق شر إذا أفاك في الكُرب العظام

• • •

(١) لأن حرارة الحمى ترتفع بالليل خاصة .

(٢) المطارف : الأردنية من الحُر ، والحشايا : القراش المحمو .

(٣) يريد بالأربعة السجاجم : مجاري الدموع من الموقنين والجانحين ، والدمع عادة يجري من الموقنين — وهما مما يلي الأنف — فإذا كثر جرى من الجانحين — وهما مما يلي الصدغ — .

وله - من قصيدة بمدح بها عضد الدولة ويدعو لولديه - :
 فعاشا عيشة القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان
 ولا مَلَكا سوى ملك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان
 وكان ابنا عدو كآراه له يامى حروف أنيسيان^(١)
 يدعو لهما الا يملكا غير ملك الأعداء ، ولا يرثا الا من يقتلانه منهم .
 وهو دعاء ضمنى لآيهما بطول العمر .

ثم يدعو لهما أيضا بأنهما إذا فخرأ عدوا بكثرة العدد ، أن يكون
 ابنا ذلك العدو الذي يقابلهما عنده ، بمنزلة يامى التصغير في لفظ ، أنيسيان ،
 تصغير لإنسان على الشذوذ ، فإن هذه الزيادة زيادة في الاسم فقط ، ونقص
 في المسمى لأنه تصغير تحقير ، فهي زيادة صائرة إلى الخسة والضعف
 والمهانة .

والمعنى دقيق جميل ، ولا عيب فيه إلا أن نسج البيت معقد ، خشن
 السبك ، خال من الرونق الشعرى .

وللفقيه بن قالوص في المقص :
 إعطاء مثلى للمقص نقيضة وأدى إعارتها أجل العار
 إن المقص حكمت بصورة شكلها «لا» والجواد بلا : ثم نجار
 وقال بعض الشعراء في ذمها :
 إن شأن المقص قطع وصال فلماذا بضيع بين الجلوس
 وترى الإبرة التي توصل القطع بعز مغروسة في الرسوم
 يشير إلى عادة الخياطين برشق الإبرة في رسومهم ، كما يضع المكناب
 القلم على آذانهم .

(١) الضمير في له العدو ، ويامى : خبر كان .

وقد أخذه ابن يعقوب فقال :

فاخرت إبرة مقصا فقالت لي فضل عليك باد مسلم
شاكك القطع يا مقص وشائي وصل قطع شتان إن كنت تعلم
ويقول ابن بسام : وقد نهى بعض الظرفاء من الأدباء عن إهداء
المقص واستهداتها .

ثم قال في البيت المتقدم : وهذا من الاختراع والتشبيه المطبوع^(١) .

• • •

وللاختلال الأهوازي في الشقائق :

هذه الشقائق قد أبصرت سمرتها مستشرقات على قضبانها الزائل
كأنها دمة قد مسحت كحلا جالت به وقفة في وجنتي خجيل
إلا أنه كما يقول العسكري : أورده في أهجن معرض ، وفي أشد
ما يكون من التكلف ، وأنى بالمحال لأن الوقفة لا تجول^(٢) .

• • •

وللمصاحب بن عباد في خط العارض والعدار :

قلت وقد قيل بدا شعره بمنزل ذاك الشعر لا بشعر
هل زغب الحسن له ضائر ذا القمر السّم به يُقمر^(٣)

• • •

ولابن عبد ربه - وقد وصف الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم عليه ،
ومعنى بديع لا نظير له - :

(١) الذخيرة - ٢ - ٢٨٥ .

(٢) ديوان المعاني - ٢ - ٢٥ .

(٣) الزغب : أول ما يبدو من الشعر ، وأقر القمر : صار يدور .

وجيش كظهر اليم تنفحه الصبا يعُبُّ عُبَاباً من قنا وقنابل^(١)
فتزل أولاه وليس بنازل وترحل أخراه وليس براحل
ومعترك ضحك تماطت كانه كثر من دماء من كلى ومفاصل
يدبرونها راحا من الراح بينهم يبيض رفاق أو بسمر ذوابل
وتسمعهم أم المنية وسطها غناء صليل البيض تحت المناصل^(٢)

• • •

ولكشاحهم :

فأت وقد أبصرتها حاسرا عن ساقها فاضلُ مربالها
لو لم يكن من برَد ساقها لاحترقت من نار تخلخالها^(٣)

• • •

والعسكري - والتشبيه ضمنى - :

لهيب قلبي أفاض الدمع من بصرى والعود يقطر ماء حين يحترق

• • •

وله يهجو :

وقفت لديكم للسلام عليكم وقوفى على أطلال سلى وعانكة
يروعك نعيم العفاة كأنه بوادر طمن فى الضلوع مُواشكة
وما فيكم حرّ بكرتم ضيفه ولكن إذا ماشاء أكرم نائله
وإن كنتم ناسا - وما أنتم به - فإن القروود والكلاب ملائكة

• • •

(١) القنابل : الصائقة من الخيل .

(٢) أم المنية : كنية الحرب .

(٣) لأن خلخالها من الذهب فله أضعة كأضعة النار .

ولابي العلاء :

وهواك عندي كالغناء لأنه حسن لدى ثقيله وخفيفه
وأبو العلاء أكثر الشعراء ابتكارا للبعاني ، بسلوكه طرائق شتى لم
يسلكوها في الشعر ، أمدته بفيض زاخر من الأفكار الطريفة ، ولم تقف
به عند مناهج المتقدمين في الشعر التقليدي .

* * *

ولابن محمد بن الصقلي في هلال آخر الشهر :

كأنما أدم الظلماء حين نجوا من أشهب الصبح ألقى نعل حافره
وقد وصفه ابن الأثير : بأنه ألقى فيه بما لم يأت غيره ، وأنه من الحسن
واللطف في الغاية القصوى^(١) .

* * *

ولابي بكر الوراق :

بدر له إشراق شمس على غصن سبي قلبي بنوعين
يكاد من لين ومن رقة في خصره ينقد نصفين
إدباره ينسبك إقباله كأنما يمشي بوجهين

* * *

وله في الخمر والكأس :

قم يا غلام فهاهما في كأسها كأجسلانة في جني نسرين^(٢)

(١) اللؤلؤ السائر - ١٢٥ .

(٢) النسرين بالكسر : نور ايض وردى يشبه شجرة شجر الورد ، وسماها بعض الناس
وردا صيفيا .

أو ما رأيت هلال شهرك قد بدا في الأفق مثل شعيرة السكين^(١)
ولبعض المقاربة فيها أيضا :
نقلت زجاجات أتنا 'فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسم تخف بالأرواح
وهذا معنى مبتدع يقول فيه ابن الأثير : إنه يفعل بالعقول فعل الخمر
سكرا ، و يروق كما راقق لطفًا ، و يفرح كما فاحت نشرًا^(٢) .
وللأثر جاني :

رثا لي وقد ساوبته في نحوه خيالي لما لم يكن لي راحم
فدلّس بي حتى طرقت مكانه وأوصمت إني أنه بي عالم
وبقنا ولم يشعر بنا الناس ليلة أنا ساهر في جفنه وهو قائم

ولابن سهل الأندلسي :

كان القلب والسلوان ذهن يحوم عليه معنى مستعيل

والحموي :

وعلى ظهور الخيل ماثو خيفة فكان هاتيك السروج مقابر

وله

(١) شعيرة السكين : حنة تصاغ من فضة أو حديد على شكل الشعيرة ، تكون مساكا

لنصاب النصل .

(٢) النمل السائر — ١٣٠ .

والغصن يحكي النون في مِثْلَانِهِ وخياله في الماء كالثنوين

وللشاعر المعروف بالحافظ في البهار :

عيون تهر كأنما سرقت سوادَ أحداقها من الفسق
فإن دجا ليلاً بظلمته ضممن من خوفها على السرقة^(١)

ولأبي الحسن الأنباري :

كان الشموع وقد أظهرت من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين تضرع تطلب منك الأمانا
ومثله ما حكاه ابن خلكان : من أن المعز بن باديس كان يوماً جالساً
في مجلسه ، وعنده جماعة من الأدباء ، وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم
أن يعملوا فيها شيئاً .

فقال ابن رشيق :

أترجة بسيطة الأطراف ناعمة تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس
فاستحسن منه ذلك ، وفضله على من حضر من الجماعة .

ولابن قلاقس :

زد رفعة إن قيل أفاق م وانخفض إن قيل أرى
كالغصن يدنو ما اكتسى ثمرأ ويتأى ما نعى

(١) السرقة بفتح الراء شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة .

ولشاعر :

ألا يا بافلة الشطرنج م في القيمة والقامة^(١)

• • •

ولآخر :

ولى سنة لم أدر ما سنة الكرى كأن جفوني مسمم والكرى عذل

• • •

ولآخر بصف قدرته على اختراق الحجاب الصعب :

كالطيف يأتي دخول الجفن مفتوحاً وليس يدخله إلا إذا انطبقتا

• • •

ولبعض المغاربة :

• • •

غدرت به زرق الأسنه بعدما قد كن طوع بيمينه وشماله
فليعذر البدر المتبر نجومه إذ بان غدر مثالها بمثاله

• • •

ولشوقي :

ومصر كالكرم ذي الإحسان فأكمة لحاضرين وأكوابا لباديننا

• • •

وله في شعر شكبير :

من كل بيت كآي الله مسكنه حقيقة من خيال الشعر غراء

(١) بافلة الشطرنج : يعبه بها القصور الدنيء السافل .

وكل معنى كعيسى في محاسنه جاءت به من بنات الشعر عنده

• • •

والرصاصي^(١) - يصف قصر البحر في بيروت :-

كان المواج في الدأما رجال وهذا القصر بينهم خطيب^(٢)
تخاطبهم مبادئه فيملو من الامواج تصفيق رجب

• • •

وله في وصف الشمس والشفق :

يحكي دم المظلول مازج أدما حملت بها عين اليتيم معولا
رقت أعالیه وأسفله الذي في الأفق أشبه عصفرا محلولا^(٣)
كالنود ظلت يوم ودع الفضا ترنو وترفع خلفه المنديلا

• • •

وله يشكو :

كان نجم السما أديب في أرض بغداد ذو نوا
كانما أنجم الثريا في شكلها البامر الضياء
فغاز كف به فصوص من حجر الماس ذي الصفاء

• • •

وله في رثاء أستاذه محمود شكري الألوسي :

أما العراق فأمسى الرافدان به سطرين للدمع في خديبه قد مالا^(٤)

(١) كتاب معروف الرصافي في ١٦٢ .

(٢) الدأما : البحر .

(٣) العصفرا بالضم : زهر القرم .

(٤) الرافدان : دجلة والفرات .

وللشاعر القروي^(١) رشيد سليم خوري - يصف الشعرة البيضاء - :
كأن الشعور السود أعصر ظنة بدا بينها عصر أغر مجيد
كأن سواد القود حيرة جاهل تصدى لها رأى أجل مديد
تجلت على عرش الشباب كسيد حوالبه من سود الشعور عبيد
وقوله :

يربكم إبانى أن « روتله » والدى وما ملكت كفاى من ماله شروى
وأبدى وفائى قبل صنع جميلكم كأن وفائى فى محبتكم رشوى
وقوله - يصف المقلة والنهد - :

فكان مقلتها وبارز نهدها متواضع ينو إلى متكبر
وقوله :

هم يزول بمثله والشوك ينزع بالإبر

وقوله :

وكان النجوم شمره بديع لا شموض فيه ولا إلهام
وقوله :

وأعود بين تلفت وتطلع والليل جسر بين أمسى والقد
هذا يقتضينا الإنصاف أن نصرح بأن شعراء المهجر فى الدنيا الجديدة
من سوريين ولبنانيين ، تكثروا فى أشعارهم صور البيان المبتكرة على اختلاف
ألوانها ، وهذا شىء طيبى لأن التقلب فى البلاد والضرب فى رحمة الناس ،
يفتح للشاعر آفاقا جديدة ، ويتيح له رؤية مناظر جديدة ، والوقوف على
عادات وأخلاق جديدة ، ويخرجه من حالة الركود والجمود التى يعيش فيها

(١) من ديوان القروي المطبوع بالبرازيل .

إلى حياة فيها خصب وقوة وقلق وتوئب وانبعاث ، هذا إلى ما نذكركه الغربية
في نفسه من حنين لا يفتقر إلى وطنه الأصلي ، وشوق عارم إلى رؤية الأهل
والأصدقاء ، وما آلف الأحباب ، ومعاهد الطفولة ، ومراتب الصبوة والغرام
وكما يكون الاختراع في الشعر يكون في النثر ، فمن ذلك : أن عبد الملك
ابن مروان ، بنى بابا من أبواب المسجد الأقصى بيت المقدس ، وبنى الحجاج
بابا إلى جانبه لجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك ، فتطير
لذلك وشقّ عليه .

فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه يقول : بلغني كذا وكذا ، فليهن
أمير المؤمنين أن الله تقبل منه ، وما مثله ومثلي إلا كائني آدم إذ قرّبا
قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر^(١) .
فلما وقف عبد الملك على كتابه سرى عنه .

وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم^(٢) .
هذه نذ من ابتكار الشعراء في عصور مختلفة استخرجناها من مظانها ،
وأكثرها مما وقع عليه إجماع النقاد .

ويجب أن يعرف أن الابتكار ليس حتما على الشاعر وإن حسن
وقوعه منه ؛ لأن وظيفة الشاعر التي خلق لها أن يحشد آلامنا وآمالنا ،
ويترجم أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا وكل ما يعتلج في صدورنا ، ويمتليج
في نفوسنا بما نحسه في داخلنا ، ونعجز عن الإعراب عنه ؛ انقصر أداتنا
وضيق وعائنا ، فالشاعر مرآة صقيلة لعصره ، وبوق أمين للمجتمع ، لحسبه
أن ينقل صورة العصر ، ويتحدث بصوت المجتمع ، وهذا شيء ليس
بالقليل .

(١) يشير إلى قصة هابيل وقابيل المشهورة .

(٢) التل السائر — ١٢٧ .

والشاعر الكبير يشيد المعابد الضخمة ، ويبني الهياكل الرائعة والجواسق الجميلة ، ولكن ليس عليه استحضار الأحجار وجلب الصخور ، ونحتها وصقلها وإعدادها للبناء ، ولا بأس أن نستورد له الأعمدة وسائر ما يلزمه في إقامة أبيته الفنية ، وتشيد صروحها الخالدة .

والشاعر الحق ينتفع من مجرودات العالم ، ويستثمر الأفكار التي يصل إليها الفيلسوف عن طريق التجريد ، ويبعث فيها الموسيقى الساحرة ، ويسبح عليها الجمال الفني الرائع . وليس على الشاعر ابتكار أفكار العصر وخلقها وإنما هو من عمل الفيلسوف والعالم ، وعلى الشاعر التغني بتلك الأفكار وأن يشمر ويشمر بها^(١) .

ولاشك أن الاختراع في صور البيان يختلف باختلاف العصور وحظها من انتشار الثقافة وتقدم المعارف ، ورقى العقول والأفكار ، واستبحار الحضارة والمدنية .

وقد اعترف ابن رشيق : بأن عصره — وهو القرن الخامس الهجري — كان قليل النصيب من الاختراع ، فسمعته يقول : وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتوَّله ، غير أن ذلك قليل في هذا الوقت^(٢) .

وقد تعصب ابن أفلح البغدادي للمحدثين فذكر في مقدمته : أن المعاني المبتدعة ليس للعرب منها شيء ، وإنما اختص بها المحدثون .

ثم ذكر معاني المحدثين وقال : هذا المعنى لفلان وهو غريب ، وهذا القول لفلان وهو غريب .

وقد رد عليه ابن الأثير : بأن تلك الأقوال التي خص قائلها بأنهم ابتدعوها قد سبقوا إليها ، وأنه فيما ذهب إليه إما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يقف على أقوال الناطلين والناثرين ، وطريقة

(١) على هامش الأدب والنقد — ١٢٧ .

(٢) السدة — ١ — ١٢٦ .

نحريها حتى يعرف ما قاله المتقدم مما قاله المتأخر .

ثم يقول : وأما قوله : إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين ،
فيالبت شعري من السابق إلى المعاني ؛ من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه ؟
ثم ساق أمثالا للعرب فسج على منوالها المحدثون ، واستدل على فساد
ماذهب إليه ابن أفلح : بأن أول من بكى الديار في شعره ابن حزام
باعترا ف امرئ القيس ، وأن لامرئ القيس في صفات الفرس أشياء
كثيرة لم يسبق إليها ولا قبلت من قبله .

ثم يقول : ولو قال ابن أفلح : إن المحدثين أكثر ابتداءا للمعاني والطف
ماخذاً ، وأدق نظراً لكان صواباً ، لأن المحدثين عفا ثم الملك الإسلامي
في زمانهم ، ورأوا ما لم يره المتقدمون^(١) .

ولا شك أن ابن أفلح قد تطرف جداً في رأيه ، ولا أدري كيف يصدر
هذا من حصيف مثله ، وكيف يعقل أن نجرد جيلاً كاملاً من الناس من
الابتكار ولو في أدنى درجاته ، ولا سيما إذا كان هذا الجيل قد أخذنا عنه
لغته بجميع خصائصها .

الفصل الخامس

التشبيهات القبيحة

يعرض القبح للتشبيه كما يعرض لغيره من صور البيان ، فتشيل درجته في ميزان البلاغة ، ويوصف قدره بالضعف والشَّفَال .

وبما يلاحظ أن التشبيه بين ألوان البلاغة ممعن في الترف ، كثير الأناقة شديد الحساسية ، رقيق المزاج ، ومن أجل ذلك يظهر فيه العيب الطفيف وتبين عليه الهجعة الخفية .

وأريد بالفتح هنا ما يعرض للتشبيه من مثالب ، لا تصل إلى درجة الخطأ الذي أفردنا له باباً خاصاً .

وهذا القبح أنواع كثيرة ، يرجع بعضها إلى الألفاظ المفردة ، وبعضها إلى الصياغة والسبك ، وبعضها إلى المعنى ، وبعضها إلى الخيال ، إلى غير ذلك مما يضع من شأن الكلام ، ويبعده عن الوصف بالبلاغة .

فن ذلك قول امرئ القيس :

وَسِنْ كُسْنَيْبِقِ سِنَاءٍ وَسُسْتَا كَعَرَتْ بِمَدْلَاجِ الْمَجِيرِ نَهْوَضِ

نقل الباقلاني : أن الأصمعي قال : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم .

وقال بعضهم : السنيق : أكمة .

وقال الخفاجي : لم يعرفه الأصمعي ولا أبو عمرو وقال : هو بيت مسجدي : يريد من عمل أهل المسجد .

وقال غيرهما : سنيق : جبل ، وسنم : هي البقرة ، فأما السن فهو الثور (١) .

• • •

وقوله :

فظل العذاري يرمن بلحمها وشحم كهدآب الدّمقس المقتل
عابه الباقلائي : بأنه عرف اللحم ونكسر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها .
وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع ، وعجز عن تشبيه القسمّة الأولى
فمرت مرسله .

وهذا نقص في الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه .
وفيه شيء آخر ، وهو أنه وصف طعامه الذي أطعم من أضاف بالجودة
وهذا قد يعاب .

وقد يقال : إن العرب تفخر بذلك ولا يروونه عيباً ، وإنما الفر من
هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدمقس ، فشيء يقع للعامة ويجري على ألسنتهم ،
فليس بشيء قد سبق إليه ، وإنما أراد « المقتل » للقافية وهذا مفيد .

ومع ذلك فليست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعد أهل الصنعة
ذلك من البديع ورأوه قريباً .

وفيه شيء آخر ، وهو أن تبجّحه بما أطعم للأضياف مذموم ، وإن
سوغ التبجح بما أطعم للأضياف ، إلا أن يورد الكلام مورد المجهول ، وعلى
طريقة أبي نواس في المزاح والمداعبة (٢) .

• • •

(١) أسرار الفصاحة — ٦٦ .

(٢) إعجاز القرآن — ١٢٥ ، ١٢٠ .

وقول بشر بن أبي حازم :

وجر الرامسات بهذا ذيو لا كان شمالها بعد الدبور^(١)
رماد بين أظفار ثلاث كما وشم النواشر بالنشور^(٢)
شبه ريح الشمال والغرب بالرماد ، والبعد والانهام فيه لا يخفى .

• • •

وقول عامر بن معشر بن أسحيم — يصف أسيراً أسروه — :

فظل يُخالس المذاقات فينا يُفاد كانه جمل رقيق
وقد عابه الأصمى وغيره .

وذلك أنه وصف أسيرهم بأنه جائع بخالس القليل الممدوق من اللبن ،
ولمّا ذلك من الجهد^(٣) .

• • •

وقول علقمة بن عبدة :

كانهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطير من ديب

• • •

وقوله :

يحملن أترجة نضج العير بها كان تطيبها في الأنف مشعوم
وقد وصف المرزبان هذه الآيات بأنها مستكرهة الألفاظ ، فافقه
القوافي ، رديئة النسيج ، فليست تسلم من عيب يلحقها في حشوها أو قوافيها
أو ألفاظها أو معانيها^(٤) .

(١) الرامسات : الرياح تخبث التراب ، والدبور : الريح تهب من الغرب .

(٢) الأظفار : ريد بهذا الأثافي ، والنواشر : عروق وهصب بامان القراع ، النشور

كصبور : النبذج .

(٣) المدة — ٢ — ١١٧ .

(٤) الموضع — ٩٠ — ٩١ .

وقول زهير - يصف صفراً يطارد قطاة - :

غزلٌ عنها ورواني رأس مرقبة

كنصب العتر دمي رأسه الشك^(١)

• • •

وقول خفاف بن ثدبة :

أبني لها التعداد من عتداتها ومتونها كخيوط الكنان^(٢)

يريد أن قوائمها دقت حتى عادت كخيوط الكنان .

وأراد ضلوعها فقال : متونها .

• • •

وقول أوس بن حجر في الناقة :

كان مرا جنيا عند غرضتها والنف ديك برجلها وخزير^(٣)

يقول : كان مرا مقوداً عند صفحة خدها يחדشها فتغد في السير .

وكان ديكاً وخزيراً التفتاً برجلها ، فهي من خوفها تمن في الإرقال .

وفي معنى الشطر الأول يقول عنترة :

مر جنيب كاعسا عطف له غضي اتقاها باليدين وبالفم

يصفها بأنها تتحنن وتتباعد غضي ، خوف سنور مجنوب إليها ، فكلاما

عطف إليه غضي لنعضه ، استقبلها بالحدش يده والعض بضمه .

• • •

(١) زل عنها . أي سقط الصفر عن القطة ، والرفقة : المسكان المرتفع ينظر منه الرقيب .
والنصب كبير : أصل الشيء ، والعتر بالعكس ، الصم وكل ما ذبح ، وشاة كانوا يذبحونها
لأهلهم كالعنبرة ، والفك بالضم : الدم .

(٢) التعداد : العدو ، والعتدات : القوائم .

(٣) الغرضة بالضم : حزام الرجل ، والجنيب : النود .

وقول لييد :

ما عائب الحرَّ الكريم كاصله والمرء يصلحه المجلس الصالح
وقد قالوا فيه : إنه جيد المعنى والسبك ، ولكنه قليل الروق والماء .

• • •

وقوله بصف الدرع :

نخمة ذرءا تررتى بالعُسرا قَرْدُمَانِيَا وَتَرْتَا كَالْبَصْلِ^(١)
وهذا البيت معقد ثقيل ؛ لنقل بعض كلماته عن الفارسية^(٢) .

• • •

وقول النابغة :

تَخْدِي بِهِمْ أَدَمَ كَانَ رَحَالُهَا عَمَلَقُ أَرِيْقَ عَلَى مَتُونِ صَوَارِ^(٣)
شبه رحال الإبل في حمرتها بلون دم مراق على ظهور بقر الوحش .
وقد عده أبو الحسن بن طباطبا من التشبيهات البديعة التي لم يلفظ
أحداها فيها ، ولم يخرج كلامهم في العبارة مخرجا سلتا^(٤) .

• • •

وقوله :

نظرت إليك بحاجة لم نفعنها نظر السقيم إلى وجوه العُود

(١) تررتى : تشد إلى فوق لتفشم عن لابسها ، وقرْدُمَانِيَا : سلاح معد كانت الأكامرة
تدخره في خزائنها ، وأصله بالفارسية « كَرْدَمَانْد » ، ومعناه : حمل وثق وهي الفروع
الغليظة ، والترك : البيض من الحديد جمع تركة ، والبصل يشبه به الترك المحدد الوسط .

(٢) الموشح — ٨٧ — المديح في اللغة الفارسية — ٩٨ — لسان العرب مادة أرق وتررتى :

(٣) الأدمة في الإبل : لون مشرب سواداً أبيضاً أو هو البياض الواضح ، والعلق
محركة : آدم ، والصوار بالفم والكسر : القطيع من البقر الوحشى .

(٤) الموشح — ٨٦ .

وقد عابه الأصمى بين يدي الرشيد^(١) ، على أنه تشبيه لا يلحق ولا يشق
غبار صاحبه .

ولم يجد المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوب به ،
وفضل عليه قول عدى بن الرقاع :

وكانها وسط النساء أعارها عيذه أحور من جآذر جامم
وسنان أفصده النعاس فرنقت في عينه ريسنة وليس بنائم
وقد عدّه أبو عمرو أحسن ما قيل في العيون^(٢) .

ولست مع الأصمى في ذلك ؛ لأن نظرات السقيم إلى وجوه عانديه
الأصحاء مملوءة بالذل والخسرة والتوسل والانكسار والسهوم ، فشبّه بها
نظرات العيون السقيمة من غير سقم ، بما حكّت به من سحر وفنون وذبول
وقد جاء وصفها بأكثر من ذلك في قول المكوّك :

وتخالها وسنى إذا نظرت أو مدتفا لما يُفنى بعد
بفتور عين ما بها رمد وبها تُداوى الأعين الرمد
وقول آخر :

يسقيها غنى الألفاظ ذوهيف كأن أجفانه أفرق من داء^(٣)
فقد صور الأجفان لشدة ذبولها وفقرتها ، كأنها قريبة عهد بالشفاء
من الرمد .

وقد ذكر القالى^(٤) : أن من أحسن ما قيل في فتور الطرف قول
أبي نواس :

(١) الممدّ — ١ — ٢٠٥ .

(٢) ديوان المقاتي — ١ — ٢٣٥ .

(٣) أفرق : يرى وأفق .

(٤) الأمل — ١ — ١٣١ .

ضعيفة كرم الطرف تحسب أنها قرية عهد بالإفاقة من سقم
والحق أن تشبيه النابغة لا يعاب ، فإن قصده أن يبالغ في تصوير
ما تضمنت جفونها من الذبول والانكسار والفتور ، وهو من سمات
العيون الفتاة الساحرة للألباب

وقد جرى الشعراء على ذلك قديماً وحديثاً ، وما من شك في أن هذه
الفترة تتجلى في نظر السقيم إلى وجوه عواده ، لأن نظرتهم إذ ذلك يشوبها
التأسف والتحسر على ما هو فيه ، حين يزن حاله بحال الأصحاء الذين
يحفسون بفراشه ، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ،
فكأنه يقول : إن فنور عينها بلغ الغاية التي لا غاية وراءها !
وقد خالف ابن قتيبة الأصمعي فيما ذهب إليه ؛ وعده بيت النابغة فيما
يستجد له .

وفسر البيت : بأنها نظرت إليك ولم تقدر أن تكلمك ، كما ينظر
المريض إلى وجوه عواده ، ولا يقدر أن يكلمهم^(١) .
ومن الغريب أن الأصمعي كان يروي وينشد قول بشر بن عبد الرحمن
الأنصاري :

وقصيرة الأيام ودة جلوسها لو باع مجلسها بفقد حميم
من محذبات أخي الهوى غصص الجوى

بدلال غانية ومقلة ريم^(٢)

صفراء من بقر الجواء كأنما خفسر الحياء بها رُداعُ سقيم^(٣)
فيا ليت شعري لم أعجب برداع السقيم — وهو تغير لونه من المرض —

(١) الشعر والشعراء — ١٨ .

(٢) محذبات : مطبات .

(٣) الرُداع كمراب : أثر الطيب والتغير من المرض .

(م — ٩ فن التشبيه)

فتشبه به لون هذه المحبوبة ، مع أن نظر السقيم أقرب إلى القبول من لون السقيم

وقوله للنعمان :

واحكم حكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد التَّشَمُّد^(١)
عابوه : بأنه أمره أن يحكم حكم امرأة .

ولست أرى ما رأوه عيباً ، فلا يصح أن يعاب حكم ؛ لأن صاحبه امرأة
لأن العبرة بالصواب ، وقد نصيب امرأة ويخطئ رجل كما قال عمر .

ثم إن المرأة هنا زرقاء النجاسة التى عرفت بحدة البصر ، وصار اسمها علما
على النظر الناقد الذى يرى البعيد قريباً ، فلا يخطئ صاحبه فى الحكم
حتى قيل :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام
وحذام هى : زرقاء النجاسة

فهى ليست ككل امرأة بل امرأة ممتازة ، وفى مثاها يقول المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيت لاسم الشمس عيب ولا التذكير نحر للهِلال

وقوله يضرع للنعمان :

خطاطيف حُجَين فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع^(٢)
يقول قدادة فى معناه : ضاقت على الدنيا فكأنى من ضيقها فى بشر ،

(١) فى الميسون للجاحظ ، وفى الصنائع شراع بالعين : أى جمجمة داخلية فى المساء ،
والشد بإسكان الميم وبحرك الماء القليل .

(٢) الخطاطيف : جمع خطاف بالضم ، وهو حديدة مموجة يخطف بها الشيء ، وحجین :
مموجة ، ونوازع : منجذبة .

فإذا أردتني وأمرت بسوقى إليك ، فأنا أمد إليك بالخطاطيف لا أجد غيرك^(١) .

وقال أبو محمد : رأيت علماءنا يستجدون معناه ، ولست أرى الفاظه جياداً ولا مينة لمعناه ؛ لأنه أراد : أنت في قدرتك على الخطاطيف عطف يمد بها ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف .

ثم يقول : وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى جيداً^(٢) .

وذكر ابن عبد ربه : أنه شبه نفسه بالدلو ، وشبه النعمان بخطاطيف الحجن : يريد خطاطيف معوجة تمد بها الدلو^(٣) .

ويقول الدكتور مندور : يحتم وقوعه المحتوم في يد الملك الذي أوعده ، وقد نظر حوله فرأى الدلو معلقة بالخطاطيف الحجن لا يستطيع منها إفلاتاً ، وما على المالح إلا أن يجذبها لتأنيته ، تخفت قريحته إلى تشبهه موقفه من النعمان بهذه الدلو^(٤) .

ولا شك في تخالف المعنى الذي أراده قدامة وأراده غيره .

وقول أعرابي يصف رأس غيره^(٥) :

رأى شئون رأسه العواردا مضبورة إلى شياً حدائدا

ضبراً براطيل إلى جلامدا^(٦)

وفي ذلك يقول أحمد بن عبيد الله بن عمار : قد سلك قوم من الأعراب

(١) قد الشعر — ٨٦ .

(٢) الشعر والشعراء — ٩ .

(٣) المقد القريد — ٢ — ١٣١ .

(٤) النقد المنهجي — ٦٧ .

(٥) نسبة القاموس إلى جبل مولى بن فزارة .

(٦) شئون الرأس : موصل قبائلها والعواردا : المنقبذة أو النابضة ، والمضبورة : المجموعة ، والبراطيل هنا : حجارة أو حدائد طوال صلاب خلقة تنقر بها الرمح .

الزلل والخطأ في أشعارهم مع رقة أذهانهم ، وصحة قرائنهم ، واقتدارهم على غريب الكلام .

ثم قال مشيراً إلى الشعر السابق : وما رأيت عالماً إلا وهو يذم هذا القول ، ويستقبح هذا النسب^(١) .

• • •

وقول النشاح :

تخامص عن برد الوشاح إذا مشيت

تخامص حافي الخيل في الأمعر الوجي^(٢)

يريد : تتخامص إذا مشيت عن برد الوشاح ، تخامص حافي الخيل الوجي في الأمعر .

فقدم وأخر .

• • •

وقول أبي حبة الغيمري في رسوم الدار :

كما خط الكتاب بكف يوما يهودى يقارب أو يزيل

أراد : كما خط الكتاب بكف يهودى يقارب أو يزيل : أى يقارب الكتابة : بينها ، أو يزيلها : يباعدها .

• • •

وقول امرأة من بنى قيس :

هما أخوا في الحرب من لا أخاله إذا خاف يوما نبوة ودعاهما

تريد هما أخوا من لا أخاله في الحرب .

(١) الموشح — ٤٤٣ .

(٢) تخامص : تتجافى . والأمعر : المكان الملبس الكثير الحصى ، والوجي : المصاب بالوجي ، وهو رقة القدم والحافر والفرسن والمجابهة .

وقول الفرزدق - يمدح إبراهيم بن هشام الخزوي ، خال هشام بن عبد الملك - :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه
في هذا البيت من التقديم والتأخير ما أحال معناه وأفسد إعرابه ؛
لأن مقصوده : وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه .
وترجمة الكلام : لا يوجد في الناس أحد يشبه هذا الممدوح ، إلا الخليفة
هشام الذي أبو أمه - أي جده - أب هذا الممدوح ؛
فالضمير في ، أمه ، للملك هشام ، وفي ، أبوه ، الممدوح ، وهو إبراهيم
خال هشام .

فصل بين ، أبو أمه ، وهو مبتدأ ، و « أبوه » وهو خبره ، بأجنبي
عنه وهو « حتى » .

وكذا فصل « حتى » و « يقاربه » وهو نعته بأجنبي وهو « أبوه » .
وقدم المستثنى على المستثنى منه لجاء كما ترى في غاية التعقيد ؛
وفيه بقول الرماني : قد اجتمع في البيت أسباب الإشكال الثلاثة :
سوء الترتيب ، وبه تغير نظام الكلام ، وسلوك الطريق الأبعد في قوله :
« أبو أمه أبوه » وكان يجوز أن يقول : خاله وإيقاع مشترك اللفاظ
في قوله ، حتى ، لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان
بالحياة ؛

* * *

وقوله :

فليست خراسان التي كان خالد بها أسدا إذ كان سيفاً أميرها
فإن جماعة من النحويين قالوا : إنه يمدح خالداً ويذم أسداً ، وقد كانا
واليين بخراسان ، وخالد قبل أسد .

وتقدير البيت : فلبست خراسان بالبلدة التي كان خالد فيها سيفاً إذ كان
أسد أميرها .

ويكون رفع « أسد » بكان الثانية ، وأميرها نعت له ، و « كان »
في معنى وقع ، أو يكون في كان ضمير الشأن والقصة ، ويكون أسد وأميرها
مبتدأ وخبراً في موضع خبر الضمير .

وقال أبو سعيد السيرافي : إن تقدير البيت عنده أن يجعل « أسد »
بدلاً من خالد ، ويجعله هو ، خالد ، على سبيل التشبيه له بالأسد ، فكأنه
قال : فلبست خراسان التي كان بها أسد إذ كان سيفاً أميرها ، ويجعل « سيفاً »
خبراً لكان الثانية ويجعل « أميرها » اسمها .

وعلى كلا التأويلين فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ، ووضع
الالفاظ في غير موضعها .

والفرزدق أكثر الشعراء استعمالاً للمعاطلة والتعقيد ، حتى كان يعتمد
ويقصده ليعجب النحويين وإن غاظ الأدباء .

وقوله : يهجو ابن هبيرة الفزارى وإلى العراق في عهد يزيد بن
عبد الملك :

أمير المؤمنين وأنت برّ حلیم لست بالجشمع الحرير
أوليت العراق ورافدينه فزارياً أحذّ يد القميص^(١)
قال الشهاب الخفاجي : أحذّ يد القميص : يكنى به عن السرقه ، واليد ،
استعارة .

ثم قال . ذكر ابن المكرم في كتابه الكناية وفي شرح ديوان

(١) الرعدان : دجّة والغرات أسكنة الانقاع بهما ، وفي البيت روايات أخرى .

الفرزدق : أنه أراد أخذ اليد كما يقال : خفيف اليد السارق ، فاضطر إلى ذكر القميص^(١) .

والحق أن كلمة القميص هنا ، ليست فضلة اضطر إليها الشاعر ، وإنما وقعت موقعا أصيلا تقتضيه البلاغة .

وقد قال الثعالبى : فإن كان خفيف اليد فى الطرء والمرقة قالوا : هو أخذ يد القميص .

ويد القميص هو الكم ، والسارق يقص كنهه ويخففه ؛ ليكون أقدر على عمله ، ثم أورد بيت الفرزدق^(٢) .

وقال القاضى الجرجاني : أخذ يد القميص : كناية عن المارقة والخيانة ؛ مأخوذ من الحنذ وهو الخفة .

ومعناه : أن كنه قصير ؛ فيده بادية للأخذ والخيانة .

ثم قال ويحتمل أن يكون كناية عن الدناءة والحسنة وترك الهمة ؛ لأن أدوان الناس أكلهم قصيرة ، وأكثرهم يلبسون الصدور^(٣) .

...

وقوله :

وإن تمبها كلها غير إسعدها زعانف لولا عز سعت لذات
فقد وضع من قبيلته كلها وهجاء بهذا القول ، وإن مدح قومه الأدين .

...

وقوله :

وأصبح مبيض الضريب كأنه على سروات البيت قطن مندوف
فندف من الألفاظ المبتدلة .

(١) شفاء القليل - ٢٩ - ٧٧ .

(٢) الكنايات - ٤٠ .

(٣) كنايات الأدباء - ٧٤ .

وقول بعضهم :

فأصبحت بعد خطي بها كآن قفرا رسومها قلنا

يريد : فأصبحت بعد بهجتها قفرا كآن قلنا خط رسومها

وعندي أن هذا البيت مصنوع عن قصد ؛ لأن رداة تركيبه ، وشدة
معاظنه ، وسوء نسجه لا يمكن أن تحدث إلا بإعمال الفكر والروية ،
واستنفاد الجهد في صوغه على هذا النهج الغريب .

• • •

وقول ذي الرمة :

كآن أصوات من إيفالهن بنا أواخر الميس أصوات الفراريج^(١)

يريد : كآن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيفالهن بنا .

• • •

وقوله في وصف الثور :

كأنه كوكب في إثر عفسرية مسوم في سواد الليل منقضب^(٢)

أنشده الرماني ثم قال : قد اجتمع النور والكوكب في السرعة ، إلا أن
انقضاض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه .

ويقول ابن رشيق : وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر ، وإغفالا من
الشيخ المفسر ؛ وذلك أن الثور مطلوب والكوكب طالب ، فشبه به
في السرعة والياض ، ولو شبهه بالعفريت ، وشبه الكلب وراة
بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذي أراده
من فوت الثور الذي شبه به راحلته .

(١) الميس : شجر عظام ، وضرب من الكروم ، والبيختر ، والفراريج : أفراخ الدجاج .

(٢) منقضب : منقطع من مكانه .

وأما ما أغفله الشيخ فإن الشاعر إنما رغب في تشبيه الثور بالكوكب
واحتمل عكس التشبيه — بأن جعل المطلوب طالباً — لبياضه ، فإن الثور
يلحق ^(١) لا محالة .

وأما السرعة التي زعم ، فإن العفريت لو وصفه به وشبهه بسرعته لما
كان مقصراً ولا متوسطاً بل فوق ذلك ^(٢) .

• • •

وقول جرير :

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
تجرى السواك على أغرة كاه برد تحذر من متون غمام
فليتبه إذ كان طردها ما وصفها ، فالارتباط مفقود بين البيتين .

• • •

وقول الأختل :

قد كنت أحسبه قبيحاً وأنبؤه فالיום طير عن أثابه الشر
مدح به رجلا من بني أسد كان قد أجاره ، وكان يقال لقوم الرجل :
القيون ، ويعبرون بذلك .

والمعنى : فالיום نفي ذلك عن نفسه ، أي صفة القيون .

فازاد أن نبه عليه ، وقد كان له في المادح متسع ^(٣) .

وقد قال له الرجل — وكان — بدعي سماكا — يا أختل ، أردت مدحي
فهجوئي ا كان الناس يقولون قولا لحقفته ^(٤) .

• • •

(١) اللهق كعذر : الأبيض .

(٢) العمدة ١ — ٢٠٦ .

(٣) الموازنة — ٣٩ .

(٤) سر الفصاحة — ٢٤٦ .

وقوله - يخاطب عبد الملك في شأن زفر بن الحارث - :
بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنا زُفر
يظل مفترشا كالإيث كاسكه لوقعة كائن فيها لها جزر
فأراد أن يضع منه فرفعه حتى خوف منه .

• • •

وقول رثبة في نساء :

يُكسبن من لبن الشباب نيبا
والنيم : الفرو الخفاق ، وهو على غرابة لفظه ، يستعجن تشبيه أجسام
النساء به في اللين والنعومة ؛ لأن الفرو لا يخلو من خشونة ، وبخاصة أنه
لم ينص على نوعه كفرو سمورة مثلا ، وما الظن بعد هذا إذا كان
فروا بالياً !

وقد قال غيره : لها بشر مثل الحرير . . .
فأجاد وأصاب .

• • •

وقول العسرجي :

وأشرب جلدي حبها ومثني به كشي حبتا الكأس في جلد شارب
بدب هواها في عظامي وحبا كما دب في المسوع سم المقارب
فتشبه ديب الهوى في العظام ، بدبيب السم في المسوع غابة في البشاعة !
وهذا التصوير للحب لا يدل على الحب !

• • •

وقول كثير :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جنتجائها وعرارها (١)

(١) الجنتجات : نهت والعرار : بهار البر .

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالسندل الرطب نارها
وقد قيل : لو أن زنجية تبخّرت بمندل رطب لكانت أردانها طيبة !

...

وقوله :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين^(١)
وقد أنشده بشاراً فضحك ! وقال : قد أبو صخر ! جعلها عصا ثم
يعتذر لها ! والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لكان قد أساء !
ألا قال كما قلت :

ويضياء المدامع من معدّ كان حديثها ثمر الجنسان
إذا قامت لسبحتها^(٢) تفتت كان عظامها من خيزران
ينسبك المني نظر إليها ويصرف وجهها وجه الزمان
ورواية المرتضى :

وحوراء المدامع من معدّ كان قوامها ثمر الجنسان
وتشبه القوام بالثمر غريب .

ورواية العفد الفريد : إذا قامت لحاجتها ، وهو أجود .

وفي رواية الأصمعي : أن رجلاً أنشد بشاراً قول الشاعر :

وقد جعل الأعداء ينفصوننا ونطمع فينا السن وعبون
ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال بشار : والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لما كان إلا غطائاً مع
ذكر العصا ، ألا قال كما قلت :

ويضياء المهاجر من معدّ الآيات السابقة .

(١) الخيزرانة : كل غصن لين يثقل .

(٢) السبعة : صلاة الطلوع .

ومما يلاحظ أن بشاراً أكثر من الوصف بالخيزرانة ، فن ذلك قوله
عن مقطوعة — يصف فيها مغنية وصفا بارعا — :

لعمري أبي زورارها الصَّيِّد إنهم لفي منظر منها وحسن سماع
"نصلي" لها آذاننا وعيوننا إذا ما التقينا والقلوب دواعي
وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش بيؤس ولم تركب مطية راعي
إذا فلتت أطرافها العود زلزلت قلوبا دعاها للوساوس داعي
كانهم في جنة قد تلاحقت محاسنها من روضة وبقاع
يروحون من تغريدها وحديثها نساوى ومائسقيهم بصواع^(١)
لعوب بألباب الرجال وإن دنت أطيع التقي والفى غير مطاع
فليس القبح فيما مضى يرجع إلى التشبيه بالخيزرانة ، لأن الخيزرانة كل
غصن لين ينثني ، وهو وصف جميل للقوام ، وإنما القبح جاء من ذكر العصا
التي توحى بمعاني اليأس والجساسة والفاظ ، لا اللين واللذونة والركة .

...

وقول أبي عدي القرشي :

نحن الروموس وما الروموس إذا سمعت في المجد للأقوام كالآذنان
فقوله : ، للأقوام ، حشو لا منفعة فيه .

...

(١) الصواع بالضم : المسكيات ، ومعناه عند علي بن حارون : إذا غنت شربوا بزائفا
بلا كيل ولا وزن من حسن ما يسمعون .

وقال المرتضى : هذا خطأ منه ، وإنما أراد أن غناها بفرط حسنه وشدة إطرابه يليان
نشوة الخمر : وإن لم يكن هناك شرب بصواع .

ثم يقول : وما كان عدي : أن أحداً يتوهم في معنى هذا البيت ما ظنه هذا الرجل .

وقوله :

يابن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيث الجنود
فليس غيث الجنود مقابلاً لزين الدنيا ولا موافقاً ، فالتقسيم هنا غير
مستقيم .

ومثله قول ابن المعتز .

أرى ليلاً من الشعر على شمس من الناس
والجمع بين الليل والناس رديء ، وقد وقع هنا بارداً .

وبالحق به فساد التفسير كقول بعضهم :

فأيها الخيران في ظلم الدجى ومن مخاف أن يلفاه بغى من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياء ومن كتفيه بحرأ من الندى
فإن هذا الشاعر لما قدم في البيت الأول الظلم وبغى العدا ، كان الوجه
في التفسير أن يأتي في البيت الثاني بما يليق به ، فأق بالضياء بإزاء الظلم
وذلك صواب .

وكان يجب أن يأتي بإزاء بغى العدا ، بالنصرة أو العصمة أو ما جرى
بحرى ذلك ، فلما جعل مكانه ذكر الندى كان التفسير فاسداً^(١) .

...

وقول آخر :

ونلحقه عند المكارم هزة كما انتفض المحموم من أم مله^(٢)
فجعل اهتزازاً من أربحية الكرم ، كانتفاض المحموم من الحمى ، وبشاعته
لا تخفى .

(١) سر الفصاحة - ٢٢٥ .

(٢) أم مله كبير : كنية الحمى .

فأين هو من قول الآخر :

وتلحقه غنـد المكارم هـزة

كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب^(١)

وأين هو من قول الهذلي :

ولئن لتعروني لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بلمة القطر

وقول رجل من نعيم :

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواثيم

وقد أنشده الفرزدق لمضحك ثم قال : يا بن أخي ، إن للشعر شيطانين

يدعى أحدهما الهويز والآخر الهوجل ، فمن أنفرد به الهويز جاد شعره ،

ومن أنفرد به الهوجل فسد شعره ، وقد اجتمع لك في هذا البيت ، فكان

معك الهويز في أوله فأجودت ، وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت^(٢) .

وقول بعض الشعراء :

يُزججـن بكرا يبهـر الرـيـط منها كما مار ثعبان الغضا المتدافع^(٣)

فشيء مشبها بمشية الثعبان .

ومشية الثعبان ناعمة رقيقة حسنة لطيفة ، ولكن القبيح جاء من لفظة

الثعبان ؛ فليست مما يصطنع في التشبيهات الغزلية ، ولو أنه قال كما قال الآخر :

من المنصبـدات لغير سوء تسيل إذا مشت سيل الحجاب

ليرى من العيب مع أن الحجاب هو الحية .

(١) البارح : الريح الشديدة .

(٢) هزة أشعار العرب لأبي زيد القرني - ٣٠ .

(٣) يبهـر : يغلـب ، والريـط : الثياب الرقيقة .

ومثله قول شهاب الدين الأنسى البني :

إذا خطرت في الروض نغم عشية تفأوج من فضلات أردانها العطر
وإن سحبت أذيالها قلت حية إلى الماء تسعى ما لأخصها إثر
وهذا من قبيل التشبيه على ما فيه من الخلط^(١).

* * *

وقول بشار :

كان إربقنا والقطر في فمه طير تناول ياقوتا بمنقار
ولفظ طير ردىء والجيد طائر^(٢) .
يعنى استعماله في المفرد ، وأما استعماله في الجمع فهو المقصود ، وفي
القرآن الكريم : « وتفقّد الطير ... » .

وقد وقع شوقي في هذا التهاوت حيث يقول :

وإني لطير النيل لا طير غيره وما النيل إلا من رباحك يحسب

* * *

وقوله :

إنما أعظم سليمى مختلى قصب السكر لا أعظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

* * *

وقوله :

وبعض الجود خزير

(١) سلافة النصر — ١٤١ .

(٢) ديوان الماتى — ١ — ٣١١ .

وكل ذلك من بارد الشعر وسفاهه ، وكثير على مثل بشار أن يقع فيه .

وقول أبي الشيص الخُزاعي :

وناعس لو يذوق الحب مانعسا بلى عسى أن يرى طيف الحبيب عسى
وللهوى جرس ميني الرقاد به فكلمنا كدت أغنى حرك الجرسا

وفيه يقول ابن داود : إنه من التشبيه الذي لا يقع أبدا منه (١) .

وقول ابن أبي الفوارس :

جاءني مكتما ملتما فدعونا لاكل ونجنا
مد في السفرة كفا نرفا لحبنا أن في السفرة جينا

وقوله :

أنت ظبي أنت مسكى أنت دري أنت غصني
في التفات وتاء وتابا وتثنى وتثني

...

وقول أبي العتاهية :

كان عتابة من حسنها مدمية فس فتنت فسها
يارب لو أنسيتها بالذي في جنة الفردوس لم أنسها

إني إذا مثل التي لم تزل دائية في طلعها كدسها^(١)
حتى إذا لم يبق منه سوى حفنة برّ خفت نفسها

...

وقوله :

والهي حبا وصيرني مثل مهبها مشهورة ومشغله
وقوله :

عتب ، ما شأني وما شاك ترفقي أخت بسلطانك
لما تبديت على بغلة أشرقت الأرض برهانك
حتى كأن الشمس مزفوفة بين جواربك وخصيانك
وفيه يقول المرزباني : وهذا المعنى كلام ضعيف^(٢).

وليس هو ضعيفا فقط ، ولكنه رديء سخيف ، وكلمة الأخت التي
اصطنعها في معرض الغزل ، من الكلمات الساقطة النائية التي تشتمل منها
نفوس الأشراف ، وقد رأيت بعض شعراء العصر يستعملونها للبرهنة
على الحب العذري وما دروا أن الحب - وإن كان عذريا على زعمهم -
يأنف أن تلبس فيه المحبوبة صورة الأخت ، وأن هذه عاطفة شاذة مريضة
لا تجول إلا في جوارح شاعر مثوف ، ينزع به عرق إلى المجوسية ا

...

وقول آخر :

إن قلبي سُلّ من غير مرض وفؤادي من جوى الحب حرّض^(٣)

(١) السكندس يا لضم : الحب المحصور المجموع .

(٢) الموشح - ٢٦١ .

(٣) حرّض محرّكة : غارب الملاك من المرض .

كجواب كان فيه جُبان دخل الفأر عليه فقرض

...

وقول آخر :

كانها الشمس إذا ما بدت تلك التي قلبي لها يضرب

تلك سليمي إذا ما بدت وما أنا في ودها أرغب

كان في النفس لها ساحرا ذاك الذي علمه المذهب^(١)

وهو من النوع الفأر السفساف كسابقه .

...

وقول العماني :

كانما الطرف يرى في جوانبه عن العمى وكان النجم قنديل

واجتماع العمى والقنديل في غابة التنافر ، والبيت من ردى التشبيه .

...

وقول آخر :

وقل أم عمرو داؤه ودواؤه لديها ، ورباها الطيب الموافق

والبيت جيد المعنى ردى الرصف .

...

وقول الحسين الحلبي :

وشاطرى اللسان محتلق السكر به م زان المجنون بالنسك^(٢)

كانه نضب كأسه قر يكرع في بعض أنجم الفلك

والمعنى بديع ، ولكن العبارة ليست جيدة ، لأن قوله : يكرع : ليس

(١) المذهب بضم الميم وفتحها : شيطان الوضوء .

(٢) الشاطر في الأصل : من أعبأ أهله خبثا .

بصحيح ، وفيه ثقل بيّن وتفاوت ، وفيه إحالة أيضاً ، لأن القمر لا يصح
تصوره يكرخ في نجم ١

وقد أخذه أبو نواس فقال :

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
وكلمة . عبّ فيها ، قصد منها المتانة ، وكان سيّله أن يختار سواها من
الفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح .

وقوله : شارب القوم ، فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه
أو من مثله لإقامة الوزن .

ثم قوله :

خلته . . . يقبل في داج من الليل كوكبا

تشبيه بحال واحدة من أحواله ، وهو أن يشرب حيث لا ضوء هناك
وإنما يتناول له ليلاً ، فليس بتشبيه مستوف ، على ما فيه من الوقوع والملاحة .

وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع وهو :

ومهمف تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس

تصبو الكشوش إلى مرآشفه وتحن في يده إلى الحبس

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

وكانها وكأنت شاربها فمر يقبل عارض الشمس

ولا شك أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، إلا أنه تمكن من

إبراده في بيتين ، وهما مع سبقهما إلى المعنى أتيا به في بيت واحد^(١) .

. . .

وقول أبي نواس في الأمين :

تَنَازَعُ الْأَحْدَانُ الشَّيْبَةَ فَاشْتَرَكَا تَخْلُقَا وَتُخْلَقَا كَمَا قَدَّ الشُّرَاكَانُ
فَزَعِمَ : أَنَّ ابْنَ زَيْدَةَ مِثْلَ الرَّسُولِ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ — فِي خَلْقِهِ
وَأَخْلُقُهُ^(١)

وهو من غلوه المعقوت ؟

...

وقوله في صفة الباز :

فِي هَامَةِ عَلِيَاءَ تَهْدِي مَسْرَا كَعِظْفَةِ الْجَيْمِ بِكَفِّ أَعْسَرَا^(٢)
يَقُولُ مِنْ فِيهَا بِعَقْلِ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنَا إِلَى قَاءِ وَرَا
فَاتَّصَلَتْ بِالْجَيْمِ كَانَتْ جَعْفَرَا

وفي ذلك يقول العسكري : سمعت بعض العلماء يقول : ومن المعاني
الباردة قول أبي نواس في صفة البازي .

وقد وصفوا البيت الأول بأنه جيد مستوف .

وقالوا في الباقي : فمن يجهل أن الجيم إذا أضيفت إليها العين والفاء
والراء تصير جعفرأ

وسواء قال هذا أو قال :

لَوْ زَادَهَا حَاءٌ إِلَى دَالٍ وَرَا فَاتَّصَلَتْ بِالْجَيْمِ صَارَتْ جَعْفَدَرَا
وما يدخل في صفة البازي من هذا القول^(٣) .

وتبعه أبو تمام فقال :

هَنَ الْخَمَامُ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيَاْفَةً مِنْ حَائِنٍ فَإِنَّهُنَّ رِحَامُ

(١) إعجاز القرآن للبائلي — ١٤٧ .

(٢) المنسر كجلس ومتر : المنار ، والأعسر : من يسيل يده الشمال .

(٣) الصناعتين — ١١٤ — ١١٥ .

فن الذي جهل أن الحمام إذا كسرت حاذؤه صار حماما .
ولمّا أراد أبو نواس أن يشبه الجيم لا يفادر من شبهها شيئا ، حتى
لو زاد عليها هذه الأحرف صارت جعفرأ لشدة شبهها به .
ثم يقول العسكري : وهو عندي صواب إلا أنه لو اكتفى بقوله :
كعطفة الجيم بكف أعسرا

ولم يزد الزيادة التي بعدها كان أجود وأرشق وأدخل في مذاهب
الفصحاء ، وأشبه بالشعر القديم .

وأما قول أبي تمام ، فله معنى بخلاف ما ذكره ، وذلك أنه أراد أنك
إذا أردت الزجر والعيافة أذاك العمام إلى الحيام ، كما أن صوتها الذي يظن
أنه بكاء ، إنما هو طرب ويؤديك إلى اليكاء الحقيقي .

وهذا المعنى صحيح ، إلا أن المعنى إذا صار بهذه المنزلة من الدقة ، كان
كالمعنى ، والتعمية حيث يراد البيان رعى .

...

وقول أبي نواس - أيضا - في الخمر :

توتّمهنّ في كأسها فكأنما توتّممت شيئا ليس يدرك بالعقل
خرج إلى المحال في تشبيهه ، حين جعلها لا تدرك بالعقل !

...

وقوله :

يا من جفاني ومثلا نسبت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما رأيت مالى قسلا
إني أظنك فيما فعلت نحكى القسلا^(١)

(١) القسلا : من ملبور الماء ، صفيح الجرم ، شديد الغوص ، مبرج الخفاف .

وقوله :

وأمر الجلالة صيرته في الناس زاغا وشقرا^(١)ا
لجاء بالفاط العامة والسوقة .

...

وقوله :

وليس كجدتيه أم موسى إذا نسبت ولا كالخيزران
وهذا مدح فسل ، نازل إلى الحضيض ، وزاده ضعفا تصريحه فيه
بذكر النساء .

...

وقول أبي تمام :

وكان فارسه يصرف إذ بدا في مته ابنا للصباح الأبلق
لجعل الفرس ابنا للصباح الأبلق .

...

وقوله :

لك قد أرق من أن يحاكى بقضيب في النعت أو بكثيب
والقد لم تخر العادة بوصفه بالرق ، وإنما يوصف بالحيف والنحول
مثلا .

ثم هو يشبه بالقضيب ولكن لا يشبه بالكثيب ؛ وإنما يشبه
به الردف .

...

(١) الزاغ : غراب صغير إلى البياض ، والشقراق بكسر الشين وفتحها وتشديد الراء
وكسر طاس : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض يكون بأرض الحرم .

وقوله :

متفجّر نادى منه فكأننى للدلو أو المرزّمين نديم
والدلو هنا : أحد البروج ، والمرزمان : نجان مع الشعريين .
وأنت تجدد بأقرب تأمل فرق ما بين قول القائل لمن يمدحه : أنت
المرزم جوداء والجنة لمن يقصدك عزاء ، وبين قولك : أنت الدلو كرما ،
والكنيف لطريد الدهر سعة .
والمعنيان صحيحان ، وحسن إحداهما وقبح الآخر لا يخفاء به (١) .

وقوله :

أنت دلو وذو السباح أبو مو مى قلب وأنت دلو القلب
ومراداه من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه ، كما أن الدلو سبب
في امتباح الماء من القلب .
ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب — كما يقول ابن الأثير — إلى حد
يدندن حوله هذه الدندنة ، ويلقيه في هذا المثال السخيف (٢) .
ومثله في ذلك قول علي بن الجهم في مدح المتوكل :

أيها الدلو لا عدمنك دلوا من جيا دلدلا . تحلب الصليب
أنت كاللدلو لا عدمنك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب في حفاظك للودم وكالتيس في قراع الخطوب
والشناعة هنا جاءت من قبل اللفظ ، وإلا فكل واحد من هذه الثلاثة
يعد غاية الغايات في الصفة التي أريد بها المدح .
وقد يغتفر لابن الجهم قوله هذا لأن كان متبدّيا إذ ذاك ، ولكن

(١) سر الفصاحة — ٧٩ .

(٢) المثل السائر — ٢٩٩ .

كيف يعتقر ذلك لأبي تمام المدي المتحضر ١

• • •

وقوله :

صاحي الحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله عراثا
وفيه يقول ابن رشيق : فلعله الله على هذا المحرات ههنا ١ ما أقبحه
وأركئه ١ وأين هذا كله من قوله المليح البديع .

أو ما رأت بردى من نسج الصبأ وراة خضاب الله وهو خضابى
وإن كان أخذه من قول الله — عز وجل — : « صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً » (١) .

• • •

وقوله :

كأننى حين جردت الرجاء له عصب صبيت به ماء على الزمن
وقد علق عليه العسكرى بقوله : ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا (٢)
ورواه البديعى (٣) هكذا :

كأننى حين جردت الرجاء له محضاً أخذت به سيفاً على الزمن
ومعنى البيت على هذه الرواية : أننى بقصير رجائى عليه أصبحت قوياً
منيعاً ، حتى كأننى شهرت سيفاً على الزمن ، وبذلك ينتفى منه العيب .

• • •

وقوله :

(١) السدة — ١ — ١٨٤ .

(٢) الصنائع — ٢٤٨ .

(٣) هبة الأيام — ١٢٢ .

للجود باب في الأناام ولم تزل مذ كنت مفتاحا لهذا الباب
وقد ذكر ابن رشيق^(١) : أن بعض الناس اعترض على هذا البيت
بمحضرة بعض أصحابه وقال : أتى إلى مدوحه فجعله مفتاحا ، فهلا قال كما قال
ابن الرومي :

قَبِّلْ أَنَامَهُ فَلَسْ أُنَامِلَا لَكِنِّهِنْ مَفَاتِحَ الْأَرْزَاقِ
فَقَالَ لَهُ آخَرُ : عَجِبْتَ مِنْكَ نَعِيبٌ أَنْ يَجْعَلَ مَدُوحَهُ مَفَاتِحًا ، وَقَدْ جَعَلَ
رَبُّهُ كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

وَاللَّهُ مِفْتَاحُ بَابِ الْمَعْقِلِ الْأَشْبِ^(٢)

ولا خلاف أن التشبيه بالمفتاح قبيح في باب المدح ، وبخاصة حين
يتجه به الخطاب إلى المدوح كما في قول أبي تمام المتقدم .

فإن هذا من قول أبي نواس :

هَاتِ مِنَ الرَّاحِ فَاسْقِنِي الرَّاحَا أَمَا تَرَى الدِّيكَ كَيْفَ فَدَّ صَاحَا
مِنْ كَفِّ قَبْطِيَّةٍ مَزْنَرَةٍ نَجَعَلَهَا لِلصُّبُوحِ مَصْبَاحَا
وقد تابعه على هذه الإساءة السري الرفاء في قوله :

عَصَابَةٌ لَوْ شَهِدْتَ بِجِلْسِهِمْ كُنْتُ شَهَابًا لَهُمْ وَمَصْبَاحَا
أَغْلَقْتُ بَابُ السُّرُورِ دُونَهُمْ فَكُنْ لِبَابِ السُّرُورِ مَفْتَاحَا
ولكن مما يهون الخطب هنا : أن المقام مقام هزل لا جد ، وأنس
وتبسّط . لا تزمت ووقار .

وقريب من هذا قول أعرابي :

(١) الممددة — ١ — ١٨٤ .

(٢) الأشب : للثقف .

وإذا المكارم أغلقت أبوابها يوما فانت لتقلها مفتاح
فإن القفل أيضاً لا بد له من مفتاح .

وقد وقع في هذا الخطأ المنصور حيث يقول من خطبة له : أيها الناس
إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسيده ، وحارسه على
ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه يادته ، فقد جماني الله عليه قفلا
إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن
يقفلني عليها أقفلني ^(١) .

وكذا محمد بن الليث في قوله : كان قفلا فتحه أمرك ، وبابا أغلقه
نهيك ^(٢) .

وعلى ذلك نرى أن كلمة مفتاح تحسن إذا وقعت في غير المدح ، كقول
علي بن عبد الله الجعفرى :

ربما سرتى صدودك عني وطلايك وامتناعك مني
حذرا أن تكون مفتاح غيبي فإذا ما خلوت كنت التني
فكلمة مفتاح هنا متعينة في مكانها ، وهي من بديع الكنايات أيضا .
فهو يريد أن يقول : إنه يرحب بصدود المحبوب وامتناعه عليه برغم
هيامه به ، لأن انقياده له يجعله ملبس القياد لغيره ، لين العريكة فيما يطلب
منه ، وهو لا يريد أن يكون مفتاحا لباب الطمع فيه ، فالحرمان في هذه
الحال ، أشهى إليه من الوصال .

وكذلك نجد كلمة مفتاح تحسن إذا وصف بها غير الإنسان ، كالجوارح
والأخلاق والأشياء المعنوية ، وذلك كقول منذر بن سعيد : ... فأندسكم الله
ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ^(٣) . وكقول ابن الرومي
المتقدم :

(١) الطبري — ٩ — ٣١٠ .

(٢) جمهرة خطب العرب — ٣ — ٦٩ .

(٣) المصدر المتقدم — ٣ — ١٣٥ .

قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَهُ فَلَسَنُ أَنْ يَمْلَأَهُ لَكِنَّهُ مِفْتَاحُ الْأَرْزَاقِ
وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ (١) .

وَمِنْ فِصْلِ الْهَدْيِ الْعِزَّاتِيِّ : قِيلَتْ مِنْ يَمْنَاهُ مِفْتَاحُ الْأَرْزَاقِ

وَقَوْلُ الشَّاعِرِ :

خَزَنَةُ عِمَامَتِهِ ، حُلُوُ فَكَاكِهِ فِي كَفِّهِ مِنْ رُفَى الشَّيْطَانِ مِفْتَاحُ
وَقَوْلُ الرَّاجِزِ :

إِنِّي بَغَيْتُ الشَّعْرَ وَابْتِغَايَ حَقِّي وَجَدْتُ الشَّعْرَ فِي مَكَانٍ
فِي عَشِيَّةٍ مِفْتَاحُهَا لِسَانِي (٢)

وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ :

أَلَمْ تَرَ مِفْتَاحَ الْقَوَادِ لِسَانَهُ إِذَا هُوَ أَبْدَى مَا يَقُولُ مِنَ الْفَمِ
وَقَوْلُ آخَرٍ :

مِفْتَاحُ بَابِ الْفَرَجِ الصَّبْرُ وَكُلُّ عَمْرٍ بِعَدِهِ يَسِرُ
وَكُلُّ مَنْ أَعْيَنَكَ أَخْلَانَهُ فَإِنَّهَا خَيْلَتُهُ الْهَجْرُ

وَقَوْلُ الرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ : الْحَبَّةُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَمَقْلَاقُ كُلِّ شَرٍّ .

وَقَوْلُ الْمُهْدِيِّ الْعَبَّاسِيِّ : الْمَشَاوِرَةُ وَالْمُشَاظَرَةُ : بَابُ الرَّحْمَةِ ، وَمِفْتَاحُ بَرَكَةِ :

وَقَوْلُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ : الْاِقْتِصَادُ رَأْسُ النَّصِيحَةِ ، وَمِفْتَاحُ الْيَمِينِ وَالْبَرَكَةِ .

وَقَوْلُهُمْ مِفْتَاحُ الْفِتَنِ .

وَهُوَ مَقْتُلُ عُثْمَانَ أَوْ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - .

(١) نَمَارُ الْقُلُوبِ - ٥٣٣ .

(٢) الْعَبِيَّةُ : الْحَقِيَّةُ .

فمفتاح فيما تقدم لا يمكن أن يقال : إنها قبيحة .
وعند التأمل الدقيق يظهر لنا أن قبح « مفتاح » يتجلى أين ما يكون
حينما يقترن بلفظ « الباب » أو « القفل » .
ولعل المر في هذا : أن اقتران المفتاح بالباب والقفل يجعل التشبيه
قريبا جداً من عالم الواقع .
وبهذا القرب يصبح الموصوف أدنى إلى أن يكون آلة جامدة صماء .
وإن شئت فقل : مفتاحاً بالفعل .
وآية ذلك أننا لا نشعر بهذا النبوءة في قولك مثلاً : جعلك الله مفتاحاً
للخير ، مغلاقاً للشر .
ولا في قولهم لعمر بن الخطاب : مفتاح الأمصار^(١) .

...

وقوله :

فإذا ما أردت كنت رشاء وإذا ما أردت كنت قليلاً
يريد أنه مرة يكون رسول الخير ، وأخرى يكون مصدر الخير نفسه .
لجمله لذلك مرة حبلاً ، وأخرى برأ .
والرشاء والقليب كالذلو والمفتاح في شعره السابق سخراف وركه .
وجاء السرى الرقاء فقال :
نراك إذا كان الندى في قلبه رشاء فإن يعلى اتخذ ذلك سداً
وجاء مهبأر أيضاً فقال :
لك الخير مولى رميت المنى رشاء إليه فروى قليلاً

(١) قبل له ذلك لأنه أول خليفة مصر الأمصار وفتح أكثرها .

لجعله قلبياً .

ولم تقع لفظة « قلباً » هنا قبهما في بيت أبي تمام السالف ، لأن الممدوح لم يخاطب بها خطاب مواجهة لأنها لم تقع خيراً عنه .

وعلى كل فتشبيه الممدوح بأنه قلب أهون من تشبيهه بأنه رشاء و مسلم .
وبلاحظ حسن لفظة رشاء في القول المتقدم .

رميت المني رشاء إليه ...

وكذا في قول أبي الفتح البستي : الرشوة رشاء الحاجة :

والسبب : أنها لم تقع وصفا للإنسان .

وقول أبي تمام أيضاً :

صارت المكرمات بُزْلاً وكانت أدخلت بينها بنات مخاض

شبه المكرمات بالنوق البزل — وهي التي بلغت من النامة — بعد
أن كانت بنات مخاض — وهي إناث النوق التي دخلت في السنة الثانية
وحملت أمثاتها .

والتشبيه غاية في الغنائة ، ولأبي تمام كثير من هذا النوع .

وقوله :

خاق كالمدام أو كرضاب المسك م أو كالعبير أو كالللاب

وقد عابوا قوله هذا : بأن الناس يقعون من الدون إلى الأعلى ، وهذا
من الأعلى إلى الدون ، فجعل خلفه كالمدام أو كالمسك ، ثم قال : أو كالعبير
أو كالللاب^(١) .

وقوله :

(١) اللاب بفتح الليم : عطر ، أو الزعفران .

سبا بن أونس في الفخار وحاتم وزيد القنا والاثرمان ورافع
نجوم طواليع جبال فوارع غيوث هواميع سيول دوافع
فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدم ما آخر
لما اختل النظم ، بأن قال :

سيول دوافع غيوث هواميع جبال فواريع نجوم طواليع
وذلك أن من عادة العرب في التخاطب أن يبدؤوا في باب المديح وشبهه
بالصفة الدنيا ، ثم يثبثوا بأعلى منها ، وهكذا إلى أن ينتهوا إلى آخرها
وعكس ذلك في النظم .

وقد ورد على ذلك قول البخترى في وصف نحول الإبل :

بترقرق كالسراب وقد خضض م غمارا من السراب الجارى
كالفسي المعطفات بل الأسهم م مبرية بل الأوتار
فترقى في تشبيه التحول من القسي المنحنية ، إلى الأسهم المبرية ،
إلى الأوتار وهي أشد الثلاثة نحولا ورقة .

ويقول ابن الأثير : وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك ؛ فمن جهلهم
المتنبى في قوله — يمدح بدر بن عمار الأسدي :

يا بدر يا بحر يا غمامة يا ليث م الثرى يا حمام يا رجل
وكان ينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك ، كان كالمرتفع
من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا عكسه كان كالمنخفض من محل إلى محل
أدنى منه .

فأما قوله : يا بدر ، فإنه اسم المدح ، والابتداء به أولى ، ثم بعد ذلك
يجب أن يقول : يا رجل ، يا ليث ، يا غمامة ، يا بحر ، يا حمام ، لأن الليث أعظم
من الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهذا مقام
مدح ، فيجب أن يرقى فيه من منزلة إلى منزلة ، حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخرها ،

ولو كان مقام ذم لعكس القضية .

ثم يوازن بين قول المتنبي وقول أبي تمام السابق :

نجوم طواليع ...

فيقول : وهو عندى أشهر ملامة من المتنبي ؛ لأن المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها ، وأبو تمام متمكن من ذلك ؛ وما أعرف كيف ذهب عليه هذا الموضوع مع معرفته بالمعاني^(١)

ومع هذا يمكننا أن نلتبس العذر للمتنبي ونبعد عنه الملامة ، إذا نظرنا إلى أنه شبهه بهذه الأشياء كل منها على انفراد لمعان تصدق عليها .

فهو بدر في الحسن والوضاء والرفعة ، وبحر في سعة المكارم ، وغمامة في جوده الذى عم القريب والبعيد ؛ لأن الغمام متنقل ، وليث في الشجاعة والجرمة والإقدام ، وموت في استئصال أعدائه وقتلهم ، ورجل في أنه جمع هذه الصفات الكثيرة الغريبة المتباينة ، وهو في كنهه إنسان ، وكأنه يشير إلى قول أبي نواس :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

...

وقول البحتري :

تبسم وقطوب في ندى ووغى كالرعدو البرق تحت العارض البَرْد
وفيه يقول ابن الأثير : وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة — وهو ترتيب التفسير — فإن الأولى أنه كان قدّم تفسير التبسم على تفسير القطوب ؛ بأن قال :
كالبرق والرعد ..

فانظر ايها المتنمى الى هذا الفن ، كيف ذهب على البحرى مثل هذا
الموضع على قربه ، مع تقدمه فى صناعة الشعر ، وليس فى ذلك كبير أمر
سوى أن كان قدم ما أخر لا غير ، وإنما يعذر الشاعر فى مثل هذا المقام
إذا حكم على الوزن والقفية ، واضطر إلى ترك ما يجب عليه ، وأما إذا
كانت الحال كالتى ذكرها البحرى فيئتد لا عذر له (١).

• • •

وقول البحرى أيضاً من قصيدة :

كالبدر غير مخيّل والغصن غير مميّـل والدعص غير مهـيـل
هذه الاستثناءات ضرب من التكلف ؛ لأن التشبيه بالغصن كاف ، فإذا
زاد فقال : كالغصن غير معوج ، كان ذلك من باب التكلف خلا ، وكان
زيادة يستغنى عنها .

وكذلك قوله : كالدهص غير مهـيـل ، لأنه إذا انحال ، خرج عن أن
يكون مطلق التشبيه مصروفاً إليه ، فلا يكون لتقيده معنى .

• • •

ومنها قوله فى الفرص :

وأغرّ فى الزمن البهيم عـجـل قد رحمت منه على أغر عـجـل
كالهيسكل المبني إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيسكل
ذكر الهيسكل فى البيت الثانى ورد بحز البيت عليه ، وظن أنه قد ظفر
بهذه اللفظة وعمل شيئاً حتى كررها .

وهى كلمة فيها ثقل ، ونحن نجد ما أرادوا أن يصنعوا نحو هذا
قالوا : ما هو إلا صورة ، وما هو إلا تمثال ، وما هو إلا دمية ، وما هو
إلا ظلية ، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان .

وقد استدرك هو أيضا على نفسه ، فذكر أنه كصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل ، كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين ، لراعوهم بها وأفرعوهم بذكرها ، وذلك من كلامهم ، وشبهه بضاعتهم .

• • •

ومنها في وصف أذنيه :

متوجس برقيقتين كأنهما كتربان من ورق عليه موصل
يقول : إن الأذنين كأنهما من ورق عليه موصل ، وإنما أراد بذلك حدثهما ودرجة حركتهما وإحساسهما بالصوت ؛ كما يحس الورق بحفيف الريح .

وظاهر التشبيه غير واقع ، وإذا ضمن ما ذكرنا من الماعى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وإنما يجرى مجرى المضمن ، وليس هذا برائق اللفظ ، ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله : متوجس برقيقتين ؛ فإن هذا القدر هو حسن .

• • •

وقوله في السيف :

وكأنما سود النبال وحررها دببت بأيدى قراء وأرجل^(١)
المعنى مكرر على السنة الشعراء ، وتصنيعه بسود النبال وحررها ليس بشيء ، ولعله أراد بالحر : الذر^(٢) .

والتفصيل بارد والإغراب به منكر ؛ وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بجذاه رأسي على سواء أو منحرفا قدر

(١) القراء بفتح القاف : المظهر .

(٢) الذرة صغار النبل .

شبر ، أو نصف شبر ، أو إصبع ، أو ما يقارب ذلك ؛
 فقبل له : هذا من الورع الذي يبغضه الله ، ويمقتة الناس ؛
 وحب زيادة كانت نقصانا ؛ وصفة النبل بالسواد والحمر في هذا من
 ذلك الجنس ، وعليه خرج بقية البيت في قوله : دبت بأيد ...
 وكان يكفى ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي ، ووصف الفرند بمدب
 النبل ، شيء لا يشذُّ عن أحد منهم .

...

ومنها في المدح :
 عال على نظر الحسود كأنما جذبه أفراد النجوم بأحبُّل
 ومنكر جداً جر النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو ، والتكلف
 فيه واقع^(١) .

...

وقول ابن الرومي يهجو امرأة :
 مَن شعرها من فضة وثفرها من ذهب
 وقد كان بعض الأدباء يعيبه ويقول : إن التشبيه بالفضة والذهب
 إنما ينفع في المدح ، وكان يجب أن يهجو هذه المرأة بما يستعمل من ألفاظ
 الذم وطرقه .

وقد عده الخفاجي من وضع الألفاظ في غير مواضعها^(٢) .
 ونحن لا نرى ذلك بل نعد البيت من أجود أنواع الهجاء ؛ لأنه مع
 غيب معناه ودقة مسلكه ، جدد عن ألفاظ القذف والسب التي عرف بها

(١) انظر قد البانلاني لهذه القصيدة في إعجاز القرآن — ١٧٥ .

(٢) سر الفصاحة — ١٥٥ .

ابن الرومي ؛ فهو يريد أن شعرها أبيض كالفضة ، وأسنانها صدف صفر كالذهب ، فعبّر عن ذلك بهاتين الكنايتين اللطيفتين ، ولا معنى لقول بعضهم : إن التشبيه بالفضة والذهب إنما ينفع في المدح فقط ، لأن الألفاظ تصلح للاستعمال في المدح والذم معا ، بحسب إرادة المتكلم وتصريفه لوجوه الكلام .

...

وقول السري الرفاء :

ويؤلف أوراذه الخضر تحنها بساط إليه أعين النجم شخص
وهو غير مختار الرصف ظاهر التكلف .

...

وقول الصابي :

نعم الله كالوحوش وما تألف م إلا الأخيار النساء
نقصرنا آثام قوم وصارت لأولى البر والتقى أشراكا
والمعنى جيد ، ولكن تشبيه نعم الله بالوحوش ، لا يصدر إلا من وحش
الطباع !

...

وقول المتنبي :

كان دحوت الأرض من خبرتي بها كأتى بنى الإسكندر السدة من عزمي
فشبه نفسه بالخالق - تعالى عما يقوله الظالمون - ثم انحط إلى
الإسكندر مع ما فيه من الإغراق (١) .

...

وقوله :

ومعلومة سيفية ربيعية يصيح الحصى فيها صياح اللقاليق
يريد بالمعلومة : الكتبية المجموعة ، وسيفية ربيعية : منسوبة إلى سيف
الدولة ، وإلى ربيعة التي منها تغلب قبيلته ، واللقاليق : ضرب من الطير ،
وصياح الحصى : أراد به صوتها عند وقع حوافر الخيل ؛ شبهه بصوت
اللقاليق .

واللقاليق من الألفاظ العامة المبتذلة :

...

وقوله :

ومن الناس من نجوز عليه شعراء كأنها الخازباز
الخازباز بيناء الجزأين على الكسر : حكاية صوت الذباب ، ثم ممي
به الذباب نفسه .

يريد أن بعض الناس لغفلتهم ، تروج عندهم شعراء كالذباب في طئنه .
وقد عد ابن الأثير هذا البيت من مضحكات الأشعار ، وأنه من جملة
البرسام الذي ذكره في شعره حيث يقول :

إن بعضنا من القريض هراء ليس شيئا وبعضه أحكام^(١)
منه ما يجلب البراعة والفهم م ومنه ما يجلب البرسام^(٢)
والبرسام : علة يُهذى فيها .

...

(١) القيل السائر - ٧٠ .

(٢) في الديوان : هذا يضم الهاء وهو المذهبان .

(٣) ما يجلب : أي يجلبه ، وفي الديوان : البراعة والفضل .

وقوله :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه
قالوا : أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره ، وكـم عسى
هذا الشحيح بالغاً ما بلغ من الشح ، وواقعاً حيث وقع من البخل ، أن يقف
على طلب خاتمه .

والخاتم أيضاً ليس مما يخفى في الثراب إذا طُلب ، ولا يعسر وجوده
إذا قُتّش .

وقد اعتذر عنه القاضى الجرجاني بقوله : وأقرب ما يقال في هذا :
أن الشاعر حينما أراد أن يقول : أقف وقوف شحيح ضاع في الترب
خاتمه ، لم يرد النسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة ، وإنما
يريد : لأقفن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، خارجاً عن حد الاعتدال ، كما
أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة
في أضرابه .

وهو كقول الشاعر .

رُب ليل أمدّ من نفس العا شق طولا قطعه بانتحاب
ونفس العاشق بالغاً ما بلغ ، لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، إنما
مراده أن هذا الليل زائد في الطول على مقادير الليالي ، كزيادة نفس العاشق
على الأنفاس (١) .

* * *

وقوله في وصف الحى .

إذا ما فارقتنى غـئـلـتـنى كأننا عاكفان على حرام

وهو معيب لأن الغسل غير مقصور على الحرام وحده ، بل هو من
الحلال والحرام جميعا ، فليس لتخصيص الحرام به وجه .

وقوله :

وفاؤكما كل ربع اشجاء طامعه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وقد أغرب فيه حتى قال ابن رشيقي : إن هذا يحتاج إلى الأصمعي
أن يفسر معناه (١) .

وقال فيه الثعالبي : وهو ما تكلف له اللفظ المتعقد ، والترتيب المتعسف
لغير معنى بديع بنى شرفه وغرابته بالتعب في استخراجيه ، ولا نقول :
تقوم فائدة الانتفاع به بأزاء النأذى باستماعه (٢) .

ومعنى البيت : يقول لصاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند
ربيع المحبوب : وفاؤكما بمساعدتي على البكاء كهذا الربع ، فإن الربع كلما
درس كان أبعث على الحزن ، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف ، ومساعدتكما كلما
قلت ، اشتد حزني لفقد من أتأسى به .

وقوله : والدمع أشفاه ساجمه : بيان لعدم فده في البكاء ، وحمية على
صاحبيه بأنهما غالبان هما هو فيه من الوجد ، لأنهما لو كانا مثله لاستشفيا
بالدمع مثله كما هو شأن الحزين .

والغرابية والتعقيد جاءا من لفظة طامع : بمعنى الطامس . وتعلق الباء
في : بأن تسعدا ، بوفاء ، الواقع مبتدأ ، وهو من الضرورات القبيحة ، لأن
الاسم لا ينجر عنه إلا بعد تمامه .

وقوله - يمدح عبد الله بن يحيى البحتري :

(١) الدقة - ١ - ١٦٠ .

(٢) بقيمة الدهر - ١ - ١٢٣ .

ولو نقصت كما زدت من كرم على الورى لأوفى مثل شافيكما
يقول : لو نقصت أنا عن الناس كما زدت أنت عليهم ، لأوفى خصباً مثل
هدوك .

ففرغ عن وصف المدوح بزيادة الكرم على الناس : أنه لو نقص بقدر
هذه الزيادة لعد كذلاً مثل مبعضيه .

وهذا هو التفريع الملعون كما يقول ابن رشيق^(١) .

• • •

وقوله :

العارض الهمن ابن العارض الهمن ابن العارض الهمن
وقد قال فيه الخفاجي : فأما قول أبي الطيب ، فمن أقبح ما يكون من
التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ،
فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع .

وفيه يقول ابن الأثير : وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة .
أن أبا الطيب أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه .

وليس في هذا البيت من تكرير ، فإنه كقولك : الموصوف بكذا
وكذا ، ابن الموصوف بكذا وكذا .

أى إنه عريق النسب في هذا الوصف .

وقد ورد في الحديث النبوى مثل ذلك كقول النبي في وصف يوسف
الصادق - صلوات الله عليهما - « الكريم ابن الكريم ابن الكريم
ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . » .

ثم يقول : ولقد فاضنى في هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب
وأخذ بطلن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه

وعرفته ، أنه كالحبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، ولكن لفظه ليس بمرضى على هذا الوجه الذى قد استعمله فيه ؛ فإن الألفاظ إذا كانت حسنا فى حال انفرادها ، فإن استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها .

ولو تها لآبى الطيب أن يبدل لفظه العارض بلفظة السحاب ، أو ما يجرى مجراها لكان أحسن .

وكذلك لفظه الحن ، فإنها ليست مرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه .

ولفظه العارض وإن كانت وردت فى القرآن وهى لفظه حسنة ، فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم ، وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر (١) .

وقد أخذ العلوى قول ابن الأثير واحتذله — وكثيراً ما يفعل ذلك — فقال : من الناس من صوبه فى تكريره ، ومنهم من قال : أسماء فيما أورد من ذلك .

والأقرب أنه مجيد فى مطلق التكرير ؛ فإنه دال على إغراق الممدوح فى الكرم ، ولكن غير محمود : أن لفظه العارض والحن ليستا واردتين على جهة البلاغة فيه لقلة الاستعمال لهما .

فن أجل ذلك كان ما قاله ليس بالقى فى البلاغة مبالغاً عظيماً ، إلا من جهة التكرير فإنه محمود لا محالة (٢) .

ونحن نخالفهما فيما ذهب إليه من استكره لفظى العارض ، وه الحن . .

(١) اللؤلؤ السائر — ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) الطراز — ٢ — ١٨٢ .

ولا نحمد من هذا البيت ما حمده ، بل نعدده رديئاً سفسافاً مردوئاً
أشبه ما يكون بميث الأطفال ، سواء أكان من نوع التكرير أم لا .
والمدح بالعرفاة في صفة من الصفات ، لا يستوجب هذا الإلحاح
الثقل على لفظ معين .

وللتنبئ آيات مرقصة في ذلك منها قوله :

وجدت علياً وابنه خير قومه وهم خير قوم واستوى الحر والعبد
وأصبح شعري منهما في مكانه وفي عنق الحسناء يستحسن العقد
فقد قصر السيادة على المدح وابنه وأسرته ، ورفعها فوق الناس جميعاً
في إيجاز بالغ ، لم يحتاج فيه إلى ملء الشدق بهذه الإعادة الثقيلة المملة .
والفرق بين التكرير في بيت المتنبي وبين الحديث الشريف ، كالفرق
بين الحزف والدر ، فإن الذي حسن تكرر الكريم في قول الرسول
الكريم : أن يوسف وأباه جميعاً أنبياء معروفون ، وقد جاءوا متتابعين
في نسق واحد لا يقطعه فاصل ، فكل كريم يشير إلى واحد من هؤلاء
الأنبياء — عليهم السلام — بل كاد لقوة التصاق النبوة بهم ، وانطباقها عليهم
يجري مجرى العلقم ، ولهذا نرى الرسول — صلوات الله عليه — وقف
عند إبراهيم عليه السلام .

ولو كان والد إبراهيم نبياً لحسن أن يقول : ابن الكريم أيضاً :
وقد كان يحسن تكرير المتنبي لو أنه جاء على نسق التكرير في قول
الشاعر :

قيس العلا ، قيس الندى ، قيس الكرم :

على أني أستحسن مثل تكرير المتنبي إذا وقع هجاء كقول الشاعر :
ولقد هزرتك للديح م فكنيت ذا نفس لكيعه
أنت الرقيع ابن الرقيع م ابن الرقيع ابن الرقيع

وقوله يمدح سعيد بن عبيد الله الإنطاكي :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بُعْرانا
وهذا سوء ذوق منه ، وإذراء بالإنسانية ، لا يصح وقوعه من شاعر ،
ولا ينفع في الاعتذار عنه قول من قال : إنه يقصد بالناس ناساً بأعيانهم
أخذاً من قوله بعد ذلك :

فالعيس اعقل من قوم رأيتهم عما يراه من الإحسان عيانا
وفي هذا الشعر يقول صاحب : أراد أن يزيد على الشعراء في وصف
المطايا ، فأق باخزي الخزايا

ثم يقول : ومن الناس أمة فهل ينشط لركوبها والممدوح لعله لا يريد
أن يُركبوا إليه ! فهل في الأرض أخش من هذا التسحب ، وأوضع من
هذا التبسط (١) .

والحق أن المتنبي كثيراً ما يتعسف في إيراد معانيه حتى ينزل إلى أحط
الدركات أحياناً ، ومن هذا النوع نفسه - وإن جاء على صورة أخرى -
قوله في رحيل سيف الدولة عن إنطاكية :

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيل م وأنا إذا نزلت الخيام
وقد عابوه بأن الخيام تعلو الممدوح (٢) :

وقال الواحدي في تفسيره : ليتنامعك تتحمل المشقة في مسيرك ونزولك .
ولكنه أساء حيث تبنى أن يكون بهيمة أو جماداً ، ولا يحسن بالشاعر
أن يمدح غيره بما هو وضع منه .

وقوله في الموق :

(١) بتيمة الدهر - ١٢٩

(٢) سر الفصاحة - ٢٤٨ .

مُخر من إذا تودوا كان لم يعدوا أن الكلام لهم حلال مطابق
أى كأنهم يظنون أن الكلام محرم عليهم .
قال الواحدى : لو وصفهم بالعجز عن الكلام ، لكان أولى وأحسن .
بما قال ؛ لأن الميت لا يوصف بما ذكره .

• • •

وقوله :

يرشحن من فى رشحات هن فيه خلاوة التوحيد
فى الكلام تشبيه مضمرة : أى خلاوة التوحيد .
وفى بعض الروايات :
هن فيه أحلى من التوحيد .
والمراد على كل حال غامض ؛ فقد قيل : إن التوحيد — نوع من الفهم
بالمراق .

وقيل : إنه توحيد الله — تعالى — .

• • •

وقوله فى عضد الدولة :

الناس كالعابدين آلهة وعبيده ~~كالموحد~~ الله
يريد أن الناس فى خدمتهم لغيره كمن يعبد آلهة باطلة من دون الله —
تعالى — ، لأنه — أى عضد الدولة — هو الملك على الحقيقة ، وغيره من
الملوك بهتان وزور .

ويريد بعبدته : نفسه ؛ أى إنه فى اقتضاره على خدمة عضد الدولة ، كمن
يوحد الله ولا يشرك به شيئاً .

ولا يجوز مثل هذا الكلام من مظنة التهاون بالدين والجرأة عليه ؛

وقوله في مدح بدر بن عمار :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والذئبي
والمعنى الظاهر : أن أفهام الناس تتقاصر عن الإحاطة بسعة إدراكه
وفسحة علمه ، كما تتقاصر عن الإحاطة بما وسع السموات والأرضين ، فإن
وراءها ما لا يعلمه إلا خالقه .

ونبته لا تدل عليه فأفرط وعمى !

وجمع دنيا على القول بالأدوار والتناسخ (١) .

وبقي أن البيت ردى النسيج ، ركيك الصياغة في جملة ، ثم إن النقاد
يعيرون استعمال لفظة « الدنى » ويعدونها من الألفاظ غير الشعرية .

• • •

وقوله — بمدح أبا الشعائر الحمداني — :

ليس قولى فى شمس فملك كالشمس م ولكن ككالشمس فى الإشراق
شبه قوله بنفس الشمس ، وشبه فعل الممدوح بأشعة الشمس التى تملأ
الكائنات .

أى إن قوله : فى فعل الممدوح الذى هو كالشمس ، ليس كالشمس
فيكون مكافئاً له ، ولكن نسبة قوله إلى فعل ممدوحه كالشمس بالنسبة إلى
إشراقها ، فإنه أوسع من جرمها أضغافاً مضاعفة .

وفى بعض الروايات :

ولكن فى الشمس كالإشراق .

والمعنى : أن قوله لا يبلغ فعل الممدوح فى الشرف والرفعة ، ولكن
يدل عليه فيكون بمنزلة الإشراق من الشمس .

وقد أورد العسكري هذه الرواية فقط ، وصرح بأن حقيقة هذا البيت لا يوقف عليها^(١) .

• • •

وقوله - بمدح سيف الدولة ويصف نكايته بالروم - :

نثرهم فوق الأحسندب كله كما نثر فوق العروس الدراهم
يريد : أنه مزقهم كل ممزق فوق هذا الجبل ، وبدد جثثهم أشلاء ، كما
تبدد الدراهم التي نثر فوق العروس .

والتشبيه جيد من هذه الناحية ، ولكن يعيبه عدم التوافق في الجو
العاطفي ، فالشطر الأول يهيم بك في جو قابض كتيب عابس ، جو الموت
والجراح والدماء والأشلاء والآلئين والتوجع !

والثاني ينقلك إلى جو ضاحك مرح فرح بهيج ، جو العروس المجلوة
على المنصة في أبهى زياتها ، بين أترابها الناضرات يرقصن ، ويغنين ،
ويتخطرن ويسكنن فوقها النثار .

وأي هذا من ذاك ؟

• • •

وقوله - بمدح القاضي أحمد بن عبد الله الإنطاكي - :

وأما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وما سواك الباطل^(٢)
الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل
وتقديره : الطيب أنت طيبه إذا أصابك ، والماء أنت الغاسل له إذا
اغتسلت ؟

وقد ألم في البيت الأخير بقول القائل :

(١) الصناعتين - ٣٠٧ .

(٢) مقسم : بكسر السين وفتحها على أنه اسم فاعل أو مصدر مبني .

وزيد بن أطيّب الطيب طيبا إن تمسّيه ابن مثلك أبنا
ولكنه تصف في اللفظ :

• • •

وقوله — بمدح شجاع بن محمد الطائي — :
أني يكون أبا البرايا آدم وأبوك والنقلان أنت محمد
وتقديره : أني يكون آدم أبا البرايا ، وأبوك محمد ، وأنت النقلان ؛

• • •

وقوله يصف الناقة :
فتبت مُسندٌ مُسندٌ في نَيْبِها إسادَها في المهمة الإنشاء^(١)
وتقديره : فتبت تسند حال كون الإنشاء مسندا في شحمها إسادَها
في الصحراء .
والمعنى : أن ناقة تبت سائرة والهرال يسير في شحمها ، كما تسير هي
في الفلاة .

• • •

وقوله :
حملتُ إليه من ثنائي حديقة سقاها الحجام سقى الرياض السحاب
أي سقى السحاب الرياض ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه .

• • •

وقوله :
رمايَ رخصاس الناس من صائب استيه وآخر قُسطانٍ من يديه الجنادل

(١) الإساد : إدمان السير أو سبب الليل بلا تعريس والقي : الشحم ، والمهمة : الصحراء .

والمعنى : رماني رُذال الناس من يرمى فينقلب رمية إليه ، ومن تصير
الصخور في يديه كالقطن عديمة الأثر .
وفيه ركازة ، وسفسفة ألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم .

• • •

وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

• • •

وقوله :

وأقسم لو صلحت يمين شيء لما صلح العباد له شمالا

• • •

وقوله :

من بعد ما كان ليلى لا صباح له كأن أول يوم الحشر آخره
وفي هذه الآيات إفراط في المبالغة ، وخروج إلى الإحالة .

• • •

وقوله في وصف الحر :

هيجرت الحر كالذهب المصق نفيرى ماء مزن كالجين
كان يياضها والراح فيها يياض عسود عين
والتشبيه في البيت الثاني غير ملائم ولا يحكم إلا من حيث الإحداق
والإحاطة .

ولكن من حيث التشبيه في اللون غير منسجم ، لأن الحر ليست بسوداء
اللون إلا في بعض الحالات النادرة .

• • •

وقوله :

كبر العيان على حتى إنه صار اليقين من العيان توهماً

• • •

وقوله :

ولولا أنني في غير نوم لكنت أظنني مني خيالا

وفيه استعمال كلمات الصوفية المعقدة ، ومعانيهم المغلفة .

• • •

وقوله — يصف خيل سيف الدولة في عدوها — :

خرجن من النقع في عارض ومن عرق الركض في وابل

وما بين كاذقي المستغير كما بين كاذقي البائل

الكاذبة : لحم الفخذ ، والمستغير : مطالب الإغارة .

والمعنى : أن المستغير من هذه الخيل كان يفرج بين رجله لشدة عدوه

كما يفعل البائل لئلا يصيبه البول .

أو أنه كان يعرق في عدوه فيسيل العرق من بين غنديه كما يسيل بوله .

والمعنى — كما ترى — فصل رذل ، وليس فيه كبير طائل ، بل فيه

إساءة الأدب بالأدب كما يقول الثعالبي^(١) .

• • •

وقوله :

كنمت حبك حتى منك تكريمة ثم استوى فيه إسرارى وإعلانى

كأنه زاد حتى فاض عن جسدى فصار مغمى به في جسم كتمانى

والمعنى : كنمت حبك حتى غلب على الوجد فظهر ، وتساوى فيه كتمانى

وإشائي ، فكأنه زاد حتى فاض عني ، وصار جسما على جسبي ، وحيث لم يدرى
سقم جسبي إلى جسم السكتان فضعف ، وافتضح ما كان مكتوما عندى .
والنشيد مستغلق مبهم لا يفهم بغير عسر وعناء .

• • •

وقول بعضهم :

شبيه أبيه خلقه وخليقه كما حذيت يوما على أختها النعل
وذكر النعل هنا أقبح القبح ، ومن يرضى مثل هذا الوصف ، يجب أن
يحكم عليه بالتجرد من الذوق .

• • •

وقول ابن فرناس :

رأيت أمير المؤمنين محمدا وفى وجهه بذر المحبة يُشمر
فقال له مؤمن بن سعيد : قبحا لما ارتكبته ا جعلت وجه الخليفة
حرثا يُشمر فيه البذر الخجل (١) .

وقد كان من السهل أن يقتدى بأبي تمام فى قوله :

هى البدر يُغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقى وإن لم تودد

• • •

وقول أبي نصر بن نباتة :

فأياكم أن تكشفوا عن رموسكم إلا إن مغناطيسهن الذوائب
ومغناطيسهن كلمة غير مرضية ، لأنها من مصطلحات العلوم ، ثم لكثرة
حروفها وخروجها عن حد الاعتدال (٢) .

(١) قبح الطيب — ٢ — ٢٣٢ .

(٢) سر النصاحة — ٨٠ .

فهي مثل سويدا وانها ، وسراويلاتها في قول المتنبي :
 إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويدا وانها
 وقوله :

إني على شغفي بما في خمرها لا عفا عما في سراويلاتها
 وقول أبي تمام :

العيب نعم لم أن حواياواتها ربح إذا بلغت إن لم تحر
 وكلها مفرط في الطول والنقل :

• • •

وقول بعض المولدين :

أسفري لي النقاب يا ضرة الشمس

وقد استرذل :

قال الرماني : أترأى ظن أن الضرة لا تكون إلا حسنة^(١).

ونحن لانوافقهم على هذا الرأي ؛ فقد لا تكون الضرة حسنة دائما ،
 ولكن بما لاخلاف فيه أنها توحى بالمثلية على الأقل ، لأن الضرتين في
 الأصل : الآلية من جانبي عظمها .

فالضرة مساوية للضرة ، وكل ضرة ند للآخري ، ومتى ثبت ذلك اتفق
 العيب عن ضرة الشمس ، لأنها تشا كل الشمس في صفاتها حتى لتضار بها .
 وفي شعر الحسن بن وهب ما يؤيد ذلك ؛ فقد ذكروا : أنه قدم إليه
 كانون وكان معه قينة يهاها ، فأمرت بإبعاد الكانون فأنشأ يقول :

بأي كرهت النار حتى أبعدت فمرفت ما معنك في إبعادها

هي ضرة لك بالتعاع شعاعها وبحسن صورتها لدى إيقادها (١)
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بأراكها وسياها وعرادها (٢)
شركتك في كل الأمور بحسنا وضيائها وصلاها وفسادها
فهو يجعلها ضرة بكل ما تفيد هذه اللفظة من معاني الاشتراك بين
الضررين ، حتى في الصلاح والفساد .

على أن المعروف أن الضرة الثانية ، تكون في الأعم الأغلب أكثر
شبابا أو جمالا ، ومن ثم حدثت الرغبة فيها ولم يكتف بالاولى ، فكان
الشاعر حين قال هنا : يا ضرة الشمس ، قال ضمنا : يا من هي أشبه شبابا
وأجمل جمالا .

وأقوال الشعراء تشير إلى ذلك ؛ فابن لنسكك يقول :

البدر والشمس المنيرة والضحا والكوكب
أضحت ضراتر وجهها من حيث يطلع تغرب
ويقول أبو محمد بن سفيان الأندلسي :

يا ضرة الشمس قلبي منك في وهج لو كان للنار لم تسكن حشا حجر
ويقول أبو العلاء بن أبي الندى :

يا ضرة القمرين من لتيه أردبته وأحلت ذلك على القضا
وحياة وجهك لم ينم عن ملوة بل كان ذلك للخيال تعرضا
لأناسي أن زار طيفك في الكرى ما كان إلا مثل شخصك معرضا
ويقول ابن عيريز البغدادي :

(١) هذه رواية المصنف ، وفي أمالي القائل : بالتعاع ضيائها .

(٢) الديال كسحاب : نواب له شوك أبيض طويل . والمراد كسحاب أيضا : بيت ،
والغليظ العاسي منه .

يا نساء الحى من مضر إن سلى ضرة القمر
 إن سلى — لاجعت بها — أسلت طرفى إلى السهر
 فهى إن صدت وإن وصلت مهجتى منها على خطر
 وسواد الشعر أسكنها فى سواد القلب والبصر
 ويقول آخر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سمه قالقوم أعداء له وخصوم
 كضرات الحساء قلن لوجها حسدا وبغيا إنه للدميم
 فهؤلاء الشعراء جميعا لم يصفوا هؤلاء الحسان بأنهن ضرات الشمس
 والقمر والنار ، إلا لما صح فى خيالهم من أن الضرة لا تكون إلا ذات
 مزة عن سالفها .

• • •

وقول كشاجم :

والزهر والقطر فى رباها ما بين نظم وبين نثر
 حدائق ؛ كف كل ربح حل بها خيط كل قطر
 والبيت جميل المعنى ، رائع الوصف ، مصيب التشبيه ، ولكن صياغته
 جعلت نطقه ثقيلًا على اللسان ، وشابته بالتناثر ، حتى قال فيه ابن الأثير :
 وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه فى شدقه ، حتى يديره له ^(١) .

• • •

وقول الحسن بن طباطبا الإصبهاني ^(٢) :

منعم الجسم تحكى الماء رفته وقلبه قسوة يحكى أبا أوس

(١) التل السائر — ١١٨ .

(٢) الصناعتين — ٣٦٠ .

يريد بآبى أوس : الحجر ؛ إذ هو : أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف .

أى قلبه حجر فى قسوته فأبعد التناول .

وقد كتب إليه أبو مسلم :

أباحسن حاولت إيراد قافية مصلية المعنى لجاءتك واهيه
وقلت أبا أوس تريد كناية عن الحجر القاسى فأوردت داهيه
فإن جاز هذا فأكرن غير صاغر فى بآبى القرم الهام معاويه
وإلا أقننا بيتنا لك جدء فتصبح ممنونا بصفتين ثانية
يريد بآبى معاوية : أبو سفيان واسمه : صخر بن حرب .

ويريد بجده : حرب بن أمية .

أى أكر فى بصخر ؛ وإلا أقننا بيتنا حربا تعيد وقعة صفين مرة
أخرى .

• • •

وقول آخر :

إن التى ملكتنى فى الهوى ملكت بجامع الحسن حتى لم تدع حسنا
ونت غزالا وفاحت عنبرا وبدت شمسا وماجت غدبرا وانثنت غصنا
ومثله فى قول آخر :

منوع الحسن يبدى من محاسنه لأعين الناس أوصافا وأشكالا
فاقرّ درا وغنى بلبلًا وسطا عضيأوما من نقاواهنّ عسالا^(١)

ولا مزية فى جمال صور البيان إذا نظر إليها على أفراد فى هذه
الآيات ، فقد شبه فيها المحبوب بأكل ما يشبه به ، ولكن العيب جاء من

(١) التنا : الكتيب من الرمل ، والصال : الريح المهبّ .

ازدحام التشبيهات وتراكبها ، حتى لتشعر بالتكلف وقصد الصنعة .

وأخف من ذلك مثونة قول النعالي :

فدينك يا أتم الناس ظرفاً وأصلحهم لمنخذ حياً
فوجهك زهرة الألفاظ حسناً وصوتك متعة الأسماع طياً
رفاً ظيماً وغنى غنماً غنماً ولاح شقائقا ومشي قضيماً
ومن التشبيه المتجاوز حد الفسولة : ما حدث الصولي : من أنه كان
لمحمد بن الحسن الحصني ابن .

فقال لأبيه : إني قد قلت شعراً - وكان الحصني سيداً ظريفاً - فقال :
أنشدني يا بني ثلثاً يلعب بك شيطان الشعر !
قال : فإن أجدت أنهب لي جارية أو غلاماً !
قال : بل أجمعهما لك .
فأنشد الابن :

إن الدبار يميّفاً ميسجناً حزناً قد عفا
أبكيتني لشقاوتي وجعلن رأسي كالعفا
فقال : يا بني ، والله ما تستأهل بهذا الشعر جارية ولا غلاماً ، ولكن
أمك طالق ثلاثاً إذا ولدت مثلك !

• • •

ومن الشعر الحديث على سبيل المثال قول إسماعيل صبري :
أنت يمّ الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
فلم تبحر العادة أن يقال للحسناء : أنت يمّ الحسن أو نهر الحسن أو بحر
الحسن ، وإنما غير منكور أن يقال لها : روضة الحسن مثلاً .
هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فإن الذوق ينفر من تصور

هذه الحسناء بمرأ زاحراً حشدت فيه سفن الآمال ، تشقه طولا وعرضا
وجيئة وذهوبا !

وكان الأنفل أن يصورها كعبة تطوف بها الآمال ، أو قبلة تتجه
إليها الرغائب !

ومع أني لست من أنصار عصر الشعر ، وتطبيقه على قوانين المنطق ،
إلا أني أرى أنه لا يصح أن يبلغ فيه التجوز ، إلى هذا الحد الصارخ المجانب
للذوق السليم !

وكثيراً ما يغزو القبح التشبيه من جميع جهاته ، حتى يحول قبحاً مجتداً
يغدش الحاسة الفنية من حيث نظرت إليه .

ولا أجد مثالا أنطق بذلك وأجمع له ، من قول ديك الجن المحصى في
ابتداء قصيدة :

كانها ما كانه خلل الخلّة م وقف الهلوك إذ بغا

ومن العسير فهم هذا البيت قبل شرح مفرداته .

فالضمير في « كانها » للمحبوبة ، وفي « كانه » للغزال :

« والخلّة » بالضم : نبات يرعى ، والوقف بفتح الواو : السوار من
العاج وغيره ، والهلوك : الجارية الحسنه المشى ، المتهالكة فيه ، أو البنى
الفاجرة ، ويقم : صاح .

والمعنى : أن عشيقته في جيدها وعينها ، كانها الغزال الذي كانه بين
نبات الخلّة ، سوار الجارية المتهالكة في المشى أو البنى !

فما هذا كله ! وأى شيء تحته !

وقد أنشد ديك الجن شعره هذا دعبلأ الخزاعي فقال دعبل : أمسك
فوالله ما ظننك تم البيت الأول ، إلا وقد غشى عليك ! أو تشكيت فكيف
ولكانك في جهنم تخاطب الزبانية ، وقد تحببك الشيطان من المس !

ولإنما أراد ذلك الجن أن يهول عليه ، وبقرع سمعه عسى أن يردعه ،
فسمع منه ما كره أن يسمعه ولعمري ما ظلمه دعبل ١ .

ولقد أبعد ذلك الجن مسافة الكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت فيصح
من جميع جهات :

منها إضمار ما لم يذكر قبل ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولا أكثر
استعماله فيشهر .

ومنها إحالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذي هو حشو فارغ .

ومنها استدعاء قافيته لا لشيء إلا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ١

ثم ما الذي يريد ، يغم ، في تشبيه الوقف — وهو السوار — ؟

ولم كان الوقف للملوك خاصة (١) ١

الفصل السادس

أثر البيئة في التشبيه

حينما ننعم النظر في التشبيهات التي تعرض لنا ، لا يُعِيننا كثيراً أن
ننسبها إلى عصورها التي قيلت فيها ، كما نستطيع أن نقيّم مظاهر البيئة الطبيعية
التي أحاطت بأصحابها ، وألوان المعارف التي ألموا بها ، ومبلغ حظهم من الرقي
والتاخر ، والرفاهية والخشونة ، والفن والفقر وما إلى ذلك .

وليس ذلك بعجيب ، فإن خيال المنشئ كاتباً كان أو شاعراً أو خطيباً
يستظهر في تأليف صورته وتخييرها بالمعلومات المخزنة لديه .

وهذه المعلومات يلقفها عما تقع عليه حواسه ، أو يقبسها من موارد
العلوم والآداب ، والثقافات المختلفة التي حصلها ، أو يستعملها من التجارب
الشخصية التي مرت به في الحياة ، وهذه كلها حقول خصية لا ينفد تاجها
ولا يفتن محصولها .

فالبيئة التي نعيشها هنا هي ما أرادته مدام دي ستايل ، : من أنها معنى
يتسع لكثير من الاعتبارات الاجتماعية ؛ مثل الدين والخلق والعادات
والقوانين التي تؤثر في الآداب ...

وقد كانت هذه الأدبية الكبيرة تعلق على مسألة البيئة كثيراً ، وترى أنها
وحدها مبتكرة وأنها فنية ومُعينة على الفن ، ولا تفهمها على أنها طبيعية
فقط ، ولكن على أنها خصائص مادية وعقلية وروحية .

ثم هي ترى أن البيئة أوجدت أدبا ، وأوجدت الفروق بين الآداب ،
فإذا كان أدب الجنوب في أوروبا كلاسيكياً اتباعاً ، فلأنه قريب من الأدب

اليوناني واللاتيني ، وإذا كان أدب الشمال رومانسيا ابتداء ، فلأنه من أدب البحار ، استمد الغيوم والسحب ووصف المخاوف والمفاجآت ، ووصف المحيطات وما حولها من أقاصيص .

ولعل نشأة أدب الفضة في الشمال ينسب إلى البيئة أيضا ، وما يلتف حولها من أخيلة ، مسكنها الأحراش والأدغال ، ومسرحتها أخطار البحار وأخطار الأسفار ، وتصورات الملاحين^(١) .

وفي ظل البيئة الشرقية قامت فنون أدبية خاصة اتسمت بسمايات خاصة ، كوصف الرياض والأزهار والأثمار والفواكه والنسيم ، ومظاهر الربيع الفاتنة البهيجة في البلاد الشجرية التي تمتاز فيها الفصول تمايزاً ملحوظاً .

وكوصف النار وموافدها وآلات التدفئة ، والتاج والبرد في البلاد التي يقسو فيها الشتاء ، وبشتد الزمهرير ، وبكلب الصقيع .

وكوصف السحب والرعود والبروق والصواعق في البلاد القائمة الأجواء ، الغزيرة الأمطار .

وكوصف الأديار والخر المعنق والديك والرهبان ، والنسيب بالرواحب ، الكتايات الجيلات في البلاد التي يكثر فيها المسيحيون واليهود والصابئة .

وكوصف المواسم الدينية وحفلاتها ومباهجها في مصر أيام العهد الفاطمي .

وكرثاء المدن الذاهية ، والاستنجاد بالرسول والأولياء وملوك المسلمين في الأدب الأندلسي .

وكالحاسة الصارخة بالدم ، والدعوة إلى الجهاد ، والشغف بالاستشهاد في أدب الخوارج .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب - ٢٧١ .

وكالاتهاال العميق والرثاء الفاجع والحزن الغامر في أدب الشيعة
وهكذا.

ومن ثم كان لابد أن تختلف التشبيهات في أساليبها ومعانيها وأخيلاتها
باختلاف صُوِّاغها الذين يختلفون في المربي والمنشأ والثقافة والزمن ،
والنظر إلى الأشياء وتناولها وتقديرها والحكم عليها .

ولقد صدق أحد الفلاسفة في قوله : إني لا أسأل عن السبب في أن
معنى من المعاني يدعو آخر وبأخذ بتأحيته ، ولكنني أبحث في شيء آخر وهو
أن المعنى الواحد قد يختلف تواليه باختلاف الأشخاص .

ثم يقول : ويمكن الجواب عن هذا : بأن الناس يختلفون في ميولهم
ومشاعرهم وجهتهم في الحياة ، فكل معنى يدعو لأصحابه ما هو الحق بميله
وأقرب إلى عمله^(١) .

فتلا إذا سمعنا هذا البيت :

وكلفتنى ذنب امرئ وتركته كذى العرب يكوى غيره وهو رائع^(٢)
حكمتنا : بأنه من آثار الجماهوية ؛ فإنه يشير إلى عادة من عاداتهم ؛ وذلك
أنهم كانوا يزعمون : أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصبح وكووه
زال العر عن السقيم^(٣) .

والبيت للناطقة الذبياني

وقول شاعر :

بدلته الشمس من منبتها رداً أبيض مصقول الأثر^(٤)

(١) الخيال في الشعر العربي — ١٨ .

(٢) العر بالفتح والضم : الجرب ، وبالضم : أروح في أعناق النملان ، وداء يمسح
منه وبر الإبل .

(٣) نهاية العرب — ٣ — ١٢٣ .

(٤) الأثر بضمين ، وبخم وفتح : التحزير في الأسنان خلقة واستعمالاً .

وذلك أن غلاتهم كانوا إذا سقطت أسنانهم ، رموا بها في عين الشمس
 بمسبباتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدلنا أحسن منها .
 ولا تزال هذه العادة جارية في القرى حتى اليوم .
 والبيت لطرفة بن العبد .
 وقول آخر :

إني وقتلي سُلَيْكًا ثم أعفكـه كالنور بضرب لما عافت البقر
 فقد كان من عاداتهم — إذا امتنعت البقر عن الشرب حين الورد —
 ضربوا الثور ، لتخاف وترد الماء .
 والبيت لأنس بن مدرك الحثعمي .

وكذلك إذا سمعت التشبيبات الآتية لم تتردد في الحكم عليها : بأنها
 نتاج الجاهلية ، أو نتاج الصغراء دون أن تعرف أسماء أصحابها ، كقول
 امرئ القيس :

ترى بحر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبّ فلفل
 والأرام : الظباء البيض الخالصة للبيض ، وهي تسكن الرمل عادة .
 وقوله :

كأن غداة الين يوم تحمّلوا لدى سمّرات الحى ناقف حنظل
 وناقف الحنظل ينسقفها بظفره ، فإن صوّنت علم أنها مدركة فاجتناها ،
 فميتة تدمع لحدة الحنظل وشدة راحته ، كما تدمع عيننا من يدوف الخردل .
 فشيء نفسه حين بكى بناقف الحنظل (١) .

وقول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذئاب عيش أجب الظهر ليس له سنام

الاجب : المقطوع السنام من الإبل .

والتشبيه صورة واضحة من صور البداوة .

وقول رضرار السعدى :

وإنى وتهاى بزئب كالذى تطلب من أحواض صدها مشربا

وصداه ككتان : ركية أو عين ليس عندهم أعذب منها .

وقول العملى بن عقيل لأبيه :

أكلتَ بنبك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلاء الويل

وكانوا يقولون : إن الضب يأكل أولاده عقوقا منه لها ، والقطة

تأكل أولادها حبالها .

أما ترى القطة من ودادها تأكل ماعز من أولادها

وقول أبي ذؤيب الهذلى - يصف حمر الوحش - :

يمثرُن فى علقِ النجيع كأنما كسيت برودَ بنى يزيد الأذرع

يصف أذرع الحمر الوحشية - وهى تعثر فى الدم - بأنها كسيت هذه البرود

المنسوبة إلى بنى يزيد وهم بطن من قضاة .

وقول عبدة بن الطبيب فى الصعلكة :

نمّست قنأ إلى جُرد مسومة أعُرافهن لأيدينا مناديل

وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :

نمّشُ بأعراف الجياد أكنأ إذا نحن قناعن شواء مُضْطَهَب

المش : مسح اليد بالمشوش لتنظيفها وقطع دمعها ، والمضْطَهَب المشوى على

الحجارة المحمأة ، والذي لم ينضج ، وقد كانوا يمسحون أيديهم بعد الأكل

فى أعراف الخيل .

وقول جيهاء الأشجعي :

كَانَ أَجِيجُ النَّارِ إِذَا مُمْ شَخْبَهَا إِذَا امْتَاَحَهَا فِي رِجَابِ الْحَيِّ مَانَحِ
الشَّخْبُ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحُ : مَا خَرَجَ مِنَ الضَّرْعِ مِنَ اللَّبَنِ ، وَالْإِرْزَامُ :
الصَّوْتُ .

شبه ضرع العز بالكبر ، وصوت الحلب بالأزير .

وقول سويد بن أبي كامل البشكري :

وَجَفِيَانُ كَالْجَوَابِ مُلَّتْ مِنْ مَحَبَاتِ الذُّرَا فِيهِ تَرْجَعُ^(١)

وقول عوف بن عطية بن الحرّج - يصف فرسه - :

لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَتْعَبِ الْوَلِيدِ يَتَخَذُ الْفَارَ فِيهِ مُفَارَا

لَهَا كَفَلٌ مِثْنُ الطَّرَا فَمَدَّدَ فِيهِ الْبِنَاءَ الْحِثَارَا

وقول عنبرة :

بَطْلٌ كَأَنَّهُ ثِيَابُهُ فِي مَسْرَحَةٍ يَحْدَى نَعَالُ السَّيِّئِ لَيْسَ بِتَوْمٍ

السبت بالكسر : جلود البقر ، وكل جلد مدبوغ ، أو مدبوغ بالقرظ .

والنعال السبتية لم يكن يحتنوها بينهم إلا كل رجل شريف ، فوصف

عنبرة من قتله بأه كان ملكا .

وقول مُزَرَّدُ أَخِي الشَّيْخِ :

وَأَسْحَمُ رِيَانِ الْقُسْرُونَ كَأَنَّهُ أَسَاوِدُ رِمَانِ السَّيَاطِ الْإِطَاوِلِ

الأساود : الحيات السود ، وريمان بفتح الراء : موضع ببلاد طي .

والسياط : اللينة .

يشبه شعر محبوبته بحيات هذا المكان اللينة الطوال .

(١) الترع : الدلوقة .

(٢) الطراف بالكسر : البيت من الأدم ، والخار بالكسر : الحبل .

وقوله يصف الريح :

أصم إذا ما هز ما رت سراته كما مار ثعبان الرمال الموائل

سراته : أعلاه ، والموائل : المحاذر الذي يلتصق النجاة .

يشبه الريح - إذا اضطرب أعلاه لدى هزه - باضطراب ثعبان

الرمال في مشيه ، حين يبتغي الملجأ ويطلب السلامة .

وقول جبران العنود :

الا لا يغرن أمرأ توفلية على الرأس بعدى أو ترائب وُضَّح

ولا فاحم يسقى الدهان كأنه أساور يزهاها لعينك أبطح

التوفلية : ضرب من المشط ، أو شئ يتخذ ذساء الأعراب من صوف

يكون في غلط الساعد ، ثم يحشى ويعطف ، فتضعه المرأة على رأسها ثم
تختمر عليه .

وزهاها : يرفعها ويحركها .

شبه شعرها الفاحم الدهين ، بالحيات المضطربة في المسيل الواسع ، به

دُقاق الحصى .

وقول الشيباني .

وللعنلى وسواس عليها إذا مشت كما اهتز في ريج من الصيف عشرق

العشرق بالكسر : شجر قدر الفراع ، لها حب صفار إذا جف صَوَّت

بمرور الريح .

شبه وسوسة الحلى لدى مشيها ، بصوت هذا الشجر إذا حركته الريح .

وقول رجل من عبد قيس :

تركت الريح يبرق في صلاه كأن سنانه خرطوم نسر

الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذي أربع ، والخرطوم :
المراد به منقار النسر .

شبه الرمح بمنقار النسر في دقته ونفاذه .

وقول عمرو بن الأيهم التغلي في الخيل :

وتراهن شزبا كالسعالى يتطامن من ثغور نقاب
الشرب : الضوامر ، والسعالى : الغيلان ، أو ساحرات الجن جمع سعالاة
بالكسر ، والنقاب : طرق الجبال .

شبه الخيل في ضمورها وألوانها المختلفة بالسعالى .

وقول عويمر النبهاني :

فبت معنى بالهموم كأننى سليم نقي عنه الرقاد الجلاجل
شبه نفسه في همومه المنفرة للنوم عنه ، بالملدوغ تعلق عليه الجلاجل
حتى لا ينام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملدوغ إذا نام سرى السم في جسمه
وقول شاعر رججو كعب بن مجعيل التغلي :

ومسيت كعبا بشرى العظام وكان أبوك يسمى الجععل
وكان محلك من وائل مكان القراد من است الجمل
يصفه بأنه ينزل من القبيلة أحط المنازل ، كما ينزل القراد في أخس
المواقع .

والتشبيه ثابت في معاطن الإبل :

وقول عروة بن الورد - يمدح صعلوكا مثله (١) - :

مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشمر
المنيع بالفتح : من قدام الميسر التي لاحظ لها كالسفيح والوغد (٢) :

(١) ديوان الحماسة - ١ - ١٦٠ .

(٢) الميسر والأزلام - ٢٧ .

والمعنى : أنه مطل على أعدائه بالغارة فيدفعونه عن ساحتهم ؛ كالقذح
الذى لا حظه له ، ينقر منه كل واحد فهو مدفوع أبدا .

وقول أبي تمامة الضبي :

تجأرك عند بيتك لحم ظبي وجارى عند بيتي لا يرام

يقول له : إن جارك لضعفك ذليل معتدى عليه ، مثل ظبي يتناول كل
مفترس ، وجارى لقوته عزيز لا يستطيع أحد أن يصل إليه بأذى .

وقول يجمع بن هلال :

وخيل كأسراب القطا قد وزعها لها سبيل فيه المنية تلعب

السبل محرقة : المطر ، ووزعها : كفها .

شبه الخيل في اجتماعها بأسراب القطا ، وتنايعها في الغارة بتنايع

المطر وتدفعه .

وقول الأحنس بن شهاب التغلبي :

ترى رائدات الخيل حول بيوتنا كعزى الحجاز أعجزتها الزرائب

الرائدات : التي ترعى ولا تعلف في البيوت .

شبه عيولهم بكثرة حول بيوتهم . بعزى الحجاز التي لا تتسع لها الزرائب :

وقول امرأة ترثي أباهما :

إذا ما دعا الداعي عليا وجدتي أراع كراع العجول مهيب

العجول : الناقة التي فقدت ولدها ، والمهيب : الراعى الذى ينادى لإبل .

شبهت نفسها بأنها تراع — إذا سمعت اسم ولدها — كما تراع الناقة

الفاقدة إذا ناداها الراعى ؛ لأن فقدتها ولدها جعلها تفرع لأقل الأسباب .

وفي معناه يقول المجنون :

وداع دعا إذ نحن بالحيف من مني فمسيح أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائرا كان في صدرى
 وقول عبد الله بن عجلان الهندي :
 جديدة مريال الشباب كأنها سقيئة بردى نمته تحبوها
 السقية : المسقية ، والبردى : نبت ناعم ، والغبول : الوديان تسيل
 فيها العيون ؛ جمع غيل بفتح الغين .
 شبهها في نضارة شبابها وميعة صباها ، بنبتة من البردى تسقى بماء الوديان .
 وقول عروة بن حزام :
 كان وشاحيها إذا ما ارتدتتهما وقامت عنانا مهرة سلسان
 شبه وشاحيها في حال قيامها بعناني المهرة المسترسلان .
 وقول الشماخ بن يعمر الكنتاني :
 كلما حاربت خزانة تحمدو — في كأي لأهمهم جمل
 وقول الحارث بن وسلة الجعفي :
 ووطئنا وطأ على حنق وطء المقيد نابت الهرم
 الهرم بإسكان الراء : شجر ضعيف :
 شبه وطأهم بوطء البعير المقيد ؛ لأنه يكون أثقل لعدم تمكنه من
 وضع قوائمه حسب إرادته .
 وقول رشيد العنبري :
 بانوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم
 ابن هند : شريح بن ضبيعة ، والزلم : واحد الأزلام ، وهي السهام التي
 كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .
 وقول متم بن نويرة — يصف حمار الوحش وأناته — :
 يعدو تبادره المخارم تمنحج كالذلو خان رشاؤها المتقطع

الضمير في يعدو لحمار الوحش ، والمخارم الطرق في الجبال ، وأفواه
الفجاج ، والسمجج : الصلبة القوية يريد بها الأتان .

شبهها في سرعتها بالدلو حين انقطع رشاؤها فسقطت في البئر ، فهو
يعدو ، والأتان تسابقه .

وقوله - يصف السيف - :

ولقد ضربت به فتسقط ضربي أيدى الحكاة كأنهم الخروع
شبه سقوط أيدى الحكاة حين يضربها بسيفه بسقوط الخروع ، لأنه
شجر لين .

وقوله :

وأرملة تمشي بأشعث محتل كفرخ الحبارى رأسه قد تضوعا
الأرملة : التي مات زوجها ، والأشعث المتبد الشعر ، والمحتل : الذي
أسيء غذاؤه : يريد به ولدها ، والحبارى : ضرب من الطير ، وتضوع :
تفرق ، يريد شعره .

شبه ولد هذه الأرملة في مظاهر الضر البادية عليه : بفرخ الحبارى
المتفرق شعر الرأس .

وقول الشنفرى - يصف حركات السيوف - :

تراها كأذ ناب الحسيل صوادرا وقد نهلت منه الدماء وعلت
الحسيل : أولاد البقر جمع حسيلة .

شبه السيوف بأذنان أولاد البقر ، حين تحركها إذا رأت أمثاتها .

وقول نعلبه بن صعيير المازني في وصف النعامة :

فبنت عليه مع الظلام خباهها كالأحمسية في النصف الحاسر

الضمير في ، عليه ، لبيض النعامة . والأحمسية : المرأة المنسوبة إلى

الحسن ، وهم : قريش ، وخزاعة ، وبنو عامر ، وكنانة ، وجديلة ؛ سموا بذلك لتحمسهم في دينهم ، أو لالتجائهم إلى الحساء وهي الكعبة ، والنصيف ؛ القناع ، والخامر : الكاشفة لوجها ورأسها .

شبه النعامة في جثومها على بيضها ، بالمرأة الاحمسية المتحفقة بقناعها والخامر عن وجهها ورأسها .

وقول المثقب العبدى - يصف الخيل - :

وأمكن أطراف الأسنة والفنا يعاسيب قود كالثنان خدودها

اليعاسيب : أراد بها كرام الخيل ، والقود : الطوال الأعناق جمع أقود وقوداء ، والثنان : القرب البالية جمع شن بالفتح وتشديد النون .

شبه خدود الخيل في قلة لحمها بالقرب البالية .

وقول مسبيح بن الحظيم التيمي - يصف المطر والنبات - :

تنقى الحصى حجارته وكأنه برحال حمير بالضحا محفوف

الحجرات بالفتح : النواحي ؛ يريد أن شدة وقع السحاب نظير الحصى ورجال حمير : أراد بها ألوان النبات الناتج عن المطر .

شبه النبات في اختلاف ألوانه برحال حمير المختلفة الألوان ؛ لأنها رجال ملوك .

وقول بشر بن حازم في وصف الفرس :

كان سرائه والخيل مشعث غداة وجيفها مسد مغاز

سرائه : أعلاه ، ومشعث : غير من طول السفر ، والوجيف : المر المرابع ، والمسد : الخيل ، والمغاز : الشدبد القتل .

شبه أعلى ظهره في شدته واملأه واستوائه ، بالحبل الشديد القتل .

وقول المرقش الأكبر - يصف الظعن - :

لن الظعن بالضعفا طافيات شبهها الدوم أو خلايا الصفيين
الظعن : الإبل بهوداجها فيها النساء ، وطافيات : عاليات ، والخلايا :
السفن العظيمة .

شبه الهوداج المضروبة على النساء فوق ظهور الإبل عاليات - كأنها
تسبح في ضياء الضعفا - بشجر الدوم ، أو بالسفن العظيمة فوق ظهر البحر .

وقول ذى الرمة :

حديث كوقع القطر في المحل يشتق به من جوى في داخل القاب لاطف
اللاطف : اللاصق .

يشبه أثر الحديث في إروائه الغلة ، وشفائه العلة ، بأثر الغيث في الأرض
المجدبة ، ينجيها من الموت فتمتز وتزبر .

وقول مسكين الدرامي :

كان قدور قوى كل يوم قباب الترك ملبسة الجلال
كان الموفدين بها جمال طلائها الزفت والقطران طالى
بأيديهم مغارف من حديد أشبهها مقبرة الدوالى
شبه قدور قومة في عظمها واتساعها وسواد ظاهرها ، بقباب الترك التى
ألبست أغطية سودا .

وشبه الموفدين بها - أى المشرفين عليها - بالجمال المظلية بالزفت
والقطران لما أصابهم من السواد .

وشبه مغارف الحديد التى بأيديهم ، بالدلاء المغلية بالفار وهو الزفت

والصورة معرقة في الهداوة والخشونة ، ويكفي أن تغرق في الزيت
والقطران إلى هذا الحد

وقول شاعر - يصف الصحراء - :

كأن قلوب أدلائها معلقة بقرون الظباء

الأدلاء : الذين يهدون الناس ، والضمير فيها يعود إلى الصحراء .

وصف قلوبهم بالوجيب والاضطراب في أحوال الجزع والحلمع .

وإنما خص الظبي لأن قرنه أكثر تحركا واضطرابا ، لنشاطه ومرحه
وسرعته^(١).

وقول آخر :

كأن لون البيض في الأدحى لوك لولا صفرة الجادى

الأدحى : مكان بيض النعام في الرمل ، والجادى : الزعفران .

يريد : أن لونها أصفر لتضمنها بالزعفران ، وكانت العرب تحب ذلك^(٢).

هذه التشبيهات كلها تلي - بصورها ومعانيها وأخيلتها ودلالاتها وانزعاجاتها
وبما تضمنته من أخلاق وعقائد وهادات ، بأن قائلها إما أن يكونوا من أهل
الجمالية ، أو من سكان البوادي ؛ لأنها بكل شيائها وسماتها بعيدة عن منازع
الحضرين .

ولاربية أن كثيرا من أمثال هذه التشبيهات ، لا يحل في صدورنا ولا يندى
على أكبادنا ، لأن بينه وبين أذواقنا حجبا كشيئا يجعلنا نشيح عنه ونفر منه
لاختلاف الطبيعة والبيئة وبعد العهد ، إلى غير ذلك مما يلون النظر إلى الأشياء
ويوجب التنافر .

(١) أمالي المرتضى - ٢ - ٩ .

(٢) ديوان الصباية - ٩٩ .

فثلا كانوا يشبهون الثغور قديما بالسيال ، وهو ثبت له شوك أبيض طويل ، إذا نزع خرج منه اللين ، أو هو ما طال من الشمر .

ومن ذلك قول نابغة شيبان :

فهى يصب حور تبسم عن غر م وأنيابهن شوك السيل
ونحن لانستملح تشبيه الثغور الرقيقة الوضبة بالشوك ؛ أيا كان حسنه ومزيته .

وبخاصة أننا لم نر هذا النوع من الشوك الذى استحسناه فأناس به ونألفه .
وكانوا يشبهون خصور الحسان بخصور الزناير كما قال عمر بن أبي ربيعة :
وثلاث لفيت في الحج يوما كظباء المها ملاح ظراف
يتقابلن كالبدور على الأغصان م في مثل من الأرداف
بخصور تحكى خصور الزناير م رفاق هممن بالانقصاف
وقد جرى كثير من الشعراء في هذا النهج حتى الشاعر المصرى الموسوم بالرقعة والظرف البهاء زهير ، حيث يقول في وصف مجلس أنس جمع غادات مسيحات :

وجوه كالتصاوير نصلى للتصاوير

ومن تحت الزناير خصور كالزناير

وخصور الزناير دقيقة رقيقة ناعلة كأشد ما يكون النحول ، ولكن أذواقنا العصرية المرفهة اليوم تضيق بهذا التشبيه ، ولا ترى في الزناير إلا أنها حشرات مزججة مؤذية ضارة ، وأسمائها ثقيلة على السمع ؛ تشير إلى أشياء يستعيا منها .

ولو أن إنسانا في عصرنا قال لشوواء به حسناء : إن خصرك كخصر الزنهار ؛ ما استطاع أن يخلص منها سليم الأديم .

وكانوا يشبهون مشية المرأة بمشية الحية أو الثعبان أو الحباب — كما سبق — أو الأيتم^(١) كقول بعض الشعراء :

تسبب انسياب الأيتم أحصره الندى فرفّع من أعطافه ما ترفعا
يعنى : أنها تتدافع في مشيتها تدافع الحية التي بالدعها برد الندى ، فترفع
ماتقدّر عليه من أعطافها .

ولا شك أن للحية انسياها ، رهوا ، مع السرعة الغريبة ، ولا سيما إذا كلب
عليها برد المطر وغمز جلدها ، ولستأمع ذلك لارضى للغبىد الأماليد
تلك المشية ، ولا يرضيها لأنفسهم وإن رضى هذا الشاعر .
وبخاصة أن العرف جرى على تشبيه المرأة بالحية في المكر والدهاء
واللؤم والخبث والديس .

ومن ذلك أيضا : أنهم كانوا يسمون المرأة الجرباء
والجرباء في الأصل : السماء ، أو الناحية التي يدور فيها فلك الشمس
والقمر .

وقد سميت السماء بذلك تشبيها لانجومها بآثار الجرب .

وسميت بهذا الاسم بنت قسامة الطائية لحسنها الفائق ، فقد كانت لا تنف
إلى جنبها امرأة — وإن كانت جميلة — إلا استقبح منظرها لجمالها
فكان النساء يتحامين أن يقفن إلى جنبها ، فشبهت بالثنافة الجرباء ، التي
تتوقاها الإبل مخافة أن تعديها .

ثم أطلق هذا الاسم على كل جارية حسناء^(٢) .

وآثار القدامى حافلة بالنشيدرات التي استمدوها عما أحاط بهم وأثر فيهم

(١) الأيم فتبع وسكون وبكسر المزة أيضا : الحبة الأبيض اللطيف أو هو علم .

(٢) الأغاني — ١٨ — ٢٠٣ — ساسى .

وقد حرصنا على إيراد صدر صالح منها فيما تقدم .
ونضيف إلى ذلك أن بعض الشعراء عرف بألوان من الأوصاف
والتشبيهات ، كوصف النور الوحشي ، وتشبيه النعامة للطرشاح .
ووصف مغارز ريش النعام - إذا تساقط - للشماخ
وتشبيه بيت العنكبوت بما يمتد من زبد الدافة تحت لحبيها في شعر الحطيطه
وتشبيه المذباب بالأجنم ، ولحي الغراب بالجلم لعنترة .
وأشبه ذلك مما انفردت به الأعراب في البادية كعاداتها ، مثل انفرادها
بصفات النيران والفلوات الموحشة ، وورود مياهها الآجلة ، وتعسف
طرقاتها المجهولة ، إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً إذ كان المحدث غير مأخوذ
به ولا محمول عليه .

على أن المحدثين قد شاركوا القدماء في كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن
أولئك أولى به ، وأحق بالتقدمة فيه ، كما عالجوا في صفات النجوم ومواقعها
والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما يفتت عنه ، وبكاء الحام
وكثير مما لا يتسع له هذا الباب (١) .

ومن هذا ما ينماق بالخيران الذي شاهدوه وخبروا طباعه خبرة تنم عن
ملاحظة واسعة دقيقة ، كقولهم : أجزأ من الليث ، وأجبن من الصافر (٢) ،
وأسنخ من لائحة (٣) ، وأصبر على الهوان من كلب ، وأحذر من عققع (٤)
وأزهي من غراب ، وأصنع من سُرفة (٥) ، وأظلم من حية ، وأغدر من ذئب ،
وأخبث من ذئب ضمر ، وأشد عداوة من عقرب ، وأروغ من ثعلب ،
وأحق من حباري ، وأهدى من قطاة (٦) ، وأكذب من فاختة (٧) ، والأم

(١) المدة - ٢ - ١٨٦ - ١٧٧ .

(٢) الصافر : طير جبان أو ما لا يصيد منها .

(٣) من معانيها الرحن لأنها تجود بالدين .

(٤) العنق : طائر أبيض ينادي ويأني يشبه صوته صوت العين والقاف .

(٥) السرفة : دابة تتغذى بها من دنان البندان فتدخله وتغوث فيه .

(٦) لأنها تصبح طامناً .

(٧) فاختة : طائر .

من كلب على جيفة ، وأجمع من ذرة^(١) ، وأعق من ضب ، وأبر من هرة ،
وانفر من ظليم ، وأضل من حمار أهلى ، ومن ضب ، ومن حية .

فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس في موضع الإحسان
والإساءة ، حتى كأنهم من الملوّمين والمشكورين .

ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير ، ويجعلون خيبرم
مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والفوى ، فيقولون : أبصر من عقاب ،
وأسمع من فرس ، وأطول كدما من ضب ، وأصح من ظليم^(٢) .

وكانوا يقولون : ما هو إلا تيس في سفينة إذا أرادوا به النجاة .
وما هو إلا تيس إذا أرادوا به أن الریح .

ويقولون : حية الأرض : للرجل المتبع الجانب ، كما يقولون : حية الوادى ؛
قال ذو الإصبع العذرائى :

عذير الأرض من عدوا ن كانوا حية الأرض
ويقولون : أسرق من ذبابة .

وهى فارة صماء تضرب بها العرب المثل ، ويشبهون بها الجاهل .

قال ابن حنبل في البشكري :

وهم ذباب حائر لا تسمع الأذان رعدا

وسميت النجوم بالعقرب تشبيها بها^(٣) .

ويشبهون السبر بقسراضة الذهب ، وبمناخير النسفران^(٤) ، والرماح
بالأشطان ، والأسنة بالشهبان .

(١) الذرة : النلة :

(٢) الدماء بالفتح : بقية النفس .

(٣) الحيوان — ١ — ١٠٤ .

(٤) أدب الكاتب — ١١٥ — ١١٦ .

(٥) النفران بالكسر : الليل ، وأفراخ المصابير جمع نمر كسر .

ويقولون للخطيب : كأن لسانه مبرد ، ولطويل : كأنه ربح ، وللهي
كأنه غصن تحت بارح^(١) .

ويُسَمُّون الرجال الساقطين بالنساء الخبيض ؛ قال الشاعر :
أفي السلم أعيارا جفاء وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك^(٢)
سُمِّبهم في السلم بحمر الوحش في جفائهم وغلظتهم على الأقارب لشعورهم
بالآمن .

وسُمِّبهم في الحرب بالنساء الخبيض لما يبدو عليهم من الذلة والازواء .
ويقولون : أسخى من حاتم ، وأجود من كعب بن عتبة ومن هريم ،
وأقرى من مضاعيم الریح ، وأشجع من ربيعة بن مكرم ، وأعز من كليب
وائل ، وأسود^(٣) من قيس بن عاصم ، وأحلم من الأحنف بن قيس ، وأذكى
من إياس بن معاوية ، وأذكى من البراض بن قيس التميمي ، وأوفى من
الحارث بن عباد ومن عوف بن مُحَلِّم ، ومن هاني بن قبيصة ، ومن السموم
ابن عادي ، وأجل من ذي القعدة^(٤) ، وأضنى من سُلَيْك المقاتب ، وأغلى فداء
من حاجب بن زُرارة ، ومن إسظام بن قيس ، ومن الأشعث ، وأعدى من
الشنفرى ومن السُلَيْك بن السُلَيْكَة ، وأبطأ من فند ، وأنعم من عبود
ومن مُخَرِّم الناعم ، وأبلغ من سحبان ، وأخطب من سحبان ، ومن قيس بن
ساعدة ، وأعيان من باقل ، وأبر من العملىس ومن قُلْحَحَس ، وأسأل من
قُلْحَحَس ، وأبطش من كوثمر^(٥) ، وأهدى من قيس بن زهير ، وأفرغ
حجّام ساباط ، وأندم من الكُوسَى ، وأمنع من الحارث بن ظالم ،

(١) البارح : الریح الشديدة ، وريح الصيف الحارة .

(٢) الأعيار : جمع عبر وهو حمار الوحش ، والعوارك : الخوافض جمع عارك .

(٣) أكثر سوددا .

(٤) هو سعيد بن العاص الأموي .

(٥) كتيبة النعمان .

وأخيب صفقة من شيخ مهو ، وأخسر صفقة من أبي غبشان ، وأحمق
من راعي ضأن ثمانين ، ومن ربيعة البكتاء ، وأنيه من أحمق ثقيف ،
والص من شظاظ ، وأزنى من فرد ، وأمكر من قيس بن زهير ، وأبخل
من مادر ، وأضل من سنان ، وأكذب من مسيلة الخنفي ، ومن المهلب ،
وأحمق من هبشة ، وأمطل من عرقوب ، وأشأم من خوتعة ، ومن قدار
ومن أحمق نمود ، ومن كطونيس ، ومن البسوس ، وأنجب من مارية ، ومن
بنت الخرشب ، ومن أم البين ، ومن عانسكة ، وأبصر من زرقاء اليمامة ،
وأمنع من أم رقرة . وأسرع من نكاح أم خارجة (١) .

وقد جمع زيد بن جندب الإباضي عدة تشبيهات مأثورة عنهم في رثاء
داود بن جرير الإباضي حيث يقول :

نمي ابن جرير جامل بمصابة فعم نزارا بالبكا والشحوب
نعاه لنا كالليث يحمي عرينه وكالبدر يغشى ضوءه كل كوكب
وأصبر من عود وأهدى إذا جرى من النجم في داج من الليل غيب
وأدرب من حدة السنان لسانه وأمضى من السيف الحسام المشطب
وانك لتستطيع أن تتعرف من الآيات الآنية على العصر الذي قبلت
فيه ، وعلى حظ أصحابها من الثقافة والمدنية دون أن تقف على أسمائهم .

قال شاعر :

عهدي بهم تستنير الأرض إن زلوا فيها ونجتمع الدنيا إذ اجتمعوا

(١) انظر تفصيل ذلك وشرحه في نهاية الأرب — ٢ — ١٨٠ إلى ١١٤ .

(٢) البيان والبيان — ١ — ٥١ .

(٣) النحوب . التوجع ، والدود يفتح فكون : الجمل السن .

(٤) المشطب : ما غبة طرائق .

ويضعك الدهر منهم عن غطارقة كان أيامهم من أنسها يجمع
فكلمة الجمع تدل على أن الشعر متأثر بالشعار الإسلامية ، وأنه محال
أن يكون من آثار الجاهلية .

والشعر لأبي تمام الطائي .

وقال شاعر :

كانه وهو في البرج المنيف به شمس البرية لا نار على علم
والبيت تبدو عليه شارة الحضارة ، وبخاصة إذا قسته إلى قول الخنساء :
أغر أبليج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فالأول : شمس في برج عال ، والثاني : جبل في ذروته نار .

فالاختلاف بين النظرة البدوية والحضرية واضح كل الوضوح .

والبيت الأول لابن الرومي يمدح به أبا العقر الشيباني .

وقال شاعر :

كان خضرة نقش في معاصمها كسباك مسك على كف من البرد
فن ملا مقلبه من محاسنها كان الأمان لعينه من الرمد
وقائل الشعر غير معروف ، ولكنك تحكم مطمئناً بأنه قيل في حسان
من حسان العصور القديمة ، أو حسان قروية من حسان العصر الحاضر ،
ولكنها لن تكون على كل حال من حسان المدن المتنفذات الأرستقراطية
لأنهن يستنكفن من الوشم .

وقال شاعر :

وأنت أنذر من لاشيء في العدد

وهذا شعر عليه طابع الثقافة اليونانية ، فلا بد أن يكون عباسياً .

والبيت لأبي تمام .

وقال شاعر :

وكان عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته
والشعر ينفج بأريج الزينة والتجمل الذي نشرته الجوارى في العصر
العباسي ، فقد كن يعملن شعر أصداغن على صورة الواو أو النون
أو العقرب .

والشاعر : ابن المعتز .

وقال شاعر :

أضحى لبوسف في الجمال خليفة يحشاه كل العائين إذا بدا
عرج ممي وانظر إليه لكي ترى في خده عَمَلُ الخلافة أسودا
يريد بعلم الخلافة : الخال .

وعلم الخلافة الأسود دليل على أن الشعر عباسي لا أموي ؛ لأن شعار
بنى العباس كان السواد .

وقال الصولي — يصف الرمى في العيون الجميلة — :

يكسر لى طرفا به حمرة قد خلطت النرجس في ورده
ما احمرت العين ولكنه يكحلها من وردى خده
وقال آخر :

قالوا بدت في عينه حمرة قد حازها من وردة الخد
فقلت لم يرمى ولكنه يصافح النرجس بالورد
فهذه العين الرمضاء في كلا الشعرين لا يشك أحد في أنها عين تنسب
إلى الشرق لا الغرب .

ولو كان لونها يخالف تلك الألوان الشرقية المألوفة ، لآلح الشاعر إليها
بأله ، ولما فاته أن يشير إليها .

ولكننا حينما نقرأ هذا البيت :

والورد في شط الخليج كأنه رمد ألم بمقلة زرقاء
يغاب على ظننا أنه تاج بنة غريبة ، وأن هذا الشاعر عاش في بلاد
تكثر فيها العيون الزرق ، فارتسمت صورتها في خياله .
وهذا هو الواقع ، فإن الشاعر أندلسي البنية ، وهو صفوان بن إدريس
الأندلسي .

ثم تأمل فيما يلي قول الشاعر :

أحبته كالغصن كم شاعر له عليه نوح ورقاء
وتغره الصادي من حسنه يحسار في تشبيهه الرائي
الصادي : نسبة إلى حرف الصاد ، والفم يشبه بها .

وقول آخر :

ورجته قد غدت كالورد حمراء وأشبهه الأسـ ذاك العارض النضر
كان موسى كليم الله أقبسها نارا وجر عليها ذيله الحضر
وقول آخر :

قبلتها ورشفت خمرة ريقها فوجدت نار صباية في كوثر
ودخلت جنة وجهها فأباحني رضوانها المرجو شرب المسكر
فهذا الشعر المنقل بالخطى البديعية ، لا يمازى قارئه أنه أنشئ في العصور
التركية التي انحط فيها الشعر ، وولع فيها الشعراء بتصييد المحسنات سقراً
لتصورهم .

والشعر الأول للصالح الصفدي ، والثاني لابن قرياص ، والثالث
لابن الساعاتي .

وقول شاعر :

والشعر مقصوص يرف كأنه فوق السوائف خالص العقيان
فذكر قص الشعر دليل على أن البيت لشاعري عصرى^(١) ، لأن هذا
اللون من التجميل ظهر أخيراً ، وقد كان النموذج العربي أن يكون الشعر
طويلاً كيفاً كما قال امرؤ القيس :
أثبت كقنو النخلة المتعشك .

وكما قال النابغة :

كالكرم مال على الدعام المسند

ووصفه بصفرة الذهب ، دليل آخر على أنه شعر غادة غربية لا شرقية ،
لأن شعر الشرقيات - وبخاصة العرييات - صورته لنا المتناهي في قوله :
ذات فرع كأنما ضرب العنبر م فيه بماء ورد وعود
حالك كالفداف تجتل دجوجي^(٢) م أثبت جماد بلا تجميد
وقول شاعر : - يصف الشمس ببعض البلاد - :

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة ابت أن توارى فهي غربية جلاها السفور
وقوله :

وتخذيتم موج الأثير بربدأ حين خاتم أن البروق كسالى
وقوله :

وليل كطل القوم كابدت طوله وأيقنت أن لا محالة صاحبه
قال شعر الأول يفصح عن أن هذه الشمس تطلع في بلاد يقنع جوها

(١) من نظم المؤلف .

(٢) الفداف : بالضم : الغراب ، والجتل : الكثير التلف ، والدجوجي : الظلم ،
الأثبت السكتيف .

الغيم والضباب ، فلا ترى الشمس سافرة ضاحكة كما هي في بلادنا إلا في أوقات خاصة .

وهذه حقيقة أعرب عنها الشاعر حافظ إبراهيم ، والبلاد هي إيطاليا وقد كان رحل إليها في بعض السنين .

والبيت الثاني لا يمتري إنسان أنه من قِتاح العصر الحديث ، فقد عرض فيه لذكر الآلات اللاسلكية ، ولم تكن معروفة في غير هذا العصر .

والبيت لحافظ يخاطب به الأمريكان من قصيدة له .

والبيت الثالث من الشعر السياسي ، والقوم الذين يريدون هم الإنجليز والذين عانوا مطلبهم هم المصريون بخاصة .

وإذن لابد أن يكون هذا الشاعر مصريا .

والشاعر هو حافظ إبراهيم أيضا .

وهكذا يستطيع الشاعر الصادق الأداء ، المتزع معانيه من البيئة والعصر انزاعا آمينا ، أن يمثل الجيل الذي يعيش فيه أصدق تمثيل .

الفصل السابع

جمال الجسد في التشبيه

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع ، نرى من المناسب أن نبين معنى الجمال في نظر الفدائي ؛ لما له من الصلة الوثيقة بالموضوع الذي نحن بسبيله .

لا شك أن اللغة تفرق في المعنى بين الجمال والحسن والملاحة وما إليها ، ففي المعجمات اللغوية : الجمال : الحسن في الخلق والخلق .

والحسن : الجمال .

والملاحة : الحسن .

وملح الشيء بالضم ملاحة : شُج ، وحسن منقاره .

ولكن علماء الجمال يعرفون كلا منها تعريفاً يميزه من الآخر ، وإن بقي عليه ظل من الغموض .

فقالوا في الحسن^(١) : إنه تناسب الخلقة ، واعتدال البشرة ، وصفاء المادة .

وقيل : إنه مركب من الوضاعة ، والتناسب ، والصباحة .

وقيل : إنه بياض اللون ، وسواد الشعر ، وكل منهما شرطه .

ومن ذلك قول سيدنا عمر - رض - : إذا تمَّ بياض المرأة ، وحسن شعرها ، فقد تمَّ حسنُها .

وقول السيدة عائشة : البياض : شطر الحسن .

(١) تزيين الأسواق - ١٨٦ - ديوان الصبابة - ٣١ - ٣٥ .

وقالوا في الجمال : إنه ما أخذ البصر : أى ما استرعى النظر وجذبه إليه .
وقالوا : إنه السمن ، لأن اشتقاق الجمال من الجميل — على وزن
كريم — وهو الشحم المذاب .

يقال : اجتمع الرجل : إذا أذاب الشحم وأكله .

والجميل : الودك بعينه^(١) ، ووصف الرجل به : معناه : أن ماء السمن
ينجرى في وجهه^(٢) ؛ فالجميلة إذن : هى السمينة .

ومما أُرعن أفلاطون قوله : الجمال هو الانسجام بين مختلف أعضاء
الجسم .

وقد فرقوا بين الجمال والملاحة فقالوا في الجارية : جملة من بعيد ، مليحة
من قريب .

فالجميلة : هى التى تأخذ بصرك جملة على بعد ، فإذا دنت لم تكن كذلك .
والمليحة : هى التى إذا كررت فيها بصرك زادتك حسنا :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وقالوا أيضاً المليحة : هى البضاء ، لأنها مشتقة من الملحة بالضم وهى البياض .
ومثلها الصبيحة ؛ تشبهاً لها بالصبح فى بياضه .

ويقول خالد بن صفوان لامرأته — وقد قالت له : — ما أجملك !
أتقولين ذلك وما لى عمود الجمال ، ولا على رداؤه ، ولا برنسه ؟

قالت : ما عمود الجمال ، وما رداؤه ، وما برنسه ؟

قال : أما عمود الجمال : فطول القوام وفى قصر .

وأما رداؤه : فالبياض ولست بأبيض .

(١) الودك بالفتح : الدم .

(٢) أدب الكاتب — ٤٩ .

وأما برنسه : فسواد الشعر وأنا أصلع .

ولكن لو قلت : ما أحلاك وأملحك لكان أولى^(١) .

وهو بذلك لا يفرق بين الجمال والحسن ، ولكن يفرق بينهما وبين الملاحظة .

ومن حقائق الصوفية : الجمال ريش ، والحسن صورة . والملاحظة روح ، فذلك ستره عليك ، وهذا سره فيك ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى^(٢) . .

وصفوة أقوال الأقدمين : أن الجمال عندهم : ما يدرك بالنظرة الأولى ، ويتعلق بالشكل العام ؛ كبسطة الجسم ، واعتدال القوام ، وجهارة المنظر ، وحسن السمت

وأن الحسن يتناول كل الأجزاء بالتفصيل ويعرف بتحديد النظر ، وفضل التأمل .

وأن الملاحظة هي : ما يسمونها بعذوبة النفس ، وخفة الظل والدم والروح ، وبراعة الظرف ، وقوة الجاذبية ؛ وهي تستغنى عن الجمال ، ولا يستغنى الجمال عنها .

وقد تكون المرأة جميلة ، غير أنها ليست جذابة ؛ إن بعض النساء كمنظر الشتاء ، ثجات إلا أنهن باردات ، ينقصهن الكثير من سحر الأنوثة وجاذبيتها ، ورب امرأة جميلة بينها وبين الفتنة هوة سحيقة^(٣) .

ومن قول ابن المقفع : لا يصلح الجمال بغير حلاوة^(٤) .

ومن مأثور أقوالهم : على وجه فلان غشله : إذا كان حسنا ولا يملح عليه .

(١) عبود الأخبار ٤ — ٢٣ .

(٢) نفع الطيب ٣ — ١٤٦ .

(٣) حكيم البيت ٦٣ .

(٤) رسائل البلاء ٤٥ .

ويقال في ضده : على وجه حيلة (١) .

والذى تطمئن إليه النفس : أن الجمال ، والحسن ، والملاحة ، والصباحة
والقسامة ، والوسامة إلى آخر هذه الألفاظ : أسماء لمعنى واحد لا يمكن
تعريفه ؛ لأن مقاييسه تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ فلكل عصر
جمال ، ولكل أمة جمال ، ولكل ذوق جمال ، ولعل هذا هو المراد في أن
الشارع الحكيم أباح للخاطب أن يرى من مخطوبته وجهها وكفيها وقدميها ؛
فالوجه : عنوان الجمال ، والكفان والقدمان : مرآة البدانة والنحافة ،
وبرؤيتها جميعاً ، يتحقق للإنسان الشكل الذى يصبو إليه .

وفي الأقوال الماثورة ما يؤيد مذهبنا : من أن الجمال أو الحسن
لا يحد بحدود .

قالوا : الحسن الصريح : ما استنطق الأفواه بالتسبيح .

وفي ذلك بقول بشار :

تُلْقَى بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستفز حشا الرائي بإرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجهه بمرصاد
وبقول الوداعي :

بدر إذا ما بدا بحياه أقول ربى وربك الله

ويقول ابن المعتز :

نظرت إلى من زين الله وجهه فيا نظرة كادت على عاشق تقضى
وكبرت عشراً ثم قلت لصاحبي متى نزل البدر المنير إلى الأرض
ويقول البهاء زهير :

جرت بحاسنه العقول فما بدا إلا وسبح من رآه وكبيرا

وقالوا : الحسن : معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف .

وقالوا :

شيء به فتن الورى غير الذى بدعى الجمال ولست أدرى ما هو
ويقول : جاريت ، : لفظة جميل ، نستعملها كلنا بمعنى غير محدود شأننا
في معظم الألفاظ .

ويقول : ليس أمامنا فيما أرى إلا القول بأن تفسير الجمال لما يكتشف
بعد ، أو نسلّم بأنه لا تفسير للجمال على الإطلاق ، وأن الأشياء الجميلة
ليست لها صفة مشتركة خاصة تجعلها جميلة ، وأن الجمال إنما هو حقيقة مطلقة
لا يسبر غورها .

ويقول : والآن لنأخذ صورة مألوفة جداً ، صورة ، العذراء ، وطفلها
ف نجد قبل كل شيء أن من الواضح جداً أن تأثير هذه الصورة في المسيحيين
يختلف عن تأثيرها في المسلمين ، أو البوذيين الذين لم يسمعوا بالمسيحية قط ،
أو سمعوا بها كما يسمعون بدين أجنبي عجيب .

ونجد ثانياً : أنها إذا كانت صورة إيطالية قديمة ، تختلف تأثيرها
في المبتدئ عنه في شخص ألف رؤية مثل هذه الصورة ، فلا تزججه تقاليد
عصرها وبساطته .

وقد يرى بعض الناس في هذه الصورة إمتاعاً وفنتة ، لمجرد أنها قديمة
وخيالية ، ومنتحبة إلى بلاد يحبونها ، وتهفو نفوسهم إليها^(١) .

ولم يفت الأقدمين أن يخصّصوا كل عضو بصفة .

قال ابن الأعرابي : تقول العرب : الحلاوة في العينين ، والجمال في الأنف
والملاحة في الفم .

وزاد آخر : والظرف في اللسان .

(١) فلسفة الجمال — ١٧ — ٢٣ — ١١٧ .

وقال بعضهم : الظرف في القد ، والبراعة في الجسد ؛ والركة في
الأمطراف والخصر ، والشأن كله في الكلام ، وأحسن الحسن ما لم يجلب
بزيين .

وفي المعنى الأخير يقول بعض الشعراء .

إن المليحة من تزين حليتها لا من غدت بحليتها تزين
وقال غيره :

منعة لم تلبس الوشي زينة ولكن أحببت أن تزان الملابس
وقال المتنبي :

لبس الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا
وضفرون القدائر لا لحسن ولكن يخفن في الشعر الضلالا
وأخذه الصاحب بن عباد فقال :

لبس ثياب الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسنين برود
وذهب بعضهم^(١) إلى أن الصباحة في الوجه ، والوضاءة في البشرة ،
والرشافة في القد ، واللباقة في الشماثل ، وكمال الحسن في الشعر .
وهو يتفق مع الآخرين في أن الخلاوة في العينين ، والجمال في الأنف ،
والملاحة في الفم ، والظرف في اللسان .

ومن البدييات المسائحة : أن للدرأة هذا المخلوق الضعيف سحراً أخذاً
وفتنة خالية ، جعلت لها سلطاناً على الرجال لا يغالب وتيراً لا يقاوم ،
لا نستثنى من ذلك الأباطرة أهل الدولة والصولة ، والملوك ذوي النفوذ
والسيطرة ، وجبابرة الحرب الذين دواهم خوار البلاد وقهرروا العباد .

وحسبنا أن نعرف أن الحجاج الطاغية المنجبر لم يستع أن يصرح :
بأنه يقبل باطن أقدام نسائه ، والبهاء زهير يقبل أقدام إحدى زائراته :

فقبّلت أقداما لغيريَ ما مشيت ووجهاً مصوناً عن سواي مُحجَّبا
والطغرافى يقبل الأرض :

وزائرة وافت فأجلت خدها وقبّلت إكرام الموردها الأرض
وكلا الشاعرين كان وزيراً خطيراً .

وهذه منحة من الطبيعة للنساء تقابل بها قوة الرجل وشوكته ليتعادلا
في ميزان الحياة ، ويدوم بينهما الوفاق والوثاق ، وتقوى الألفة والانسجام
مصدقا لقوله — تعالى — : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا
لكمكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وليس من هنا أن نفصل القول في هذا الشأن ، وإنما نريد أن نفرر
أن الرجل لا يتصور الحياة بدون المرأة ، غير محرم جرداء موحشة لا أنس
فيها ولا بهجة ولا صفاء .

وأنه لا عار عليه في الميسل إليها ، والانجذاب نحوها ، والكلف بها ،
والحرص على أن ينعم في ظلها الرطب ، ويتمتع بمسحة الحياة بجوانبها ،
ويتنوق رحيق المنعة من مفاتيح الجسدية في ظل الحلال المباح .
ولقد صدق من قال : إن أصدق بيت قيل في هذا الصدد :

ونحن بنو الدنيا وهن بناتُها وعيشُ بنى الدنيا لقاء بناتها

وليس في هذا فشوز على السن الكونية ، ولا خروج على نوااميس
الفطرة المركوزة في نفوسنا ، بل غير هذا هو الشذوذ ، أو الضعف ، أو المرض
والانسلاخ من الطبيعة القويمة .

إن أرواحنا في هذا العالم لا تتخلل المادة فقط ، بل نجد ما يعبر عن رغائها وعواطفها ومشيناتها بواسطة المادة نفسها ، والمادة وحدها هي وسيلة هذا التعبير ، في هذه الدنيا .

وما دنا بشريين فلا بد أن تكون لنا أبدان ، والأبدان خاضعة للسن الكيميائية والفسيرولوجية ، كما هي خاضعة للسن الروحية أيضاً .

فن جسم المرأة المحبوب المدمى البسيط المستلذ الذي ، تخرجنا سليفتنا البشيرة الأزلية إلى أن نفتفيه ونتوق إليه ، لا يثماً عجب الحياة الجسمانية الجديدة فقط ، بل يوسع أفق العاطفة الإنسانية الروحانية ، ويستطع نور التفاهم الروحاني الذي لا نستطيع الروح المعزلة وحدها أن تبلغ إليه^(١) .

والحق أن هذا الجسم الذي نحتله الله بيده القادرة المبدعة ، كان مثار الفتنة للرجل منذ أن تفتحت عينه عليه ، ولم يستطع حتى الشعراء العذريون أن يصموا آذانهم عن ندائه المغري المعسول :

فسمع المجنون - والخمرة تنهش فواده - يقول لزوج ليلاه :
ربك هل ضمنت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبيلت فاما
وهل رفقت عليك قرون ليلي رفيف الأفعوانة في نداها
ويقول زعيم المدرسة العذرية جميل بثينة :

ذكرت مقامى ليلة البان قابضاً على كف حوراء المدامع كاليد
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر

ويقول :

سبني بعيني جؤذر وسط ررب وصدر حكى لون اللجين وجيد

(١) أسرار الحياة الزوجية - ٢٦ - ٢٨ .

كما أن هذا الجسم البديع ، كان - ولم يزل - أكبر مصدر لإلهام الفنانين من جميع الألوان والمشارب ، وإلهاب عبقرياتهم - وإذكاء عواطفهم .
وعما نلاحظه أن الرسامين التقليديين يفضلون رسم جصوم البشر ووجوههم ، وهي مادة - إذا كانت قد فقدت بالآلغة بعض جديتها ولذتها - فإنها لا تزال تمثل في دقة وتفصيل حياتنا وحياة من نراهم من بني الإنسان^(١) .
وإذا كانت المرأة فتنة للناس جميعا ، فقد كان حظ العربي من هذه الفتنة أعظم وأشد .

فالعربي بطبيعته رقيق الحس ، مرهف الشعور ، متوقد العاطفة ، يُصبه الجمال ، ويُقيمه الحسن ، وتبذل به الملاحظة كل تميل ، حتى ليتبدل له ، ويحس جنونه حيناً ، وتتلّف نفسه حيناً آخر ، وحتى رأينا من قومه قبيلة كاملة تتخصص في الحب ، وفي أشعار الحب ، وفي الموت في الحب ، وتعدده استشهاده كالموت في سبيل الله ، وهي بنو عذرة .

يقولون جاهد يا جميل بنزوة وأحى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث يدين بشاشة وكل قتل يدين شهيد
والعربي إنسان قوى البنية ، سليم الأعضاء ، جَمّ الحيوية ، مكتمل الرجولة ، وكل ذلك يهيج رغبته في المرأة ، ويذكى حنينه إليها .

والعربي قد كان يحيا حياة فطرية ، بعيدة عن شوائب الحضارة ، وآفات المدنية ، ومزلق الترف والنعيم ، فسلمت نفسه من الانحراف الجنسي ، والتواء المزاج ، فاتجه بنوازع الحبيلة القاهرة ، ودوافع البيئة النقية إلى بنات حواء يلتمس المتعة عندهن ، وبقصر الميل عليهن .

هذا إلى أن الطبيعة قست عليه بحجب الموطن ، وشظف العيش ، وضيق الرزق ، فكانت المرأة راحة وريحانة ، وعزاء وسلوانه ، وأنسه وبشره

وزهره وعطره : فانطلق وراءها مشبوب اللوعة بتغوى بها ، ويفنى لها هذه
الأناميد العذبة الشاجية ، ويفتن في وصفها من قد رأسها إلى أخمص قدميها
وصفا كاشفا ، يستند الواقع ، ويحسمه الحب ، ويرقشه الخيال ؟

شبهها بالشمس ، والقمر ، والكوكب ، والحلال ، والغزال ، والظبي ، والرمح
والخشيف ، والمهاة ، والجؤذر ، والزهرة ، والريحانة ، والبيضة ، والدرة ،
والؤلؤة ، والصنم ، والذئال ، والدمية ، والهردية ، والرمح ، والسحاب ،
والغمام ، والطفل ، والقطة .

وقد يأتي التشبيه جامعا لعدة معان^(١) ، كالجمال والبركة والحسن والصفاء
والبياض في نحو قولهم : ماء السماء .

وبه سميت أم المنذر اللخمى ملك الحيرة ؛ تشبيها به في الحسن والصفاء
والطهارة .

وقد طار الوجه وأعضاؤه البسيطة والمركبة ، بالنصيب الأول من
التشبيهات ، لأنه أشرف وأبهج وأعلى والطف من غيره .

وأما ما عداه فنادر أن تبشر لشاعر بيت أو بيتان أو أكثر في عضو
بعينه ، أما في ضمن غيره فكثير^(٢) .

وما زال الوجه كما يقول جويو : أجمل ما في الإنسان بالنسبة إلى أبناء
هذا العصر^(٣) .

ولا شك أن الوجه خالق بذلك ، فهو عنوان الجمال ، ومظهر الصبغة ،
وموطن الجاذبية ، ومجلى الصحة والشباب .

وفيه جملة من الأعضاء النفيسة يتركز فيها السحر ، ويتبلور الفتون ؛
فيه ما قاله بعض العذريين لرجل من بني فزارة — لأمه في الحب — :

(١) الحيوان — ٥ — ٤٧ — ثمار القلوب — ٦٤٦ .

(٢) تزيين الأسوان — ٢٢٨ .

(٣) تمايلات الدروب على مسائل في فلسفة الفن المعاصرة — ٨١ .

أما والله لو رأيتم الحواجر الباسج، ترشق بالعبون الدأجج، من تحت
الحواجب الزجج، والشفاه السمر، تبسم عن التنايا الفر كأنها شذر الدر،
لجعلتموها اللات والعزى، وتركتم الإسلام وراء ظهوركم !

ثم الوجه إلى ذلك سمة الوراثة النقية الراقية، والمواهب الناضجة المكتملة.
فهناك تقابل وثيق بين ملامح الوجه والدماغ، والعلامات الفسيولوجية
للدماغ تبدو مرتبطة حتماً بالمحطات عقلية ونفسية للجسم، فنجد ما أبرز
ما تكون عند المتوحشين، وزاها تزول من انتقلنا من الحمجية إلى
الحضارة، وسحين تظهر الحاجة على بعض الأفراد تبدو نوعاً من الرجوع
الوراء « Atavisme » فمن الممكن إذاً أن نأمل أنها ستزول شيئاً فشيئاً في
الأجناس العليا بتأثير التقدم العقلي.

وأهم الخصائص التي تميز الوجه القبيح في رأى علماء الجمال والفسيولوجيا:
بروز الفكين، وتواء الوجنتين، وفطس الأنف أو كفتسه، وتباعد العينين
وسعة الفم، وغلظ الشفتين^(١).

وقد شبهوا الوجه جملة بكل منير وضاح بهيج، كالقمرين والكواكب
والصباح والمنازة والمصباح والسراج والصحيفة والمرأة وملكة الغريبة والدينار.
وبكل صاف رقيق كالدر والبرد والياسمين.
وشبهوه تفصيلاً بأشياء كثيرة مناسبة.

فشبهوا الجبهة بالصباح والمرأة.

وشبهوا الحواجب بالقوس، والنون.

وشبهوا العين بعين الغزال والمهاة، وبالزرجس.

وشبهوا نظراتها بالسيف والسهم والنبل والسكر والخمر.

وشبهوا أهدابها بريش السهام وقوادم الطير.

وشبهوا الخد بالورد، والشقائق، والأرجوان، والجسكار، والعندم،

(١) مسائل في فلسفة الفن العامة ٨٠.

والتفاح ، والخر والجمر ، والماء والنار معا .

وشبهوا الأنف بحد السيف ، وقصة الدر .

وشبهوا الفم بالخاتم في صفوه وضيقه .

ولكن يجب أن يلاحظ أن ضيق الفم كان مستملا في النساء فقط لا الرجال ؛ فالجاحظ يقول^(١) : ومدحوا سعة الشفم وذموا صفوه ؛ قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق وبعد الصوت .

ومن وصف أبي المختش لابنه : كان والله أشدق خراطانيا : أي واسع الشدق . واسع الخراطوم ، وهو ماضم عليه الخنكان .

ويقول ويدل على تفضيلهم سعة الأشداق ، وهجائهم ضيق الأفواه قول الشاعر :

لحافظه أفواه الدني من قبيلة إذا ذكرت في الذائبات أمورها
وإنما شبه أفواههم بأفواه الدني — وهي صفار الجراد — لصفوها وضيقها .
وشبهوا الأسنان بالأفاحي واللوازي والبرص والطالع والحبيب والبلور .
والسبال^(٢) والشعاع .

وشبهوا الربق بالحرة الصرف ، أو الممزوجة بالماء البارد ، وبالشهد والعسل والفند^(٣) ، وبالماء الفرات ، وماء السحاب ، أو الماء الممزوج بالمسك أو الزنجبيل .

وشبهوا حديثها ونفمتها بوسواس الحلى ، وزجل الحمام ، وبخفام الظباء وقطع الرياض ، والدر المنشور ، والوشى ، والعسل ، والمهر الحلال .
وشبهوا ابتسامها بوميض البرق .

(١) البيان والنيدين — ١ — ١١٣ — ١١٥ .

(٢) السبال بالغنج : نبات له شوك أبيض طويل .

(٣) الفند بالغنج : عمل قصب السكر الجامد .

وشبهوا نكمتها بالمسك ، والعنبر ، ونشر الرياض ، وريح الخزامى ،
وعُرف العود .

وشبهوا شعرها بالليل والفحم ، وأذنان الخيل ، والحيات ، والكرم ،
وعنقيد الكرم ، وأعذاق النخل ^(١) والحبال ، وبالفدير تصفقه الرياح
في حال العودة .

وشبهوا شعر أصدائها بالفوالى والعقارب والصوايح والمسك
والسَّبَج ^(٢) وجناح الغراب

وشبهوا فرق الرأس بالصبح .

وشبهوا جيدها بجيد الظبي والغزال وإبريق الفضة .

وشبهوا الصدر والتراقب ، بالعاج والمرآة ، وصدر الدمية .

وشبهوا نديها بمحاق العاج والكافور والرمان وأنف الظبي وقلب الظبي .

وشبهوا قدمها بغصن البان ، وقضيت الرند والآس ، والخيزران والريح .

وشبهوا بطنها بالقباطي ^(٣) المطوية المدبجة ، ومُحكَّتها بالقراطيس
المدرجة ، والمُسرة بمُدَّهن العاج .

وشبهوا ظهرها بالجدول .

وشبهوا ردفها بالكثيب ، وبالكثيب الممهل ، وأمواج البحر في حال
المشي .

وشبهوا خصرها بالعنان المجدول ، وبخصور المها والزنابير ، وحلقة
الحاتم .

وشبهوا أوراكنها بأنقاء الرمل ، وسوارى العاج والرخام .

(١) الأعذاق جمع عذق بالكسر وهو القنو ، والمذق بالفتح النخلة نفسها .

(٢) السبج بحركة : المرز الأسود .

(٣) القباطي : ثياب بيضاء اللون ، كانت تلبس في مصر فلبست لقيبط .

وشبهوا ساقها بأنبوب البردى والجمار والبرد .
 وشبهوا القدم باللسان مطلقاً ، ولسان الحية خاصة .
 وشبهوا أصابع يديها بالأساريح ^(١) والمساريك والعنم والعشاب والبلح .
 وشبهوا كعبها بأصل أذن الجؤذر - وهو الصغير من أولاد بقر
 الوحش - .

وشبهوا مشيتها بمشية القطاة والمهاة والحية والوحى الرجل ، والظافر
 في الحرب ، والمزوف ^(٢) والراسف في القيد ، والسائر على البيض وقطع
 الزجاج ، والرمح المهتر ، والغصن المروح ، والفن الممطور .
 وشبهوا رانحتها بالآترجة ، والمسك ، وفارة المسك ^(٣) والعنبر
 والقمر نفل والغالية والملاط والزعفران والرند والتند .

هذا بعض ما قالوه في المرأة ، وقد عرضنا فقط لما يتصل بما نحن بسبيله
 من التشبيه ، ويبدو من هذا مبلغ عاطفتهم الجمالية ، ومقدار تعلقهم بالمرأة
 وقوة انفعالهم بمفاتنها البدنية ، ولا يضيرهم هذا النزاع إلى الحسن المادى
 كما لا يضيرهم أن تذبذب أوصافهم بالاشتواء الجفنى ، فغير هذا نفاق ورياء
 ومغالبة للطبيعة الغلابة .

وجمال المرأة أرفع أنواع الجمال - مهما يقل ، كانت - . والصفات
 التي تعجبنا في المرأة أكثر من غيرها ، هي بعينها الصفات التي تتصل بالشهوة
 أكثر من غيرها ، وتمت إلى غريزة الجنس بأسباب وثيقة .

إن المرأة الجميلة في نظر ابن الشعب هي المرأة الفارعة البضة الزاهية
 ألوانها ، العريضة أردافها ، وهذه هي المرأة التي تروى شهوة الجنس إلى
 أبعد حد .

(١) الأساريح : دود آخر يشبه الأصابع المنضوبة .

(٢) المزوف : السكران .

(٣) فارة المسك : وعاءه .

ولئن كانت صورة الجمال في الطبقات الاجتماعية العليا ، لا تقابل اليوم على هذا النحو الدقيق الحاجات الأول التي تسيطر على الجنس والفرد ، فذلك لأن هذه الحاجات نفسها قد تطورت بصورة عامة ، فضعفت على مر الأيام ، وراقت شيئاً بعد شيء ، فأجمل النساء اليوم هي التي تناسب صبهوات حياتنا الفردية ، وتتفق مع هذه العواطف والميول التي تشارك فيها أبناء العصر (١) .

— ❦ —

الفصل الثامن

الخطأ في التشبيه

الخطأ في التشبيه نوعان :

١ - خطأ في اللفظ ؛ وهو مخالفة قواعد النحو والصرف ، أو استعمال الألفاظ العامة ، أو الأجنبية بدل الألفاظ العربية الصحيحة .

٢ - خطأ في المعنى ؛ كأن يكون فاسداً ، أو محالاً ، أو متناقضاً ، أو مخالفاً للعادة أو الواقع ، إلى غير ذلك .

وفي التنبيه على خطأ المعاني وصوابها يقول العسكري : إن الكلام ألفاظ تستعمل على معان تدل عليها وتعبّر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى ، كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعدد على إصابة المعنى ، ولأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداها على الأخرى معروفة .

ثم يقول : والمعاني بعد ذلك على وجوه :

١ - منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك : قد رأيت زيدا .

٢ - ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك : قد زيدا رأيت .

وإنما قبيح ؛ لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير

٣ - ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب ، مثل قولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر .

٤ - ومنها ما هو محال كقولك : آتيك أمس ، وأتيك غدا .

والفرق عنده بين المحال والفاقد : أن كل محال فاسد ، وليس كل فاسد

محالا ، ألا ترى أن قولك : قام زيد بالكسر فاسد وليس بمحال .
والمحال : مالا يجوز كونه « وجوده » البتة ، كقولك : الدنيا في بيضة .
وأما قولك : حملت الجبل وأشياه فكذب وليس بمحال ؛ لجواز أن
يزيد الله في قدرتك فتحملة !

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو في قولك : رأيت
قائما قاعدا ، ومررت بيقظان نائم ؛ فتصل كذبا بمحال ، فصار الذي هو
الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حياه .
وذلك لما عقد بعضهما ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط ، وهو أن تقول : ضربني زيد ، وأنت تريد ضربت زيدا
فغلطت ، فإن تعددت ذلك كان كذبا^(١) .

ويرجع الخطأ في اللفظ إلى الجهل بمفردات اللغة ، وعدم الإحاطة
بالعرف اللغوي في قواعد الإعراب والبناء والأقسة .
ويرجع الخطأ في المعنى إلى أسباب كثيرة .

١ - منها وصف شيء لم يره الواصف أصلا ، أو رآه رؤية غابرة ،
أو سمع بوصفه ، كقول أبي نواس في وصف الأسد :

كأنما عينه إذا نظرت بارزة الجفن عينٌ مختوق

ألا تراه - وهو مقدم في المحدثين - لما وصف الأسد وليس من
معارفه ، وأمله ما شاهده قط إلا مرة في العمران إن كان شاهده ، دخل
عليه الهم فجعل عينيه بارزتين ، وشبههما بعيون المختوق ، وقام عنده أن هذا
أشنع وأشبه بشامة^(٢) وجه الأسد ، وذهب عنه من صفة أبي زيد^(٣)
وغيره لنشور عينيه ، لما هو أعلم به ممن أخذه عنه .

(١) الصناعتين - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ .

(٢) الشامة : كرامة الوجه وعيونه .

(٣) شاعر معروف بوصف الأسد .

وأكبر ظنى - والله أعلم - أن أبا نواس إنما رجع بالصفة إلى الرجل
المشبه بالأسد، وجعل ازورار عينيه وبروز جفنيه، من علامات الغيظ
والحنق على أقرانه في الحرب^(١).

والصواب ما وصفه به ابن عبد ربه في قوله :

لبث تطير له القلوب مخافة من بين مهمة له وزئير
وكانه يومى إليك بطرفه عن جمرتين يجلد منقور
وكما وصفه أبو زيد الطائي من قبل :

كان عينه في وقبين من حجر قبضا اقتباضا بأطراف المنافر^(٢)
وقوله :

وعينان كالوقبين في قلب صخرة يرى فيهما كالجمرتين تسمر
وكتقول الراجز :

كأنما ينظر من تحرق حجر .

٢ - ومنها أن يكون الواصف رأى الشيء عيانا غير مرة، ولكنه لم
يعين النظر، ولم يدقق الملاحظة في رؤية الأجزاء، فيقع في الخطأ حينما
يعرض للوصف التفصيلي، وقد وقع في ذلك كثير من الشعراء كالناطقة
في قوله :

كان حجاج مقتلها قلب من الشيفين حلق مستقاها

الشيفين : موضع، وحلق : غار، ومستقاها : مأوها .

شبه حجاج مقتلها بقلب في هذا الموضع المذكور، الذي نصب مأوه
ليكون أبعد غورا .

(١) السدة - ٢ - ١٨٧ .

(٢) الوقب : الترة في الحجر، وأيضا : ثرا، والناقر : آلات النقر .

والحجاج لا يغور ؛ لأنه العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب^(١) .
 ٣ -- ومنها الوصف بالظن دون اليقين كقول أبي جريرة الأعرابي^(٢) :
 بَرَّةٌ لَمْ تَأْكُلِ الْمَرْقُوقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفَسْتَقَا
 تعاطى ما لا يعرف — بقول ابن رشيقي — لجعل الفستق بقلا على
 ما في نفسه من لعاع^(٣) البقل .

وأراد بقوله : برية ؛ أنها من سكان البادية لم تأكل مطاعم الحضر ؛
 كالمرق والفستق الذي ظنه بقلا .
 وقول رؤبة :

هَلْ يَعْصِمُنِي كَحَافٍ سَخْنِيَّتٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ ذَهَبِ كَبْرِيتٍ^(٤)
 قال ابن الأعرابي والأصمعي وغيرهما : ظن رؤبة أن الكبريت ذهب .
 وفي العقد الفريد : سمع بالكبريت أنه أحر ، فظن أنه ذهب .
 وفي شفاء الغليل : وذكره رؤبة في شعره بمعنى الذهب وخطي . فيه ،
 لأن العرب القدماء يخطئون في المعاني دون الألفاظ .
 وقال ابن دريد في الجهرة : وهذا مما غلط فيه رؤبة ، لجعل الكبريت
 ذهباً^(٥) .

وقد قال العلامة تيمور « باشا » معاقا على ذلك : قلنا : ولا يخرج
 ما في اللسان عن ذلك ، ولكنه ذكر تفسير الكبريت بالذهب في قول
 لبعضهم ، وهو كما لا يخفى يناقض ما اعترض به هؤلاء الأئمة ، فلعله حدث

(١) الوشع — ٨٧ .

(٢) رواية العقد الفريد — ٣ — ٣٤٤ : أنه أبو نخيلة الرازي .

(٣) اللعاع كقرب : التبت الناعم ، أو أول ما يبدو منه .

(٤) السخنييت بكسر فسكون : الشديد .

(٥) الزهر — ٢ — ٣١٣ .

بعد نظم البيت ، وبين على ما فيه وثوقا من قائله بالشاعر ، وليحقق (١) .
وقول شاعر :

كانه سببط من الأسباط .

فلن السبط رجلا ، وإنما السبط : واحد الأسباط من بني يعقوب (٢) .

٢ — ومنها قياس شيء على شيء من غير تثبيت ولا تبين ، كوصف العرب لمنازل النجوم دون أن يفتنوا إلى أنها في تغير مستمر .

وفي ذلك يقول ابن رشيق (٣) : ولما رأيت العرب — وهم أعلم الناس
بهذه المنازل وأبنائها ، لأنها سقوف بيوتهم ، وسبب معاشهم واتجاعهم —
غلطوا فيها فقال أحدهم :

من الأنجم العزل والراحمة .

وقال امرؤ القيس :

إذا ما أثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فإن بتعرض الجوزاء .

ورأيت كل من عني بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع المنازل ، مخطئا
لا شك في خلافه ؛ لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها لا تظهر
في ليلة واحدة ؛ لذلك قلت أنا احتياطا في ذلك الليل من نسب قصيدة
مدحت بها السيد الحسن :

قد طال حتى خلته من كل ناحية وسط

وتكررت فيه المنا زل منه لأمي القلط

(١) أوهام الشعراء — ١١ .

(٢) الزهر — ٢ — ٣١٢ .

(٣) الصدة — ٢ — ١٩٦ .

على أن المبرد يقول في بيت امرئ القيس المتقدم : وقد أكثر الناس في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ . وقد عيب عليه قليل : الثريا لا تعرض في السماء ، وقال من يعذره : إنه أراد الجوزاء وهي التي تمر متعرضة في جنب غير مستقيمة ، فلما لم يستقم له الوزن وضع الثريا موضعها ، كأحر عاد في شعر زهير ، وضعه موضع أحر ثمود^(١) .

ويعنى بشعر زهير قوله :

فَتَنْجُ لَكُمْ غِلَافَ أَشَامَ كَأَحْمَرِ عَادِ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتُفْطِمُ
ويقول السيوطي : قالوا : أراد بالثريا : الجوزاء فغلط ، وثأوله آخرون على أن معنى تعرضت : أعرضت قال : ويقال : إنها تعرض في آخر الليل .

ويقال : إنها إذا طلعت طلعت على استقامة ، فإذا انتقلت تعرضت^(٢) .

وقال بعضهم من يعذره : أراد الجوزاء لأنها تتلوها^(٣) .

وقال بعضهم في تصحيحه : الثريا تعرض أول ما تطلع ، كما أن الوشاح يلقاك بعرضه وهو ناحيته .

وقال أبو عمرو : يعني إذا أخذت الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح في وسط المرأة .

وقال الباقلاني : والأشبه عندنا : أن البيت غير معيب من حيث عابوه به ، وأنه من محاسن هذه القصيدة . . . ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشاؤ . ويستولى على الأمد^(٤) .

(١) الكامل : شرح الرصافي ٢ — ٦ — ١٤٠ .

(٢) الزمر ٢ — ٣١٤ .

(٣) الوشاح ٣٦ .

(٤) إعجاز القرآن ١٤٠ .

هذه أقوالهم في بيت امرئ القيس ، ونفهم منها أنهم غير مجمعين على خطئه فيه .

وكذلك يقال : في « أحر عاد » .

فالزوزني يقول : أراد بأحر عاد : أحر ثمود وهو عافر الناقة ، واسمه 'قدار بن سالف' (١) .

ويقول ابن قتيبة : وإنما أحر ثمود عافر الناقة (٢) .

ويقول المرزباني : قال أبو سعيد الضرير : سمعت الأصمعي يقول : لا أحب قول زهير « البيت » .

إن ثمود لا يقال لها : عاد ؛ لأن الله — عز وجل — إنما نسب قداراً عافر الناقة إلى ثمود .

قيل : فقد قال : « وأنه أهلك عاداً الأولى » .

فقال معناه : التي كانت قبل ثمود لا أن همنا عادين (٣) .

ويرد ابن رشيق على الأصمعي بقوله : ولا أدري لما خطاه . وقد سمع قول الله — عز وجل — : « وأنه أهلك عاداً الأولى » !

فهل قال هذا إلا وتسم عاد أخرى كما قال قيس بن سعد بن عبادة :

سراويل عادي نمته ثمود

وكان يقال لثمود : عاد الصغرى (٤) .

• — ومنها الغلو في الوصف زيادة في المدح أو التحسين إلى غير ذلك فينقلب الأمر إلى ضده كقول امرئ القيس :

(١) شرح المعلقات — ٨٧ .

(٢) الشعر والشعراء — ٤١ .

(٣) ناوشح — ٤٥ .

(٤) الممددة — ٢ — ١٩١ .

وأركب في الروح خيافة كسا وجهها سعف متفشر^(١)
 أراد المبالغة في وصف ناصية الفرس بالطول ، فشبهها بسعف النخلة ،
 وإذا غطى الشعر العين لم يكن كريما^(٢) .

وقول الحكم الخضرى بمدح :
 كانت بنو غالب لامتها كالغيث في كل ساعة يكف
 وليس في المعهود أن يكون الغيث واكفا في كل ساعة^(٣) .

وإن كان البيت يحتمل من التأويل أن يكون معناه : كان هؤلاء القوم
 كالغيث ؛ إلا أنه غيث يكف كل ساعة ، وإن لم يدل لفظه على هذا المعنى
 دلالة واضحة^(٤) .

٦ - ومنها قصد تقويم البيت فيضطر الشاعر إلى الكذب ، كمذا
 الشعر الذى أنشده السكيت نصيبيا من قصيدة له ؛ مطلعها :
 أبت هذه النفس إلا اذكارا

فلما بلغ إلى قوله :

إذا ما الهجارس غنينا بجاوين بالفلوات الوبارا
 قال له نصيب : الفلوات لا تسكنها الوبار .

فلما بلغ إلى قوله :

كان الغطاط في غلبها أراجيز أسلم تهجو غفارا
 قال له نصيب : ما هجت أسلم غفارا قط .

(١) الخيافة . التى لها عين زرقاء وأخرى سوداء .

(٢) الصناعتين - ٩٩ .

(٣) الموشح - ٢٣٢ .

(٤) سر الفصاحة - ٢٤٠ .

(٥) الصناعتين - ٩٤ - الموشح - ١٩٢ مع اختلاف يسير .

فأنكر الكميت وأمسك^(١).

الوبار بالكمير : جمع وبرة يأسكان الباء : حيوان أصفر من السنور
مغير اللون ، لا ذئب له ، يحبس في البيوت ويعلف فيها .
والغضاطط بهضم الغين : صوت غليان موج البحر ؛ والمراد هنا :
صوت غليان القدر .

شبه صوت غليان القدر في شدته واحتداه ، بارتجاز قبيلة أسلم في هجرها
قبيلة غفار .

وفي هذا يقول الخفاجي : وما يحتاج إليه التشبيه : أن يكون الأمر
المشبه به واقعا مشاهداً معروفاً غير مستنكر ؛ ليوافق ذلك المقصود
بالتشبيه والتخيل من الإيضاح والبيان .

وقد أراد نصب من الكميت : أن يكون شبهه بشيء واقع معروف
وهذا كما قال : كأن مناقضة فلان وفلان مناقضة جرير والفرزدق ، فيكون
هذا الكلام صحيحاً .

ولو قيل : كأن مناقضتهما مناقضة الأحوص وعمر بن أبي ربيعة ، لم
يكن التشبيه صحيحاً إذ كان المشبه به لم يقع^(٢) .

ويتصل بذلك أن يضطر الشاعر إلى التعميم في موضع التخصص
كقول ذي الرمة في وصف الوتر :

كأنه في نياط القوس حلقوم

وقد أنكر عليه الأصمعي ذلك وقال : حلقوم ماذا ؟

إذ كان يجب عليه أن يقول : حلقوم طائر ، أو حلقوم قطاة أو غيرها

(١) سر الفصاحة — ٢٤٠ .

(٢) الموازنة بين الطائيين — ١٧٤ :

عما يشبه الوتر ، وإلا فقد يكون الحلقوم حلقوم فيل ، أو حلقوم بعير .
وهذا من الأصمى إنكار صحيح ، وإن كان الخطب يسيراً ؛ لأن العرب
لا تشبه الوتر إلا بحلقوم الطائر .

أو يضطر إلى القلب كقول النابغة الجعدي :
كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم
والأصل : كان الرجم فريضة الزناء .
وكقول الشماخ في أبيه :

منه ولدت ولم يؤشبه به حسبي ليأ كما عصب العلباء بالعود
العلباء بالكسر : عصب العنق ، ويؤشبه به : يغلط .
والوجه : كما عصب العود بالعلباء .

أو يضطر إلى حذف ما ينعكس به المعنى كقول جميل :
لا حسنها حسن ولا كدلالها دلّ ولا كوقارها نوقير
لحذف كاف التشبيه ؛ فصار المعنى : كأنه ليس حسنها حسناً^(١) .
أو يضطر إلى حذف بعض حروف الكلمة ، كقول امرئ القيس
في وصف فرسه :

لها متتان خطاتا ، كما أكبّ على ساعديه النسيم
الأصل خطا نان لحذف النون .
والخطاة : المكثرة ؛ أراد : لها متان متلثان لها ، كساعدي النمر البارك
على الأرض في الضخامة .

وليس هذا من صفات الجياد الجيدة ، فالمستحسن فيها قلة اللحم في المتن
والوجه كقول الشاعر :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني

جرداء معروقة اللُحَيْن مَرْحُوب^(١)

وقول طُغَيْل الغنوى :

مَعْرُوقَةُ الْإِلْحَى تَلُوحُ مَتُونَهَا .

وقد وقع في هذا الخطأ أبو ذؤيب الهذلي حيث يقول :

قَصِيرُ الْعَصْبِوَح : لَهَا فَشُرْجٌ لَهَا بِالنَّيِّ فَمَي تَنُوحُ فِيهَا الْإِصْبَعُ

قَصِيرُ الْعَصْبِوَح لَهَا : اقْتَصَرَ لَهَا عَلَى اللَّيْنِ عَوْضًا عَنِ الْمَاءِ ، وَشَرَجَ لَهَا :

عَوَى بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، وَالنَّي : الشَّحْمُ .

قال الأصمعي : هذه الفرس لا تساوي درهمين ؛ لأنه جعلها كثيرة

اللحم ، رَخْوَةٌ تَدْخُلُ فِيهَا الْإِصْبَعُ^(٢) .

أو يضطر إلى وضع كلمة مكان أخرى كقول عدي :

وَلَقَدْ عَدَّيْتُ دُوسِرَةً كَعَلَلَةَ الْقَيْنِ مَذْكَارًا

الدوسرة : الناقة الضخمة ، والعلاة بالفتح : السندان .

جعلها مذكارة ، والمانثا عندم أحمد ، وأراد مذكرة فلم يتفق له^(٣) .

٧ - ومنها ذهول الشاعر عن صواب المعنى ، لانفاره في لجة الشعر

وسبجه في آفاق الخيال ، فيقع في الزلل والخطأ ؛ لأن عقله الباطن يكون

مسيطرًا على إدراكه ، وعقله الواعي يصبح في شبه شلل ، والشعراء

(١) المرحوب بالضم : الطويلة .

(٢) الصائغين — ٨٦ .

(٣) الوشج — ٨٨ .

يعرفون ذلك بالتجربة ، ويعجبون كيف يقعون في هذه الأخطاء حينما
يشوبون إلى وعيهم .

وفي ذلك يقول ابن رشيقي : ولا بد أن يُؤتى على الشاعر المفلق ، والعالم
المتفنن ؛ لما بني عليه الإنسان من النقص والتقصير ، وخير ما في ذلك أن
يرجع المرء إلى الحق إذ سمعه ، ولا يتهاذى على الباطل لحاجة وأنفة من الخطأ ،
فإن تماديه ، زيادة في الخطأ الذي أنف منه (١) .

وهذه الحال التي تعترى الشعراء تسبب وقوعهم في أشياء معيبة كالتناقض
في قول المسيب بن علس :

فقلل حاجتها إذا هي أعرضت بخميصة سرح اليدى وساع (٢)
وكان قنطرة بموضع كورها ملساء بين غوامض الأنساع (٣)
وإذا أظفت بها أظفت بكلكل نبيض الفرائض يحفر الأضلاع (٤)
فكيف تكون خميصة ، وقد شبهها بالقنطرة ، والقنطرة لا تكون
إلا عظيمة .

ثم قال : يحفر الأضلاع : أى عظيمها وواسعها ... وكل هذا ينقض
ما ذكره (٥) .

أو الإحالة كقول عبد الرحمن بن حسان :

وإن مال الضجيع بها فدعص من الكئيبان ملتبد مهيل
قالوا : وكيف يكون ملتبدا مهيلا ؟
هذا مستحيل متناقض !

(١) العمدة - ٢ - ٢٠٧ .

(٢) سرح بضمتين : سريح

(٣) الأنساع : سيور عريضة جمع نسج بالكسر .

(٤) الحفر : العظم الجنيين من كل شيء .

(٥) الموضح - ٩٠ .

غير أن ابن رشيقي يقول : والذي عندي فيه أنه صواب ؛ لأنه إنما أراد بالتباده : صلابة ملمس العجيزة ، وأنها غير مسترخية ، وجعله مهيلاً لارتعاده واضطرابه من العظم كما قال ابن مقبل :

يمشون مهيل النفا سالت جوانبه ينال طوراً وينهاه الثرى حيناً
فقد جعله مرة ينال ، ومرة ينهاه الثرى عن التثني الذي فيه (١) .

أو الفساد كقول أبي تمام (٢) :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد
وذلك أن البلد التي تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض .

ومن اختط البلدان لم يختطها على قدر ضيق الأرض وسعتها ، وإنما اختطت على حسب الاتفاق ، ولعل المسكون منها لا يكون جزءاً من ألف جزء ؛ فلأى معنى نصيبه ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض .

والصواب أن يقول : ورحب صدر لو الأرض واسعة كوسعه لم يسعها الفلك ، أو لضاققت عنها السماء ، أو يقول : لو أن سعة كل بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلد .

والجيد في هذا المعنى قول البحترى :

مفازة صدر لو تُطرق لم يكن ليسلكها فرداً سلك المقائب (٣)

أى لم يكن يسلكه إلا بدليل لسعته ، وأيضاً فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه الحيوان والنبات ، وإنما مقداره على ما يقول أهل الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع ، والمسكون من جملة ذلك ؛ لعله لا يكون

(١) الممددة — ٢ — ٢٠٢ .

(٢) الصناعتين — ١٢٠ — الموازنة — ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) المقائب : جمع مقبب كثير : جماعة الخيل والفرسان ، وسالك : أحد المدائن

المشهورين .

جزءاً من ألف جزء من ذلك ، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة ، إنما هو
من أجل ضيق الأرض .

فإن قيل لا يدل قوله : « الأرض » — وهو لفظ عموم — على
البلدان التي هي مخصوصة .

قيل : لا يكون الخطأ إلا هكذا ؛ أن يريد القائل لفظة تدل على معنى
فيأتي بأخرى ليست فيها على ذلك المعنى دلالة .

أو وضع الشيء في غير موضعه كقول جرير — يصف بقر الوحش — :
يمشي بها كل موشى أكارعه مشى المراهب حجوا بيعة الزون
الأكارع : قوائم الدابة ، والمراهب : مدنة بيت النار للهند ، أو عظام
الهند أو عداؤهم أو خدم نار المجوس ، والبيعة معبد النصارى ، والزون :
الصنم .

وعلى هذا فالغلط في ثلاثة مواضع : أحدها أن المراهب : المجوس
لا النصارى ، والثاني : أن البيعة للنصارى لا للمجوس ، والثالث : أن
النصارى لا يعبدون الأصنام ولا المجوس (١) .

الفصل التاسع

أخطاء الشعراء في التشبيه

يذهب الجمهور : إلى أن العربي الصريح لا يجوز عليه الخطأ ، بل إنه لا يستطيع ذلك لو أراد (١) .

ويصرح ابن جني : أن العربي لا يخطئ ، وأنه يصيب ولا يفهم (٢) .
ويرون في هذا : أنه قيل لعمر بن لُجْأ : قل إنا من المجرمون منتقمون ،
فقال : إنا من المجرمين منتقمون (٣) .

ويقول الجاحظ : روى أصحابنا : أن رجلا من البلديين قال لأعرابي :
كيف أهلك بكسر اللام ؟ قال : صلبا !

لأنه أجاب على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله (٤) .

ومن أشد اللغويين المحدثين تعصبا لهذا الرأي : المرحوم الشيخ حمزة
فتح الله ، يقول في بيت زهير :

ومن بعض أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي رُكِّبت كل كُذْم
بسكون الياء في العوالي ، ونحوه إهمال أن الناصية والجزم بها ، وتأكيده
الماضي ، وإثبات حرف العلة ، أو نون الرفع مع الجازم ، إل غير ذلك مما حقيقة
الحال فيه أنه مبنئ على لغات أخرى ، أو ضرورات سائغة ؛ لأن الحق أن

(١) ذيل الأملئ ناقلي — ١٠ .

(٢) المعاني — ١ — ٢٢٣ — ٢٥١ .

(٣) البيان والبيان — ١ — ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق — ١ — ١٢٦ — ١٤٧ .

العرب معصومون من الخطأ واللعن في الألفاظ ، حتى قيل : إن البدوي لا يطأ رعه لسانه في ذلك .

ثم يقول . ولا التفات لما نقل في المزهري عن ابن فارس ، ولا إلى ما ذكره الزنجشري في المفصل : من أن تحريك هاء السكت في قوله : وارحمناه لحن ، ولما أطلال به فارس أفندى صاحب الجوائب في مقدمه ديوانه وجاسوسه (١) .

ولكن يعارض ذلك أن اللحن وقع من بعض العرب الخالص .

فقد ذكروا : أنه قيل لأعرابي أتهمز الريح ؟

قال : نعم .

فقيل له : قلها مهموزة ، فقالها مهموزة .

فقيل : أتهمز القرس ؟

قال : نعم .

فلم يدع سيفاً ولا ترساً إلا همزه !

فقال أخوه .. وهو يهزأ به - : دعوا أخى فإنه يومز السلاح جملة (٢)

وكان عيسى بن عمر يقول : أساء التابعة في قوله :

فبت كئاني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناعم

ويقول : موضعها ناقعاً (٣) .

وذكر أبو زيد أنه سمع أعرابياً يقول : نُسِيَّاه بالمد .

فقال : والواحد إذا أتى بشاذ نادر ، لم يكن قوله حجة مع مخالفة الجميع (٤) .

(١) المواهب الفتحية ٢ — ٨٠ .

(٢) البيان والبيان ٢ — ١٧٥ .

(٣) طبقات الشعراء ١٢ — الموشح ٤١ .

(٤) للمزهر ١ — ١٥٢ .

وكان ذو الرمة يخطئ رؤبة في اللغة ، ويقبل رؤبة منه ذلك ^(١) .
 وكان عبد الله بن إسحاق الحضرمي يكثر الرد على الفرزدق فهجاه ^(٢) .
 وفي شرح الفصيح لابن محالويه : كان الفراء يجهز كسر النون في «شتان»
 تشبيها بسيتان وهو خطأ بالإجماع .
 فإن قيل : إن الفراء ثقة ولعله سمعه ، فالجواب : إن كان الفراء قاله
 قياسا فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربي فإن الغلط على ذلك العربي
 لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة غير مرغوب فيها ^(٣) .
 وكان أبو عمرو بن العلاء أشد تسليما للعرب ، وكان ابن إسحاق وعيسى
 بن عمر يطعنان عليهم ^(٤) .
 وقد لحن الأصمعي ابن قيس الرقيات في بيت من قصيدته في الندبة :
 تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه
 وقال : كان ينبغي أن يقول : وارزيتاه كما تقول : واعماه وأخيتاه ^(٥) .
 وكان يقول : السكيت أعلم النحو وليس بحجة ، وكذلك الطسر تماح ،
 وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهما نه .
 وقال رؤبة عنهما : كانا يسألانني عن غريب شعرهما ^(٦) .
 وقال الأصمعي : أنشدني عقبة بن رؤبة :
 ودغبة من خطيل مفدودن .
 وإنما هي دغوة ، يقال : فلان ذو دغوات ، أي سقطات ^(٧) .

(١) الأغاني ١٦ ص ١٧ والناسي ٤ .

(٢) الشعر والشعراء — ٢٥ .

(٣) الزمر ٢ — ٣١ .

(٤) اللوشح — ٤١ .

(٥) المصدر السابق — ١٨٧ .

(٦) المصدر السابق — ٢٠٩ .

(٧) المصدر السابق والرمم .

والدغوة أيضا : الخلق الردى ، والخطيل كفرح : الكثير الكلام
الفساد ، والمقدودون : الشاب الناعم .

وقال : أخطأ أبو النجم في قوله :

كالشمس لم تعد سوى ذرورها

أى لم تتجاوز ذرورها ، فادخل سوى لأجل الإعراب .

والعبداء : الظلم وتجاوز الحق^(١) .

وقد نسبوا الخطأ إلى رؤية في أشياء كقوله في وصف الخمر :

وشقها اللوح بمازول ضيق

ففتح الياء ، والصواب ضيق أو ضيق .

وقوله

صوادق العقاب مهابب الوثق

ففتح اللام ، وإنما هو الوثق ، وهو سير سريع .

وقوله - يصف الراى - :

لا يلتوى من عاطس ولا فثق

وإنما هو التثنيق والتثاق ، وجاء بشئ بينهما .

وقوله في وصف القوس .

نعية ساورها بين النسيق

قال النيق : جمع نيقة ، ولا يقال : نيقة وإنما هو النسيق ، وهو رأس

الجبيل .

وقوله :

إذا دنا منهن أنقاض الثَّقَق

يعنى الضفادع .

وكان ينبغي أن يقول : ثَقُق جمع ثَقوق .

وقوله :

أفقرت الوعساء والعشاعات من بعدهم والبُرَق البراث
الوعساء والعشاعات : موضعان ، والبُرَق : جمع برقة ، موضع فيه
حجارة سود وبيض ، ومنه يقال : جبل أبرق
قال : البراث ، وإنما هي البراث جمع برث ، وهي الأرض اللينة^(١) .
وما يجب ملاحظته أن بعض ما خطئوا فيه رؤية ، وهو : فتح الياء من
« ضيق » وفتح اللام من « الولق » لا بعد خطأ ، بل جاء على القاعدة
المعروفة وهي إتياع الحرف الثاني للأول في الحركة ، أو نقل الكلمة إلى
صيغة « فعل » بكسر العين .

وهذا الخطأ مرجعه إلى الاختلاط بالآعاجم ، لا إلى تقدم الزمان وتأخره
وفي ذلك يقول الخفاجي : فلعل من يجدنا نستدل بكلام العرب المتقدمين
على لغتهم ، ولا نستدل بكلام المتأخرين ، من يتخيل أن هذا شيء يرجع إلى
الزمان وليس الأمر كذلك ، وإنما العرب الأول لما كثرت الإسلام واتصلت
الدعوة وانتشرت ، حضر أكثرهم ، وسكنوا الأرياف ، وفارقوا البدو
وخالطهم الباقى ، فامتزج كلامهم بمن جاؤروه من الأنباط ، وعاشروه من
الآعاجم ، وعدم منهم الطبع السليم الذى كانوا عليه قبل هذه المخالطة ،
فهم الآن لا يحتاج بكلامهم لهذه العلة ، لا لأن القدم والحدوث سيان
في الصواب والخطأ ، ولهذا كان الأصمعى ينكر أن يقال في لغة العرب :

مالح ، فلما أنشد في ذلك شعر ذى الرمة ، قال : إن ذا الرمة قد بات
في حوانيت البقالين في البصرة زمانا .

أراد بذلك أنه بمخالطتهم سمعهم يقولون : مالح فقال له ، فلم يجوز أن
يحتج بكلامه لهذا السبب .

ولو فرضنا اليوم أنه في بعض الصحارى النائية عن العمارة قوما على عادة
المتقدمين في البدو ، وترك الإلزام بأهل المدر ، متمسكين بطبعهم وجارين
على سمجيتهم ، كان على هذا الفرض قولهم حجة واتباعهم واجبا^(١) .

ومهما يكن من شأن اختلافهم في جواز الخطأ اللفظي على العربي
الصريح ، فهم متفقون على جواز الخطأ عليه في المعنى .

يقول الجاحظ : وليس الأعرابي بقدوة إلا في الجر والنصب والرفع
وفي الأسماء ، وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب^(٢) .

ويقول ابن جنى : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء
في الألفاظ^(٣) .

ويقول الشهاب الخفاجي : إن العرب القدماء يخصصون في المعاني دون
الألفاظ^(٤) .

ويقول الحموي : إذا نظرت في الكلام العربي إما أن تبحث عن المعنى
الذي وضع له اللفظ وهو علم اللغة ، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب
ما يعتريه وهو علم التصريف ، وإما أن تبحث عن المعنى الذي يفهم من
الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم ، وهو علم العربية والنحو .

(١) سر الفصاحة — ١٢٢ .

(٢) الحيوان ٢ — .

(٣) الممددة ٢ — ١٨٣ .

(٤) شفاء الغليل — ١٦٩ .

وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللفوى وهو علم المعانى ، وإما أن تبحث عن طريق دلالة الكلام إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية وهو علم البيان ، وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع .

فالعلوم الثلاثة الأولى يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا ، لأن الاعتبار فيها ضبط الفاظهم .

والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم ، لأنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ كان الرجوع فيها إلى العقل ^(١) .

أخطاء العرب والمولدين :

وسنورد فيما يلى جملة من أخطاء العرب والمولدين فى التشبيه وحده لأنه غايئنا من هذا الفصل ، معقبين عليها بالشرح والإيضاح والنقد بقدر ما يتسع له المقام .

قال امرؤ القيس — يصف الفرس — :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسدُّ به فرجها من دُبُر
قالوا : ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذيل الفرس طويلا
مجرورا ولا قصيرا .

ولم قال : من دُبُر ؟

ومن أين تسدُّ بذنبها فرجها من قُبُل ؟
فليس هذا من كلام الخذاق ، والصواب قوله :

(١) خزائن الأدب ص ٥ — ٦ .

ضليح إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
الفرج : الفضاء الذي بين الرجلين ، والأعزل : الذي يميل أعظم ذنبه
إلى أحد الشقين .

وشرط كونه فويق الأرض ؛ لأنه إذا بلغ الأرض وطئه برجله
وذلك عيب ؛ لأنه ربما عثر به ، واستواء أعظم ذنبه من دلائل العتق والمكرم
كسبوغ ذنبه .

وقد رد ذلك المرتضى ، بقوله : وما أرى العيب بلحق امرأ القيس ؛
لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض
عيبا ، فليس بمنكر أن يشبه به الذنب وإن لم يبلغ إلى أن لمس الأرض ،
لأن الشيء إنما يشبه الشيء إذا قاربه أو دنا من معناه ، فإذا أشبهه في أكثر
أحواله فقد صح التشبيه ولاق به ؛ وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول
الذنب بطول ذيل العروس فقط ؛ وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة
ألا ترى أنه قال :

تسد به فرجها من دبر

وقد يكون الذنب طويلا يكاد لمس الأرض ، ولا يكون كثيفا ولا
يسد فرج الفرس ؛ فلما قال : تسد به فرجها علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ
مع الطول ، فإذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان في الطول قريبا منه
فالتشبيه صحيح وليس ذلك بموجب للعيب^(١) .

ومثل قول امرئ القيس قول خدّاش بن زهير :

لها ذنب مثل ذيل الهدى إلى جوجؤ أيد الزافر

(١) اللوشح — ٣٦ .

(٢) أمال المرتضى — ٤ — ١٢ .

المهدي : العروس التي تهدي إلى زوجها ، وأيد : شديد ، وزافر : صفة
الجؤجؤ وهو الصدر لأنها تزفر منه .

أراد بذيل العروس طوله وسبوغه ، فشبه الذنب السابغ به ؛ وإن لم
يبلغ في الطول إلى أن يمس الأرض^(١) .

* * *

وقال طرفة — يصف الناقة — :

كان جناحي مضرحي تكشفها حفافيه شكّا في العسب بمسرد
المضرحي : الأبيض من النسور أو العظيم ، والحفاف ككتاب :
الجانب ، والشك : الفرز ، والعسب : عظم الذنب ، والمسرد كمسرد :
الإشقي « المثقب » .

يقول : كان جناحي نسر أبيض غرزا ياشق في عظم ذنبها فصارا
في ناحية .

شبه شعر ذنبها بجناحي نسر أبيض ، والشجائب توصف برفة شعر
الذنب وخفته ، وجعله طرفة كثيفا طويلا عريضا^(٢) .

* * *

وقال — يصف عنق الناقة — :

وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان يوصى بدجلة مصعد
الأتلع الطويل ، والبوصى : ضرب من السفن ، والسكان : ذنب
السفينة .

يقول : هي طويلة العنق ، سريعة النهوض به ، فإذا رفعت ونصبته
أشبه ذنب سفينة من هذا النوع المسمى بالبوصى حين يصعد في نهر دجلة .

(١) اللوازة — ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) الوشع — ٨٩ .

هذا تفسير الزوزنى للبيت (١) .

وذهب القاضي الجرجاني : إلى أنه أراد الدفئل ، الصارى ، وهو الخشبة التي تحمل الشراع ؛ فأخطأ وذكر بدله السكان .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة — :

تحميد عن أسنن سود أسافله مثل الإمام الغواذى تحمل الحزما
الأسنن : شجر إذا نظر الناظر إليه من بعيد ، شبهه بشخص الناس ،
وهو يشع المنظر تسميه العرب : رموس الشياطين .

قال الأصمعي : إنما توصف الإمام في مثل هذا الموضع بالرواح
لا بالعدو ، لأنهم يحزن بالخطب إذا رحن .

وقال العسكري : وإنما تحمل الإمام حزم الخطب عند رواجهن ، فأما
في غدوهم إلى الصحراء فإنهم 'نخفات' ، وفي ذلك يقول الأخفص بن
شهاب التغلبي :

تظل بها رُبد النعام كأنها إماء تُزجى بالعشَى حواطب (٢)
وإنما شبه النعام بالإماء الحواطب ؛ لأن النعامة إذا خفضت عنقها
ومشت ، كانت أشبه شيء بماش وعلى ظهره حمل (٣) .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة أيضاً — :

مقدوفة بدخيس الشخص بازلهما له صريف صريف القَصو بالمسد

(١) شرح المقات — ٥٦ .

(٢) في العقد الفريد — ٣ — ٤٣٠ . إماء يرحن بالعشَى حواطب .

(٣) الصناعتين — ٨٢ — الموشع ٤٤ .

الدخيس : ما دخر بعضه في بعض ، والنحس : اللحم ، والبازل :
الناب ، والقعو : البكرة .

شبه صوت نابها بصوت البكرة بالحبل .

قال الأصمعي^(١) : قرأت علي أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني ،
فلما بلغت قوله :

مقدوفة

قال لي : ما أضرب عليه في ناقته ما وصف ا

قلت : وكيف ؟

قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء .
والضجر ، كذا تكلمت العرب .

قال : فرآني بسكوتي مستزيداً فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن
مفروم الضبي :

كناز البضيعُ جِمالية إذا ما بقمن تراها كتوما

كناز البضيع : كثيرة اللحم صلبة ، وجمالية : تشبه الجمال في خلقتها ،
والبغام بالضم : الصوت .

يعني إذا صوتت النوق من الأبن والتعب لم تصوت لقوتها وجَلدها .

• • •

وقال ساعدة بن جؤية — يصف السهام — :

كساها رطيب الريش فاعتدلت له قِداح كأعناق الظباء الفوارق
الفوارق : التي أخذها المخاض فندت في الأرض .

(١) المصدر السابق ٤٢ .

شبه السهام بأعناق هذه الطيلاء — في هذه الحال — وليس بينها شبه ،
ولو وصفها بالدقة لكان أولى (١) .

وقال قيس بن الخطيم :

كانها عود بانه قصف .

والمرأة إنما تشبه بالعود المتقني لا المتقصف (٢) .

وقد أخذ ابن أبي فتن فقال في « وصيف » الخادم الصغير :

أيها الظبي المالميح القدم مجسول مهفّف

أنا من ميلك في مشبك م مرعوب مخوف

لا تملنّ فإني خائف أن تنقصف

ويقول ابن الرومي في بيت ابن أبي فتن هذا : إنما أراد أنه يميل من

لينة ونسمة أعضائه ، فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط

يتقصف ، وإنما كان ينبغي أن يقول : لو عقد لانهقد من لينة ، فضلاً عن

أنه يميل وهو سليم من التقصف ، وأشد لنفسه يعارض ذلك :

أيها القائل إني خائف أن تنقصف

ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفف

وقول أوس بن حجر :

كان ريقها بعد الكرى اغتبطت من ماء أدكن في الحانوت نضاح

ومن مشعشعة كالمسك نشرها أو من أفايب رمان وقفاح

(١) الصناعتين — ٢١٧ — الموشح — ٨٧

(٢) المصدر السابق — ٣٤٧ — ٣٤٨ .

ظن أن الرمان والتفاح في أنابيب .
وقيل : إن الأنابيب : الطرائق التي في الرمان ، وإذا حمل على هذا
الوجه صح المعنى ^(١) .

* * *

وقول بشامة بن الغدير — يصف راحلته — :
وصدرها مهبع كالخليف تخال بأن عليه شليلا
المهبع : الواسع ، والخليف : الطريق في الجبل ، والشليل : المسح
من الصوف أو الشعر .
شبه صدرها في اتساعه بالطريق في الجبل ، ولشكثرة ما عليه من الوبر
يظن أن عليه مسحا من صوف أو شعر .
وقد خطأه الأصمعي في ذلك لأن من صفة النجائب قلة الوبر ^(٢) .

وقال المسيب بن علس :
وكان غاربها رباوة تخيرم وتمدثني جديلمها بشراع
الرباوة : الراية ، والمخرم : طريق الجبل ، والجديل : الزمام المجدول .
أراد تشبيه العنق بالدقفل « الصاري » فشبهه بالشراع .
والجيد منه قون ذي الرمة :

وهاد كجزع الساج سامر بقوده معرق أحناء الصبيبين أشدق
الهادي : العنق ، والمعرق : ما عرى من اللحم ، والأحناء : الجوانب ،
والصبيان على وزن فعلان : طرفا اللحية ، والأشدق : الواسع

(١) الصناعمين — ٧٠ .

(٢) الصمدة — ٢ — ١٩ .

وقال أبو حاتم : الشراع : العنق ، ويقال للعنق : شراع وتليل ، فإذا صحت هذه الرواية فالمعنى صحيح^(١) .

• • •

وقال بشر بن أبي خازم — يصف سفينة — :

ونحن على جوانبها قُعود نخضر الطرف كالإبل القهح
أجلاله صفهم ولقد أرائى على زوراء تسجد للرياح
إذا ركبت بصاحبها خليجا تذكّر ما لديه من جناح
غض طرفه : كسره وأطرق ولم يفتح عينه ، والقهاح : الرافعات
الروس من قح البعير قوصا : رفع رأسه عن الخوض وامتنع عن الشرب
كتفتّح وانفتح فهو قاهح .

فكيف يشبه المطرق بالرافع رأسه ١٩

• • •

وقال الشماخ — يصف ناقته — :

فتم المعزى رحلت إليه رحنى حيزومها كرحى الطحين
المعزى : المنسوب إليه ، والحيزوم : الصدر ، ورحى الحيزوم :
ما يمس الأرض من صدر البعير إذا برك ، ويسمى : الكركرة .
وفي النخض واللسان :
فتم المعزى ركدت إليه .

شبه رحنى حيزومها برحنى الطحين في عظمها وكبرها .
وإنما توصف النجائب بصغر الكركرة ولطف الخف^(٢) .

(١) شفاء الغليل — ١١٨ .

(٢) الشعر والشعراء — ١٤٦ .

وقال العسكري : السعدانة ، الكركرة ، توصف بالصغر .

وقال من احتج للشماخ : إنما شبهها بالرحى لصلابتها كما قال :

فلأنص يطحن الحصى بالكرأكر^(١) .

ويقول ابن رشيق : وخطاه الأصمى ، فقد ظنه يصفها بالكبر وهو

عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير^(٢) .

• • •

وقال النابغة الجعدي — يصف المطى — :

كان توألتها بالضحي نواعم جعل من الأثاب

توالى الخيل والإبل : مآخيرها ، والأثاب : شجر ينبت في بطن

الأودية في البادية ؛ وأحدثها : أثابة ، والجعل : صغار النخل .

شبه مآخير المطى بصغار النخل ، والصواب وصفها بالعظم .

ففي البيت مأخذان : أولها تشبيه المطى بالجعل ، وثانيهما جعل الجعل

— وهو صغار النخل — من الأثاب .

ويقول القاضي الجرجاني : وإنما المراد السكبار ، وبه يصح الوصف

كما زعموا^(٣) .

ويقول ابن قتيبة : أخذوا عليه أن الجعل صغار النخل ، فكيف جعله

من الأثاب !

ثم يقول . ولا أراه إلا صحيحا على التشبيه ؛ كأنه أراد نواعم أثاب

كالجعل .

(١) الوساطة — ١٧ .

(٢) الصنائع — ١١١ .

(٣) البدة — ٢ — ١٩١ .

وقد تسمى العرب باسم الشيء إذا كان له مشبهها ، ولعل الأناث أن يكون
أفناؤه تسمى جعلاً كما تسمى أفناء النخل وقصاره جعلاً (١) .

• • •

وقال حميد بن ثور :

لما تخالفت الحمول حسبها دَوَّما بأيلة ناعما مكوما (٢)

الدوم : شجر المفل وهو لا يكتم ، والمكوم لا يكون إلا النخل ؛
فطن أن الدوم النخل (٣) .

شبه الحمول بالدوم المكوم في هذا الموضع ، قياساً له على النخل وهو
قياس خطأ ؛ لأن الدوم لا يحتاج إلى التكتم كما تحتاج أعناق النخل خشية
تساقط ثمرها .

• • •

وقال خفاف ابن كندبة :

كنواح ريش حمامة نجدية ومسحت باللشنتين عصف الإمد
يريد : كنواحي فنقص من الكلمة .

وهذا النوع يسمى : التثليم .

وهو أن يأتي الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض ؛ فيضطر إلى ثلثها
والنقص فيها .

ومثله قول علقمة بن عبدة :

كان إريقهم ظلي على شرف ، فقدم بسبنا الككتان مرثوم

(١) الشعر والشعراء - ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) أية بالفتح : جبل قرب ينبع ، وبلد بين ينبع والشام على ساحل البحر الأحمر .

(٣) المزمع - ٢ - ٣١٣ .

أراد بسبائب الكتان الخذف للعروض
والسبائب : الشقق الرقيقة ، والمرثوم : الذي في أنفه بياض .
أو يجزى* بالضمعة عن الواو في مثل كأنه وله وبيناه كقول الشاعر .
له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الوسيفة أو زعير
أورد الإعراب إلى أصله كقول الشاعر :
ما إن رأيت ولا أرى في مدق كجوارى يلعبن في الصحراء
وقد صرح ابن الأثير بقبح هذا النوع وعدم جواز استعماله لنا ، وإن
كانت العرب قد استعملته (١) .

* * *

وقول آخر :
تنقن يداها الحصى في كل هاجرة تنقن الدراهم تنقاد الصياريف
يريد : الدراهم والصيارف فزاد في الكلمة (٢) .

* * *

وقال الخطيئة :
صفوف ومادى الحديد عليهم ويبض كأولاد النعام كثيف
المادى : الحديد كله : الدرع والمقفر والسلاح أجمع .
شبه البيض الذي يلبس على الروم بأولاد النعام ، وأراد به بيضه (٣) .
وقال متمم بن نويرة :
وكانه فوق الحياتل جائبها ريم تضايقه كلاب أخضع

(١) المثل سائر - ١٢ .

(٢) نثر الفصاحة ٧٥ .

(٣) الصناعتين ١٠٧ - الموشح - ٧٩ .

وصف ذكر الطياء بالخضوع ، وإنما يجب الاستشراف كما يقول
القاضي الجرجاني .

• • •

وقال المرار بن منقذ العدوي - يصف النخل - :

كأن فروعها في كل ربح عذارى بالذوائب ينتصينا^(١)
وقد خطأه الأصمعي وقال : لم يكن له علم بالنخل ، وإذا تباعد النخل
كان أجود له وأصلح لثمره .

وبما كانت تقوله العرب عن الأشياء : قالت نخلة لأخرى : أبعدى
ظلي عن ظلك أحمل حملي وحملك^(٢) .

ويؤخذ من تحقيق العلامة تيمور ، باشا ،^(٣) : أن المذموم تقارب
ما بين الأصول ، فأما أن يمتد جريده ، ويكثر خوصه ، ويتصل بعضه ببعض
حتى لا ترى منه الشمس ، ويمنع الطير من أن تشقه ، فهو من نعته الجيد ، وأن
رواية أبي حاتم عن الأصمعي : أنه قال : في مثل للفرس والتبيط : تقول
النخلة لأختها : تباعدى عني وأنا أحمل حملي وحملك ، ولم يذكرفيه تباعد الظل .
ثم صوب قول المرار وقال : لأشياء أحسن من هذا الوصف للنخل
واستشهد على صحة كلامه بقول ذكوان العجلي :

نواضر غلبها قد تدانت رومها من النبت حتى ما بطير غرابها
تري الباسقات العُصم منها كأنها ظلمات مضر وب عليها قباها^(٤)

• • •

(١) الانتصاء : الأخذ بالنامية في الخصومة .

(٢) الشعر والشراء — ٤٤٠ .

(٣) أوهام الشعراء — ٣٣ .

(٤) السم من النخل : التامة في طولها والثفانها .

بعيدة بين الزرع لاذات حَشْوَة قصار ولا صُعل سريع ذهابها (١)

وقال أيضا — يصف الخال — (٢)

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر في دجاء باد دجونها

وهو من مخالفة العرف ، وذكر ما ليس في العادة .

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر ، والحدود الحسان إنما هي البيض

فأتى الشاعر بقلب المعنى .

وكذا قول الشاعر الآخر :

كأنما الخيلان في وجهه كواكب أحدفن بالبدر

ويمكن أن يحتج لهذا الشاعر بأن يقال : شبه الخيلان بالكواكب من

جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

والجيد فيه قول العباس بن الأحنف :

لخال بذاك الخد أحسن عندنا من النكته السوداء في وضح البدر

وقبله قال مسلم :

وخال كخال البدر في وجه مثله لقينا المنى فيه لحاجزنا البذل

وقال الطَّيْرُ مَاح — يصف ناقته — :

• • •

تَمْسَحُ الْأَرْضَ بِمَعْنَوْنَس كَتَلِ مِثْلَةَ النِّبَاحِ الْبِقِيَامِ

المعنونس : الذئب الطويل ، والمثلاة : واحدة المألَى ، وهي خرق

تمسكها النساء بأيديهن إذا قن للنياحة .

فأفصح : بأن الذئب يمس الأرض ، وأساء في التشبيه أيضا (٣)

(١) المعوة بالضم والكسر : دغل الأرض ، والعمل : الدقيق الرأس وما فيها عوج

جمع صلاء .

(٢) الصناعتين ٩٣ — ٩٤ .

(٣) للوشح — ٢٠٩ .

ففي البيت عيبان : وصف ذنب الناقة بالطول حتى تمسح به الأرض
وهو عيب فاحش مع مخالفته للواقع .

ثم تشبيهه إياه بخرقة النائحة ، وهي ليست طويلة حتى تصل إلى الأرض
وصاحبها قائمة ، ولا تغدو أن تكون منديلا كما نشاهده في المآتم .
ففي التشبيه مخالفتان صريحتان للواقع .

* * *

وقال رجل — يرقى عمر بن عبد العزيز — .
ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور
والصحيح أن يقول : منشور ؛ لأنه يقال : أنشرك الله الموتى فنشروا^(١) .
والحق : أن « منشور » صحيحة فليس في البيت ما يعاب ، وفي المعجمات .
نشره فنشرك ، وأنشره : أحياه .

* * *

وقال عبد الله بن عبد الرحمن القس :
أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرا ملامكا فالقتل أعنى وأيسر
قال قدامة : هذا الشعر من التناقض ، فإن هذا الشاعر أوجب للهجر
والقتل أنهما مثلان ، ثم سلبهما ذلك بقوله : إن القتل أعنى وأيسر ، فكأنه
قال : إن القتل مثل الهجر وليس مثله^(٢) .
وقال العسكري : إن الهجر والقتل مثلان ، ثم سلبهما ذلك فقال : إن
القتل أعنى وأيسر .

فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله ، وذلك متناقض .
ولو كان استوى له أن يقول : بل القتل أعنى وأيسر لكان الشعر

(١) ديوان اللعين — ٢ — ١٢٤ .

(٢) نقد الشعر — ٨٢ .

مستفيا ، لأن لفظة « بل » تنفي الماضي وتثبت المستأنف كما قال زهير :
 حتى الديار التي لم يحفظها القديم بلى وغيرها الأرواح والدائم
 على أنهم عابوا هذا البيت على زهير ، ولكنه بمجيء بلى فيه لم يكن
 عندي فاسدا .^(١)

• • •

وقال زياد الأعجم ليزيد بن المهلب :
 مل لك في حاجتي حاجة أم أنت لها تارك طارج
 أمشها لك الخير أم أحيها م كما يفعل الرجل الصالح
 إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غاد ولا رانح
 وكان ينبغي أن يقول : غاديا ولا رانحا .
 وزياد كثير اللحن في شعره ؛ ولهذا قيل له : الأعجم ، ولفساد لسانه
 بفارس .^(٢)

• • •

وقال أيمن بن خريم — يمدح بشر بن مروان —^(٣)
 وإنا قد رأينا أم بشر كأم الأسد مذكارا ولودا
 فأنى في البيت بما هو أقرب إلى الدم منه إلى المدح ؛ لأن الناس يجمعون
 على أن تناج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقل كما قال الأول^(٤) :
 بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر يقلات تزور
 المقلات : الناقة تضع واحدا ، والمرأة لا يعيش لها ولد .

(١) سر الفصاحة — ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء — ٢٥٩ .

(٣) المتناهين — ٩٧ .

(٤) هو كثير عزة .

ورواية قدامة :

وإنّا قد وجدنا أم بشر .

وقال أبو النجم العجلي :

أخسر في مثل الكيظام عظمته

الأخسر : القصير المشافر ، والكظام ككتاب : مسدد الشيء ،
والمخلم : الأنف .

وصف مشافره بالحنس ، وإنما توصف المشافر بالسبوطة .

ومن وصف أعرابي للابل : . . عظام الحناجر ، سباط المشافر (١)

وقال أيضاً في وصف الفرس :

كانها مبيحنة القصار

القصار : محور الثياب ، والمبيحنة : أداة من الخيبر يدق عليها الأدم
الجلد .

والمبيحنة لصاحب الأدم وغيره (٢) .

والحق أنه لا معنى للاعتراض عليه ، فإن المبيحنة — كما في كتب اللغة —
مدقة القصار ، وصانع الجلد .

وقال عدى بن الرقاع العاملي :

لهم راية تهدي الجموع كأنها إذا خطر في ثعلب الرمح طائر

(١) المتاعين — ٨٨ — ٨٩ .

(٢) الصدر السابق ٩٠ — الشعر والشعراء — ٢٨٦ .

الثعلب : طرف الرمح الداخل في جُبة السنان .
والراية لا تخطير ، وإنما الخطران للمرح^(١) .

وقال عمر بن لُجأ من أرجوزة وصف فيها إبله فجعلها كالجبال في عظم
الخلق ، ثم قال في خلقها .

كالظرب الأسود من ورائها
الظرب : الجبل الصغير أو الغليظ من الأرض ، ولا يوصف الفحل بأنه
أصغر من إنائه في الخلقة .

ثم قال :

جر العروس الثنى من رداها
وقد عابه جرير : بأنه وصف إبله حتى جعلها كالجبال ، ثم جعل خلقها
كالظرب .

ثم قال في الجزء الثاني ، واقه ما شعره من نمط واحد وإنه لمختلف العيون
ويلع عمر قول جرير فقال : أعييب قولي .

جر العروس

ولمَّا أردت لينة ولم أرد أثره .
وكان ذلك هو سبب وقوع الشر بينهما^(٢) .

وقال رؤبة :

(١) الصناعتين — ٩٣ .

(٢) خزانة الأدب للبندقي — ٢٦٢ .

كنتم كن أدخل في جحر يدا فأخطأ الأفى ولاقى الأسود
جمل الأسود دون الأفى في المضرة وهي فوقه فيها^(١) ، لأن الأسود
الحية العظيمة .

وقال العثماني الراجز منشدا « الرشيد » في وصف فرس :
كانّ أذنيه إذا تشوّفا قادمة أو قلنا محرّفا
فقال الرشيد : دع كان ، وقل : تخال حتى يستوى شعرك ، وكان قد
لحن ولم يعرف ، ولم يقطن له أهل المجلس حتى قال الرشيد ذلك فتعجبوا
من علمه وفضله^(٢) .

قال المبرد : والراجز — وإن كان لحن . فقد أحسن التشبيه^(٣)
ونسب الشنقيطي البيت إلى أبي نخيلة الراجز ، وذكر : أنه قد أجيب
عنه بأجوبة .

- ١ — أن الشاعر قد لحن .
- ٢ — أن خير كان محذوفة وقادمة مفعول ، والتقدير : تحكيان قادمة .
- ٣ — أن الرواية : قادمة أو قلنا بألفان من غير تنوين ، على أن
الأصل قادمتان أو قلدان محرّقان ، لحذفت النون لضرورة الشعر .
- ٤ — أن الرواية : تخال أذنيه^(٤) .

وقال أبو نواس — يصف الناقة — :

(١) المتاعين — ٨٨ — الشعر والعراء — ٣٨٦ .

(٢) ديوان اللطفي — ٣٦ — ٣٧ .

(٣) الكامل « صرح للرسي » — ٧ — ٤٧ — ٤٨ .

(٤) الدرر النواصع — ١ — ١١٢ .

كأنما رجلها قفا يدها رجل وليد يلهو بدبوق
الدبوق : لعبة .

وإذا كانت كذلك كان بها عُفَّال ، وهو من أمروا العيوب^(١) .

* * *

وقال في وصف الكلب :

كأنما الأظفور من قنابه موسى صناع رُدّ في نصابه
القناب ككتاب : المخلب .

شبهه بموسى الخلاق الحاذق حين يدخله في قنابه ، لأنه ظن أن مخلب
الكلب كمخلب الأسد والنور الذى ينسقر إذا أراد أن يقتل ،
وعند حاجتهما تخرج المخالبُ حجبنا محددة يقرسان بها ، والكلب مبسوط
اليدين أبدا غير منقبض^(٢) .

* * *

وقال يصف الحباب — وهو أبداع ما قبل فيه —^(٣) .

قامت تربى وأمر الليل مجتمع صبحا تولد بين الماء واللهب
كان صفرى وكبرى من فواقها حصباء در على أرض من الذهب
وقد أخذه ابن المعتز فقال :

يا خليلي سقياني فقد لا ح صباح وأذن الناقوس
من كُمَيْتِ كأنها أرض تبر في نواحيه لؤلؤ مغروس
وقد خطا النحاة أبا نواس في قوله المتقدم ، وفي ذلك يقول ابن الأثير :

(١) العقال كرمات : دا في رجل الدابة .

(٢) الموشح — ٢٧٣ .

(٣) ديوان الماتى — ٣٠٨ .

ولا شك أن قلة المبالاة بالامر واحتشام القدره عليه ، توقع صاحبه فيما لا يشمر أنه وقع فيه فيجهل ما يكون عالما به ، ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء ، وقد غلط فيها لا يخطئ مثله فيه ، فقال في صفة الحر :

كان صفري

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس ؛ فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه في شيء ، لأنه أمر نقلي يحمل ناقله فيه على النقل من غير التصرف وقول أبي نواس : صفري وكبرى غير جائز ؛ فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة ، وهنا قد عريت عن الإضافة ومن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربته وسهولته (١) .

والصحيح : أن أبا نواس لم يخطئ ؛ لأنه أراد هنا ثبوت الوصف لمحله من غير نظر إلى تفضيل ؛ كقولهم : نصيب أشعر الحبشة : أى شاعرهم إذ لا شاعر غيره فيهم .

والامر هنا كذلك : أى كان صغيرة وكبيرة . . .

وذكر محمد بن سلام الجمحي عن يونس بن حبيب ؛ قال : جاء رجل إلى ربيعة بن العجاج فسأله عن قول الفزدق :

إن الذى سلك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
فقال له : أقمد .

فلما أذن المؤذن وقال : الله أكبر ، قال : ما يقول هذا ؟

قال : الله أكبر من كل شيء .

قال : وكذا ذاك أطول من كل شيء .

ويقول ابن سنان الخفاجي : تأولوا قول الفرزدق على وجهين .

أحدهما : أن يكون أعز وأطول بمعنى عزيزة طويلة .

والثاني : أعز وأطول من بيتك باجرير .

ثم يعقب على هذا : بأن ذلك من التعسف في التأويل ، و مراد الشاعر أوضح من أن يخفى ، وأشهر من أن يحمل ، وهو أعز وأطول من السماء التي ذكرها في أول البيت .

وإنما جاء بها لهذا الغرض ، وهذه مبالغة في الشمر معروفة مستعملة ، وليست بالمكروهة ولا الغريبة^(١) .

* * *

وقال أبو الشَّيْبِصِ الحِزَاعي :

وجناح مقصوص تحيَّف ريشه ريبُ الزمان تحيَّف المقراض
قالوا : ليس المقراض من كلام العرب .

وتبعه البحرى فقال :

وأبت تركيَّ الغديَّات والآصال حتى غصبت بالمقراض
فما بوه عليهما جميعا .

قال الخفاجي : وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة^(٢) .

وفي اللغة قرضت الشيء قرضا من باب ضرب : قطعته بالمقراضين .

والمقراض أيضا بكسر الميم ، والجمع مقاراض .

ولا يقال : إذا جمعت بينهما مقراض كما تقول العامة ، وإنما يقال عند

(١) سر الفصاحة — ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه — ٧٢ — ٧٧ .

اجتماعهما : قرضته بالمفراضين ، وفي الواحد قرضته بالمقراض ، وقرض
الثوب بالمقراض .

فالكلمة من كلام العرب كما ترى ، ولا ترى وجها لتخطئة استعمالها .

• • •

وقال محمد بن عبد الملك الزيات — يصف ناقته في قصيدة مدح بها
الحسن بن سهل — مطلعها :

كانها حين كنّ اسمى خطوها
أخنس مطوى الشوى برعى القلّل
الأخنس : ذكر البقر الوحشي ، والشوى : الأطراف .

والعيب الأول في البيت : مخالفته العادة في بدء القصيدة بالتشبيه ، فلم
يجر الشعراء على هذا الرسم الغريب .

والعيب الآخر : أنه خالف جميع الشعراء في وصف الناقة . لأنهم إنما
يصفون الناقة بالظلم والحار والثور بعد الكلال ، غلوا في الوصف ومبالغة .
هذا هو الجيد ، فإن لم يفعلوا لم يذكروا : أنها بذلت جهدها واستغرقت
جميع ما عندها بل يدعون التأويل محتملا للزيادة .

ثم قال : برعى القلّل ، والثور لا يرعى قلّل الجبال ، وإنما ذلك الوعل
فإنه لا يُسَمَّى ، والثور في السهول والدماث ومواضع الرمال ، إلا أن يريد
بقلّل النبات أعاليه .

وربما أن تكون القلّل نباتا بعينه أو مكانا فقد يمكن وما سمعت بهما^(١) .
وهذا الخطأ وقع فيه ابن الزيات على علمه وفضله لتعاطيه ما لا يحسن ،
فثله وهو الحضري المسترف ليس من ركاب النوق وليس له عهد بمزاولة
شئونها حتى يخبر أحوالها كالأعراب أو بعض الشعراء الذين اعتادوا

الرحله في القيا في ، كالمثني الذي بقول في مدح عبد الله بن يحيى البحرى :
إليك ابن يحيى بن الوليد تجاوزت في البيد عيس لحمها والدم الشعر^(١)
نضجت بذكركم حرارة قلبها فسارت وطول الأرض في عينها شبر
لجاء بضد ما جاء به ابن الزيات من وصفها بالقوة والنشاط والمرح على
ما نكابه من الجهد والمشقة في قطع المفاوز كفا يلوغ الممدوح وشرقا
إلى لقائه ا

...

وقال أبو تمام :

يوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدى من هذا وذلك أطول
فجعل للدهر - وهو الزمان - عرضا ، وذلك محض المحال .
وعلى أنه ما كانت إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : كطول
الدهر ، فأتى على الغرض في المبالغة^(٢) .

...

وقال :

كالأرحى المذكى سيره المرطى والوخد والملع والتقريب والخب
الأرحى من الإبل : منسوب إلى أرحب : حى من همدان تنسب
إليه الإبل .
والمذكى : الذى قد انتهى في سنه ، والمرطى من عدو الخيل فوق

(١) يروى الشعر بفتح الشين : أى يرى السير جسدها فلم يبق فيها غير الورى على الجلد ،
وهى رواية الخوارزمي ، ويروى الشعر بكسر الشين : يعنى أن ألبعاشها على السير مستعمه من
الشعر الذى كان يحدها به فيوفر لها لحمها ودمها ويغنيها عن استهلاكه ، والبيت الثانى يؤيد
هذا المعنى .

(٢) للوازنة - ١٧٥ .

التقريب ودون الإهذاب ، والوخد : الاهتزاز في السير مثل وخذ النعام
والملع : من سير الإبل السريع ، والتقريب : من عدو الخيل معروف ،
والخبب دونه .

جمع هذا البيت أنواعا من العدو ، ووفق في ذلك مع البعد عن التكلف
ولكن عيبه أنه خلط بين ما يخص الإبل وما يخص الخيل .

فليس التقريب من عدو الإبل ، وهو في هذا الوصف مخطئ .
وقد يكون التقريب لأجناس من الحيوان ولا يكون للإبل ، وإنما ما
رأينا بعيراً قط يقرب تقرب الفرس .

والمرطى أيضا من عدو الخيل لم أراه في أوصاف الإبل ولا سيرها (١) .

• • •

وقال - يصف الفرس - :

وبشعلة نبت ذكأن فليلها في صهوتيه بدء شيب المفرق
الشعلة بالضم : البياض في ذنب الفرس والناصية والقذال ، والفليل :
ما تفرق منها بصهوتيه ، والصهوة موضع البدن ، وهو مقعد الفارس
من الفرس .

وذلك الموضع أبداً ينحت شعره لغمز السرج إياه فيلبت أبيض لأن
الجلد هنا يرق ، وأنت تراه في الخيل كلها على اختلاف شباتها ، وليس
بالبياض المحمود ولا الحسن ولا الجميل .

فهذا خطأ من هذا الوجه ، وهو خطأ من وجه آخر ، وهو أن جعله
شعلة ، والشعلة لا تكون إلا في الناصية أو الذنب ، وهو أن يبيض عرسها
وناحية منها فيقال : فرس أشعل وشملاء ، وذلك عيب من عيوب الخيل

فإن كان ظهر الفرس أبيض خبطة فهو أرجل ولا يقال أشمل .
وقد أخذ البحري قوله : بدء شيب المفرق ، فجاء به حسنا جدا ثم سلم
من العيب فقال :

وبشعة كالشيب مرّ بمفرق غزل لها عن شيبه بغرامه
فقال : بشعة ، ولم ينص على موضعها ، ومعلوم أنه أراد بياضا
في الناصية ،

وقال : « مر بمفرق غزل » فأوضح أنه ذلك الموضع أراد .
وقال : « لها عن شيبه بغرامه » فأتى بشيء يفوق كل حسن ؛ إلا أن
البياض في الناصية من عيوب الخيل ، وكذلك البياض في الذنب ؛ ليس بين
الناس في ذلك اختلاف^(١) .

• • •

وقال في الفرس أيضا :

مسودّ شطر مثلما أسود الدجى مبيض شطر كالبياض المهرق
شطر الشيء : جانبه وناحيته ، قال الله — عز وجل — : « فويل
وجهك شطر المسجد الحرام » : أي ناحيته .

وقد يراد بالشطر : نصف الشيء ، يقال قد شاطرتك مالى : أي ناصفتك
فهذا هو الأكثر الأعم فيما يستعملونه ، وذلك من أقبح شيآت الأبلق على
ظاهر هذا المعنى ، ولم يرده أبو تمام ، وإنما أراد بالشطر ههنا : البعض أو
الجزء : أي مسود جزء مبيض جزء ، فجاء بالشطر لأنها لفظة أحسن من
الجزء ومن البعض في هذا الموضوع^(٢) .

(١) الموازنة — ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق — ٢٢٥ .

وقال — يصف فرساً أيضاً — :

هاديه من جذع الأراك وما تحت الصلابة صخرة تجلس

الهادى : العنق ، والصلابة : وسط الظهر ، والجلوس : العظيمة .

أنكر عليه أبو العباس أحمد بن عبيد الله : أن يشبه عنق الفرس بالجذع ، وأن يكون الجذع جذع أراك .

فتى كان للأراك جذوع ؟ لأن عبيد الله الأراك لا تغلف حتى تصير كالجذوع ، ولا تقاربها .

وقد سلم الأمدى بجواز تشبيه عنق الفرس بالجذع استدلالاً من كلام العرب ، ووافق أبو العباس في إنكاره أن تكون عبيد الله الأراك جذوعاً^(١) .

• • •

وقال :

شيدت لقد أقوت مغانيكم بعدى وعنت كما عنت وشائع من برد
عنت : بليت .

جعل الوشائع : حوامش البرد أو شيئاً منها وليس الأمر كذلك ، إنما الوشائع : غزل من اللحم ملفوف ، يحرقه الناصب بين طافات السدى عند التساجعة ، قال ذو الرمة :

به ملعب من معصقات نسجه كنسج اليماني برده بالوشائع
فأما قول كثير عزة :

ديار عفت من عزّة الصيف بعدما تُجد عليهن الوشيع المضمما
إنما أراد بالوشيع هنا : ما تسد به الخصاصة بين الشيتين ، وهذه وشائع الغزل .

والمنعم : مأخوذ من التمام ، وهو نبت طيب الريح^(١) .

أى بعد ما كانت هذه الديار نجد بالوشيع : أى يخصص جنابها .

ومثل أبى تمام لا يسوغ له الغلط فى مثل هذا لأنه حضرى ، وإنما يساح فى ذلك البدوى الذى يريد الشئ ولم يعاينه ، فيذكر غيره لقلة خبره بالأشياء التى تكون بالأمصار .

وأما أبو تمام فليست هذه حاله ، بل ما جهل هذا ولكنه ساح نفسه فيه ، ألا ترى إلى قوله فى موضع آخر - يصف قصيدة - :

الجيد والهمزل فى توشيع لحنها

والنبل والسُخف والأشجان والطرب

فقال : فى توشيع لحنها^(٢) .

• • •

وقال :

دقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه بُرد

أنكر عليه أبو العباس أحمد ذلك ، وقال : هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت .

ولم يرد على هذا شيئاً .

وقال الأمدى : والخطأ ظاهر ، لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقه وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل ونحو ذلك^(٣) .

وأورد على قوله أمثلة من كلام الشعراء .

(١) هذا رأى الأمدى ، وأرى أنها مأخوذة من التنية ، وهى : الزخرفة والنقش .

(٢) الموازنة - ١٧ - ١٧١ .

(٣) المصدر السابق - ١٢٦ - ١١٧ .

ويرى الأستاذ الدكتور طه حسين : أن وصف الحلم بالبرقة في شعر أبي تمام وقع موقعه ؛ لأن الشاعر متأثر برقة العيش ولين الحياة في عصره ، فالحلم في العصر العباسي رقيق رقة هذا العصر ، بخلاف الحلم في العصر الجاهلي .
وأقول : إن وصف الحلم بالبرقة جاء في شعر الأعراب البداءة أيضا .
يقول بعضهم في وصف إسماعيل بن صبيح الكاتب — وكان من أحسن الناس خطا — :

رقيق حواشي الحلم حين تبسوره يريك الهوى والامور تطير^(١)
تبوره : تختبره .

فليس بصحيح ما قاله الأمدى : من أن وصف أبي تمام للحلم بالبرقة لم يأت في جاهلية ولا إسلام !

وقد أنكر العسكري هذا الوصف على الأعرابي كما أنكره الأمدى على أبي تمام فقال : إنه ردى . لأن الحلم يوصف بالرجحان والرزانة لا بالبرقة .

وعقب على ذلك بقوله : لا ، بل أحسبني سمعت بيتا لبعض المحدثين يصف فيه الحلم بالبرقة ليس بالمختار^(٢) .

ثم قال : واستعمل أبو تمام هذا اللفظ فعيب عليه^(٣) .

فالامر كما ترى لا يعدو اختلاف وجهات النظر .

• • •

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

كان بيني وبينه يوم وفاته نجوم سماء خرو من بينها البدر

(١) زهر الأدب ٢٠ — ١٠٩ .

(٢) الصناعتين — ١١٢ .

(٣) ديوان المعاني ٢ — ٧٧ .

وقد قال له أحمد بن عبيد بن ناصح : أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟

فقال أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم ، لأن قرم قد ذهب .
فقال : والله ماتكون الكواكب أحسن ماتكون ، إلا إذا لم يكن معها قرم !

ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحاق بن حسان الحريري :
بقية أقمار من العز لو خبت لظلت معدة في الدجى تنكس
إذا قر منها تفوّر أو خبا بدا قر من جانب الأفق يلمع
قال : فرجم وسكت (١)

والحق أن هذه مغالطة صارخة ؛ فإن أبا تمام لم يرد وصف حالهم الحسية من إشراق وبهجة ورفعة حتى يقال : إن ستاهم وسنادهم بتضاعف إذا غاب القمر ، ولكنه وصف حالهم المعنوية ، فشبه فقدهم بالقمر في سيادته الكواكب ، وشبههم بالكواكب بالنسبة إليه ، فكأنه قال : غاب قرم الذي هو موضع زهوم ، وواسطة عقدهم ، وبجلى زينتهم ، فأصبحوا بعده كواكب مجردة من غير قر ، وما حسن كواكب لا تحف بأقمار ؟

ولا شك أن هذا معنى جميل مستقيم ، ولا يعيبه إلا جاهل أو متعصب !
وقد سبق أبو تمام بهذا المعنى في قول صفية الباعلية كما يقول العسكري (٢) :
أخنى على مالك ريب الزمان ولا يبقى الزمان على شيء ولا يذر
كنا كأنجم ليل ينشأ قر يملو الدجى فهو من بيننا القمر

• • •

وقال - يصف الهلة - :

(١) الموشح - ٣٠٧ .

(٢) ديوان الماتى - ١٧ .

حلت محل البكر من ممسطة وقد كُفّت من المعطى زفاف الأيم
فوضع الأيم مكان الثيب وليس الأمر كذلك ، فليس الأيم : الثيب
في كلام العرب ، إنما الأيم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ،
قال الله — عز وجل — : « وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم
وإمائكم » .

وليس مراده — تعالى — نكاح الثيبات من النساء دون الأبكار ،
وإنما يريد النساء اللاتي لا أزواج لهن .
وقد قال الشماخ :

يُفِرُّ بعيني أن أحدث أنهما وإن لم أنلها أيم لم تزوج
وليس يسره أن تكون ثيباً .

وقد وقع البحتري في هذا الخطأ نفسه فقال :
تَشُقُّ عليه الريح كلَّ عشيّة جيوب القمام بين بكر وأيم
وقد حكى أن بعض كبار الفقهاء وهو محمد إدريس الشافعي غلط
في ذلك ، والصحيح ما ذكرناه^(١) .

• • •

وقال البحتري — يصف القمر — :
ذنب كما مسح الرداء يذب عن عُرْف وعرف كالقناع المسهل
قال الأمدى : هذا خطأ في الوصف ، لأن ذنب القمر إذا مس
الأرض كان عيباً فكيف إذا سحبه ؟
وإنما المدوح من الأذئاب ما قرب من الأرض ولم يمسه^(٢) .

(١) سر القصة — ٧٣ .

(٢) الموازنة — ٣٤٨ .

وقد اعتذر له المرتضى بكلام طويل . زبدته : أن الشاعر لا يصح أن
يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، لأنه مبني على التجوز والتوسع
والإشارات الخفية ، والإيحاء إلى المعاني ، وإلا بطل الشعر جميعه ، لأن
المخاطب به يعرف أوضاعه ويفهم أغراضه ، لا الفلاسفة وأهل المنطق .

والبحتري لم يرد بقوله غير المبالغة في وصف الذنب بالطول والسبوغ
وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض ، ومن شأن العرب أن تجرى
على الشيء الوصف الذي كان قد يستحقه ، وقد قرب منه القرب الشديد ،
وبأنوا بالفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقاً
بل لتفهم منها الغاية المحمودة ، والنهاية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك ، فلا
تسخر على البحتري أن يريد أنه في غاية الطول الممدوح المحمود ؛ لا أنه
ينجر في الأرض على الحقيقة (١) .

• • •

وقال البحتري أيضاً :

بدت صفرة في لونه إن حدم من الدرما أصفرت نواحيه في العقد
وحررت على الأبدى نجمة جسمه كذلك موج البحر ملتهب الوقد
ولست ترى شوكة الأراكمة خائفاً سموم رياح القادحات من الرند
وصف في البيت الأول الدر بالصفرة ، وإنما يوصف بشدة البياض ،
وإذا أريد المبالغة في وصفه وصف بالنصوع ، ومن أعجب عيوبه الصفرة
وقالوا : كوكب درى لياضه ، وإذا أصفر احتيل في إزالة صفوته
ليتوضاً .

واستعمال الخواشي في الدر أيضاً خطأ ، ولو قال : نواحيه لكان
أجود ، والحاشية للبرد والنوب فأما حاشية الدر فقير معروفة .

وفي البيت الثاني وصف موج البحر بالالتهاب وهذا غلط ، لأن البحر
غير ملتهب الموج ولا متقد الماء ، ولو كان متقددا أو ملتهبا لما أمكن ركوبه
ولنما أراد أن يعظم أمر الممدوح فجاء بما لا يعرف .
والخطأ في البيت الثالث : أنه شبه العليل بشوك القتاد ، لصلابته
على شدة العلة .

وزعم أن شوك القتاد لا يخاف النار التي تقدح الزناد ، وقد علمنا أن
النار تطلق الصخر وتلين الحديد ، فكيف يسلم منها شوك القتاد !
وليس لذكر السموم والرياح أيضاً فائدة^(١) .

* * *

وقال أبو المعتزم — يصف جرى الفرس — .

كأنما أربعه إذا تنادين الثرى

ريح القبول والذبور والشمال والصبا

قال الأصمعي : والقبول والصبا واحد .

وفي كتب اللغة : القبول كصبور : ريح الصبا ، لأنها تقابل الذبور
، ريح الغرب ، أو لأنها تقابل باب الكعبة ، أو لأن النفس تقابلها .
فجاء بتكرار لا فائدة فيه .

* * *

وقال المتنبي — يصف الحمى — :

إذا ما فارقتني غسّلتني كأنما عاكفان على حرام

وليس الحرام أخص بالاغتسال من الحلال^(٢) .

(١) الصناعتين — ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) القيمة — ١ — ١٤١ .

يعنى أن الحرام والحلال يقتسل منهما على السواء ، لأن الغسل من مطلق الجنابة ، بغض النظر عن الحل والحرمه .

• • •

وقال :

قالت وقد رأيت اصفرأى من به وتنهدت فاجبتها المتنهد
فضت وقد صبغ الحياء بياضها لوني كما صبغ اللجين العسجد
ذكر أن الحياء يصفر اللون ، وهو لا يصفره بل يحمره ، وهو جهل
بطبائع الاشياء .

وقد اعتذر له الواحدى : بأن هذا الحياء كان مختلطاً بالخوف من
الفضيحة ، أو الخوف من أن يسمع الرقيب هذا الكلام ، فنقلب الخوف
على الحياء فأكسبها صفرة (١) .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهاوت .

• • •

وقال السرى الرفاء :

قم يا غلام قهاتها فى كأسها كالجللثارة فى جنى نسرين
أو مارأيت هلال شهرى قد بدا فى الأفق مثل شعيرة السكين
جعل الزجاج كأساً ، ولا يقال : كأس إلا إذا كانت مملوءة (٢) .

• • •

وقال المعرى :

ولقد سلوت عن الشباب كاملاً غيرى ولكن الحزين تذكر

(١) العرف الطيب ١ — ٤١ .

(٢) ديوان الماتى ١ — ١٤٣ .

فيقال : كيف يجوز أن يسلو وهو حزين يتذكر .

ويقول ابن سنان الخفاجي : وقد قرأت عليه هذا البيت في جملة شعره .
ولم أسأل عنه .

والذي يحتمل عندي من التأويل : أنه أراد بالسلو ههنا اليأس ورفض
الطمع ، فكأنه قال : قد بقت من الطمع في الشباب يأس غيري ، ولكنني
حزين أتذكر ، وهذا وجه قريب (١) .

• • •

ولا يخلو شعر العصريين من الأخطاء بالرغم من ثقافتهم الرفيعة ،
وما أمدتهم به العلوم من المعارف الوثيقة ، فمن ذلك على سبيل التمثيل قول
أميرهم « شوقي » يصف تصعيد الطائرات في الجو :

ذهبت تسمو فكانت أعقبًا فسورا فصقورا فخماما
بعضها في طلب البعض كما طارد النسر على الجو القطاما
وكان الترتيب الواقعي في البيت الأول أن يقول : فكانت نسورا
فاعقبها ، فسقورا ، فخماما .

لأن النسور أضخم من العقبان أجساما ، وإن كانت أقل منها قوة
وبطشا ، والعادة أن الطيارة تصغر حين تصعد في الجو شيئا فشيئا ، فمن
المعقول أن تبدو باديء ذي بدء في نظر العين نسرا ثم عقابا لا العكس ،
ولكنه هنا يقول : إنها بدأت صغيرة ثم صارت كبيرة وهذا محال .

وفي البيت الثاني : ذكر أن النسر يطارد القطام بالضم والفتح وهو
الصقر ، وذلك جهل فاضح بطبيعة كل منهما .

فالنسر من الطيور التي تأكل من صيد غيرها، وتقع على الجيف
المطروحة كالحدأة .

والصفر من عناق الطير وأحرارها كالعقاب والشاهين والباز ، وهي
بئابة الأسود من الحيوان المفترس ، تصيد وتترك بقايا فرائسها للنسور
وغيرها من كلاب الطيور .

فالنسر لا يفكر في مطاردة الصقرا وهو أعجز وأجبن وأضعف من
أن يطارده .

وكان يصح البيت لو قال :

بعضها في طلب البعض كما طارد الصقر على الجو الحماما

الفصل العاشر

أ - أدوات الكتابة ومعروف الرجاء في التشبيه :

ب - تمييز أفضاء الجسم ١٧٧ :

هذه ألوان طريفة من التشبيه ، بل لعلها أطرف ألوان التشبيه جميعاً ،
وبدیهی أن هذه الضروب من صور التشبيه لا تروج إلا في العصور
التي ترتقي فيها الحضارة المادية ، وتنتشر الكتابة والثقافة حتى يمكن انتزاع
هذه الصورة منها .

وحين تصفح آثار الجماهیلین والمختصرین تطالعنا بعض هذه الألوان
على قلة ، وفي إطار محدود ؛ تجرى بها السنة شعراء بعضهم كان ملأ بالكتابة
أو خالط الحضر ، وبعضهم كان أمياً بدوياً ولكن لم يعيه التشبيه اعتماداً
على الرؤية .

يقول مرقش الأكبر :

الدار فقر والرسوم كما رفقش في ظهر الأديم قلم^(١)

وكان مرقش يكتب ؛ فقد دفعه أبوه هو وأخاه حرمة إلى نصراني
من أهل الحيرة فعلهما الخط^(٢) .

وقد عظم اتصاله بالحارث بن أبي شمير الغساني ؛ حتى روى أنه اشتغل
كاتباً له^(٣) .

(١) الفرقش: التزيين والتحصين أو الكتابة ، والأديم : الجلد .

(٢) معاهد التنصيص — ١ — ١٦٣ .

(٣) شعراء النصرانية — ١ — ٢٩٢ .

ويقول طرفة في وصف الناقة :

ونخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت البني قداه لم يجرّد
السبت بالكسر : جلود البقر المدبوغة بالقرظ ، والتجريد : اضطراب
القطع وتفاوته .

شبه خدها في ملاسته بقرطاس الرجل الشامي ، وشبه مشفرها في لينه
واستقامة قطعه بسبت الرجل الباني .

ويقول الاخفس بن شهاب التظلي :

ولابنة حطّان بن عوف منازل كارتش العنوان في الرق كاتب^(١)
ولم يكن طرفة ولا الاخفس يعرفان الكتابة .

ونجد ذلك أيضاً في قول ثعلبة بن عمرو :

لمسن دمن كأنهن صحائف يقار خلا منها الكتيب فواحف^(٢)
وقول الحارث بن حنّاسة اليشكري :

لمن الديار عقّون بالحبس آياتها كهـ سارق الفرس^(٣)

وقول المرّاز بن منقذ الحنظلي العدوي :

وترى منها رسوما قد عفت مثل خط اللام في وحى الزبر^(٤)
وقول معاوية بن مالك :

من الأجزاء أسفل من تمثيل كما رجعت بالقلم الكتابا^(٥)

(١) الرق بالكسر والفتح : جلد رقيق جداً ، أو الصحيفة البيضاء .

(٢) الكتيب وواحف : موزعان .

(٣) الحبس مثلث الحاء : موضع ، والمبارق : الصحف جمع مهرق يضم فكون فتحة .

(٤) الوحى : نقش الكتاب ، والزبر : الكتب جمع زبور .

(٥) الأجزاء : منطقات الوديان جمع جزع بالكسر .

وقول عبد الله بن عتبة الضبي :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كارد في خط الدواة دأدها

وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا وتونيا مهدما كخطك في رقي كتابا منمنيا^(١)

وقول كعب بن زهير :

أتعرف رسما بين دهمان والرقم إلى ذي مراهبط كما خط بالقلم

وفي العصر الأموي نعت لها على أمثال لا توصف بالكثرة في كلام
بعض الأعراب والرهجاز والشعراء .

فمن ذلك ما أنشده ابن سلام لأبي النجم العجلي الراجز ، يصف صديقا
كان يسقى الشراب فينصرف من عنده غملا :

أخرج من عند زياد كالخريف تخط رجلاى بخط مختلف^(٢)
كأنما تكتبان لام اليف

وقول ذي الرمة — يصف عين ناقته — :

كأنما عينها شئها وقد ضمرت وضمها السير في الأضام^(٣)

يريد : كأن عينها في هذه الحال ميم لتدويرها وغثورها .

ومن الغريب أنه أخذ على أبي النجم وذو الرمة أنها يعرفان الكتابة ؛
قال الصولي : وقد عيب أبو النجم بهذا ف قيل : لولا أنه يكتب ما عرف
صورة لام ألف وعناقها لها ، كما عيب ذو الرمة ف قيل : لولا أنه يكتب
ما عرف الميم^(٤) .

(١) النوى كقفل : الحاجز من القراب يقام لهم السيل عن البيوت والتمنمة : الزخرف
والنقش .

(٢) الحرف : ككتف : فاسد العقل .

(٣) الأضام : كقطا : التدران جمع أضامة .

(٤) الموشع — ١٧٧ .

وذكر الأصمعي^(١) : أنه قيل لذي الرمة : من أين عرفت الميم ؟ لولا
صدق من نسبك إلى تعليم أولاد الأعراب في اكتاف الإبل !

فقال والله ما عرفت الميم إلا لأنني قدمت من البادية إلى الربيع ، فرأيت
الصبيان وهم يحوزون بالفجر^(٢) في الأوق^(٣) ، فوقفت حيالهم أنظر
إليهم ، فقال غلام من الغلبة قد أزقم^(٤) هذه الأوقه فحلتموها كالميم .

فقام غلام من الغلبة فوضع منجسمه^(٥) في الأوقه ، فنججه^(٦)
فأفهمها^(٧) .

فعلت أن الميم شيء ضيق فشبهت عين ناقتي به وقد اسلمت^(٨) وأعيت .

وحكوا : أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابي : انظر كم على هذا
الميل من عدد الأميال ؟

ولم يكن الأعرابي يحسن القراءة فضى ينظر ، ثم عاد فقال : رأيت شيئاً
كرأس المحجن^(٩) متصلاً بحلقه صغيرة تتبعها ثلاث كأطباء^(١٠) الكلبة ،
تُفضى إلى هنة^(١١) كأنها قطاة بلا منقار .

ففهم هشام بالصفة أنها خمسة^(١٢) .

(١) أمالي القائل - ٢ - ٦ .

(٢) الفجر بكسر الفاء والراء : الجوز .

(٣) الأوق : الحفر وزناً ومعنى ، مفرداً أوقه بالضم .

(٤) أزق بتشديد الزاي : ضيق .

(٥) المنجم كناية : المقب والسكب .

(٦) نججه : حركه .

(٧) أفهمها : ملأها .

(٨) اسلمت : تغير .

(٩) المحجن كناية ومكسفة : العصا المموجة .

(١٠) الأطباء : حلمات الفروع جمع طبي بالكسر والضم .

(١١) الهنة : الشيء اليسير .

(١٢) ديوان المعاني - ٢ - ٧٢ .

وقد كانت مكتوبة بالحروف ، خمسة ، .
 فرأس المحجن : الحاء ، والحلقة الصغيرة : الميم ، وأطباء الكلبة
 الثلاث : أسنان السين ، والحنة : التاء المربوطة .
 وهو من البراهين الناصعة على حدة ذكاء الأعراب .

ولما جاء العصر العباسي وعم الترف ولان جانب العيش ، وفشت القراءة
 وانتشر العلم والثقافة ، كثرت هذا اللون في آثار المحدثين قولاً وكتابة وشعراً .
 فن ذلك قول أبي نواس - يصف البط - :

كأنما يصغرون من ملاءق صرصرة الأقلام في المهارق
 وقوله في المنسر :

ومنسر أكلف فيه شغفاً كأنه عَفِد ثمانينا^(١)
 ألبسه التطريز من حوله وشياً على الجوزجوز موضونا
 له جراب فوق قفازيه بجمع تأنيقا وتسنينا
 كل سنان عبيج عن مته تخال محنى عطفه نونا
 وقوله بهجو الرقاشيين :

رأيت الرقاشيين سوداً من الصلّى وقدر الرقاشيين بيضاء كالبدر^(٢)
 يبيّنها للمعتنى بفنائهم ثلاث كخط التاء من نقط الخبر
 إذا ما تنادوا للرحيل سمى بها أمامهم الحولى من ولد الذر^(٣)
 وقول ابن المعتز في قيام السقاة بين الندامى - وهو أجدود ما قيل
 في ذلك - :

(١) المنسر كجلس ومنبر : المنفلز ، والشفا : زيادة المنفلز الأعلى .

(٢) الصلّى بفتح الصاد : النار .

(٣) الدر : صفار النمل ، والحولى : ما أتى عليه حول ، والمراد : الصغير جداً .

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه الكلام
وكان السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام
شبه اصطفاة التشرب جلوساً بالسطور ، والسقاة بينهم بالآفات
فأحسن .

وقوله في وصف العباب المؤلف من المزاج :

تكتب فيه أيدي المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق^(١)
لا شيء يسلى سوى قدح تدعى عليه أوداج لإريق
ولعله مما ساعد على ذلك أن كثيراً من غلبان الموالى كانوا من كتاب
الدواوين ، وأن الجوارى الحسان على اختلاف عناصرهن كن يمارسن
الكتابة ، وبشاركن في الشئون الثقافية بنصيب ملحوظ ، فكان ذلك من
منابع الإلهام الشعري .

وإنك لو اجد أثر ذلك فيما يذكرونه^(٢) : من أن المأمون نظر إلى
جارية من جواريه اسمها ، منصف ، تخط خطأ حسناً ، وكان ذا شغف
بها فقال :

أرائي منحت الود من ليس يعرف فما أنصفتي في الحجة ، منصف ،
وزادت لدينا خطوة حين أطرقت وفي إصبعها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المني وهو أعجف
وقوله :

كأنما قابل القرطاس إذ مشقت منها ثلاثة أقلام على قلم^(٣)

(١) التعريق : عدم في المبالغة في المزج .

(٢) ديوان المأمون — ٢ — ٨١ — المقدم الفريد ٢ — ٢٨٣ .

(٣) المشق : مد أحرف الكتابة .

يريد بالأقلام الثلاثة : أصابعها المحيطة بالقلم ، وهي المعنوية بقول
أبي تمام في وصف القلم :

وقد رفدته الخنصران وسدّدت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
ويقول القصّار في وصف جارية كاتبة ، اسمها ، محمّ ،

أفدى البنان وحسن الخط من علم إذا تقيمت من بالحناء والكشم^(١)
حتى إذا قابلت قرطاسها بدّها ترى ثلاثة أقلام على قلم
وكتبت جارية لعل بن الجهم في رقعة بعثت بها إليه^(٢) :

قلب يميل على لسان ناطق وبد تحط رسالة من عاشق
مزج المداد بعبرة شهدت له من كل جارحة بقلب صادق
فيمتد تحت الوساد ، وخده وبساره فوق الفؤاد الخافق
فكتب إليها :

ما رقعة جاءتك مثنوية كأنها نحد على خد
نر اسواد في بياض كما دُرّ فئت المسك في الورد
ساحمة الأسطر مصروقة عن جهة المزل إلى الجد
يا كاتبا أسلني تحته إليه حسي منك ما عندي

ويصف أحمد بن أبي صالح ، ابن شيرازاد ، جارية كاتبة فيقول^(٣) :
كان خطها أشكال صورتها ، وكان بيانها سحر مقلتها ، وكان سكبتها
غشج^(٤) لحظها ، وكان مدادها سواد شعرها ، وكان قرطاسها أديم

(١) التقييم : تخضيب أطراف الأصابع ، والكشم بفتح التاء : تبت بخلط بالحناء ويستعمل
غضايا ، وإذا طيغ صار مدادا .

(٢) العقد الفريد - ٣ - ٢١ - ٤ - ٣٤٩ .

(٣) الممددة - ٢ - ٢٥ - زهر الأدب - ٣ - ٩٣ .

(٤) الفنج بالضم : الدلال والنزل وقيل ملاحاة العينين .

وجها ، وكان قلبها بعض أناملها ، وكان مقصطها^(١) قلب عاشقها .
ويحكى عن بعضهم^(٢) : أنه دخل دار الديوان ، فنظر إلى غلام بيده قلم
كأنه قضيب عقيان ، وعليه مكتوب :

وا بآي وا بآي من كف من يكتب بي

ويقول الصنوبري في كانب جميل الصورة :

انظر إلى أثر المداد بخده كينفسج الروض المشوب بورده
ما أخطأت نوناته من صدغه شيئا ولا ألفاته من قده^(٣)
ألت أنامله على أقلامه شبا أراك فريئدها كفرنده
وكانما أنفاسه من شمعه وكانما قرطاسه من خده^(٤)

ويقول أحمد بن يوسف : ما عبرات الفواني في حدودهن ، بأحسن من
عبرات الأقلام في حدود الكتب !

ويقول العسكري — يصف الصحيفة — :

ياض صحيفة تلتاح حسنا كمن السيف في كف الملبع^(٥)
كغيم رق في أطراف جو وماء ساح في قاع فسيح
ونحكي أرض كافور صريح بها كنبذ من المسك الذبيح^(٦)
كمثل الليل في صبح صديع ومثل الصُّدغ في وجه صبيح^(٧)

(١) المقط بكسر الميم كما ضبطه الجوهري إلا أنه قال : وفيه مقلدة .

(٢) العقد القريد ٣ — ٢٧ .

(٣) شبه شعر الأصدغ المتوية بالنونات .

(٤) الأنفاس : جمع نفس ككسك وهو المداد .

(٥) تلتاح : تلوح ، والملبع بضم الميم : المخاض والملاح بسيفه .

(٦) الذبيح : الفتوق .

(٧) الصديع : المشرق .

وبين سطوره كعجتم مصيب كمثل الخال في الخلد المالح^(١)
ويقول في القلم والقرطاس :

يبدو لناظره بلون أصفر ومدامع سود وجسم منحل
فالدَّرج أبيض مثل خد واضح يثنيه أسود مثل طرف أكل^(٢)
ويقول منصور بن إسماعيل في الدواة :

رسوداء مقلتها مثلها وأجفانها من لجين صقيل
إذا ذرفت عبرة خلتها كغالية فوق خد أسيل

في هذه البيئة القارئة المنقطة ، أنفسح مجال جديد للشعراء يقايسون فيه
بين الأعضاء الجميلة ، والحروف المكتوبة ، وأدوات الكتابة ذاتها .

ولم يكتفوا بذلك فوصفوا الرسائل نفسها — في بهاء قراطيسها ، وصفاء
مدادها ، وملاحة خطوطها ، وجمال حروفها — وصفا تشوبه نفحات ندية
عطرة من الغزل والنسيب ، حتى كأنها أجسام حية تزوق وتروع بحسن
منظرها ودقة أنسجامها ، ورقة بشرتها ، ولين مجستها .

وقد كثُر ذلك بنوع خاص في العصر العباسي الثاني وما تلاه من عصور
وأوغل فيه الشعراء إيقالا شديداً ، واتكثوا عليه في تشبيهاتهم الغزلية
وصور بيانهم كما سنفصله فيما يلي :

١ — الشطبة ، وهي الخط الذي يضرب به على الخطأ في الكلام .

ويشبه بها العذار كقول ابن عبد الظاهر :

بالصدغ أبدى شطبة من شكلها محوط
سأله عن أمرها فقال زاد اللفظ

(١) المعجم يفتح فيكون : النقط .

(٢) الدرج يفتح الدال وإسكان الراء وفتحها : ما يكتب فيه • القرخ •

قلتم بدالى عارض ^(١) مشكّل منقط

جئت شطبت فوقه وقلت هذا غلط

٢ - الحمزة :

وتشبه بها عطفة الصدغ كقول ابن حجة الحموي :

ألف القد مدهالى بعزه وعليها من عطفة الصدغ همزه

وقول القاضي الفاضل - وهو من بدائنة - :

في خده فح لعطفة صدغه والحال حبه وقلبي الطائر

٣ - الألف :

ويشبه بها القد كقول الحموي المتقدم :

ألف القد مدهالى بمزه

وقول النخعي أرزى :

أهيف يحكي بقده الألفا يحضر من لم يمكن به كلفا

أحسن من بهجة الخلافة والأمن م لمن قد يحاذر التلفا

لو أبصر الوجه منه منهزم يطلبه ألف فارس وقفا

وقول ابن الوردى :

قوامه أشبه شيء بالآلف كئلا تكتبه لا يختلف

وقول ابن الجبار :

رنت إلى بعين الظبي والتفتت بحبيده وثنت من قدما ألفا

وقول ابن الدهان - يتحصر على ذهاب شهابه - :

وعمدى بالصبا زمنا وقدى حكى ألف ابن مقلة، في الكتاب

(١) العارض : صنعة القد ، والمراد هنا : العذار .

فصرت الآن منحنيًا كاني أقش في التراب على شباتي
ويشبه بالآلف أيضاً العذار كقول ديك الجن الحمصي :
كان لاما أدبرت فوق وجنته واختط كاتبها من تحنها ألفا
شبه شعر الأصداغ باللام ، والعذار بالآلف .
والشاهد في الشطر الثاني .

وقول العسكري :

وكان دارة صدغه وعذاره ألف تقوّم تحت نون تعطف
شبه الآلف بالعذار ، والصدغ بالنون .
وقوله :

قدالتوى صدغه واختط عارضه كانه ألف من فوقها نون
٤ - اللام .

ويشبه بها شعر الأصداغ كما تقدم في قول ديك الجن .
كان لاما أدبرت فوق وجنته ...
وقول بعضهم :

ذو حاجب ما إن رايت كتونه أبدا وصدغًا ما رأيت كلامه
والشاهد في الشطر الثاني .
وقول ابن الوردي :

قال من أهواء صف صدغي بما فيه توجيه وحبيبه إلى
قلت إن الصدغ لام قد كوى نصّبها قلبي فهذي لام كي
والثورية في قوله : ، لام كي ، غير خافية .

ويشبه باللام كذلك العذار على كثرة - وهو الشعر النابت على
الخد - كقول الحمصي :

يروح مُناجيه بهاروت لحظه
زى فيه لاما فردة فوق خده
وقول ابن كُبانة :

لام العذار أطالت فيك تسبيدي
وقول ابن رشيق :

خطء العذار لها لاما بصفحه
وقول الشاب الظريف :

بأبي أمدى حبيبا
عذر العاذل فيه
وفي قوله : د لاما ، تورية .

وقول سعيد الدين بن عربي :

لما تبدى عارضاً لى فى نمط
وقيل نمل فوق عاج قد سقط
وقال ابن وهبون الأندلسى :

وكان للحسن سر فيه مكتتم
لام يدل على بلبال مبصره
وقول ابن عيشون الأندلسى :

وسنان ما إن يزال عارضه
وقول ابن الخباز :

ولى كاتب أضمرت فى القلب حبه
له صنعة فى خط لام عذاره

ويؤنس منه بصورة آدم
وفصاً من الباقوت من فوق خاتم

كأنها لغرامى لام توكيد

من أجلها يستغيث الناس باللام

نيم القلب غراما
مذراى العارض لاما

قيل ضياء بظلام اختلط
وقال قوم إنها اللام فقط

وشى به ناظرى من طول ما بحثنا
ما زال يبحث وجدى كلما انبعثنا

يعطف قلبى بعطفة اللام

مخافة حسادى عليه وعذالى
ولكن سها إذ نقط اللام بالخال

وقول بدر الدين الدمامي :

لأما عذاريك هما أوقعا قلب المحب الصب في الحين^(١)
لجده له بالوصل واسمح به فضيك قد هام بالأمين
وفي ، لامين ، تورية .

وقول بن حجلة المغربي :

ومستتر من سنا وجهه بشمر لها ذلك الصدغ في^(٢)
كوى القلب مني بلام العذار فعرفني أنها لام كي
وفي « لام كي » تورية .

وقد خالف الشاعر أبو غالب هذا النهج المسلوك فدم العذار ، محتجاً
لذلك بأنه يشبه اللام فقال :

سأصنع في دم العذار يدانعا فمن شاء فليقتض الدليل كما أقتضى
ألا إنه كاللام واللام شأنها إذا التصقت بالإم صار إلى الخفض
٥ - الميم والآلف .

وقع التشبيه بهما في شعر أبي تمام فقال :^(٣)

يرمى السكتية بالسكتاب إليهم ويرون أحرفه الخيس كفاحا^(٤)
من نقشه دُنها ومن ميثاته زرداً ومن ألفاته أرماحا
النفس : الحبر ، وأراد بدم النفس : الخيول السود .

وقد فسرهما المرحوم الأستاذ محمود مصطفي بالقيود وهو جائز ،
ولكن تفسيرها بالخيول هنا أنسب ، لأنه يصف عتاد جيش والخيول من

(١) الميم كمين : الغلام .

(٢) التي : التي . وهو ما كان ضمناً فيلسفه الغزل .

(٣) حبة الأيام — ٣٦ .

(٤) الخيس : الجيش لأنه خمسة أقسام : الطليعة والساقة واليمين والميسرة — وما
المجندتان — والقلب .

أم معداته ، ويؤكد ذلك ذكره الزرد والرماح .
والعلاقة بين المبهمات ، وحلقات الدروع ، وبين الالفات ، والرماح ظاهرة .
٦ - الواو .

وهي من أكثر الحروف دورانا في شعر الغزل .
والسر في ذلك أن الحسان في العهد القديم كن يلوين ذواتهن
المسترسمة على الخدود بشكل الواو ، ففتن الشعراء بهذه الصورة الأنيقة
وأغرموا بوصفها .

وقد أشار أبو نواس إلى هذا الصنع بقوله :
ألوى بصبري أصداع كوين له رغل صدرى ماتحوى غلائله
ومن ذلك قول محاسن الشواء :
أرسل فرعا ولوى عاجرى صدفا فأعيا بهما واصفه
نخلت هذا حبة خلفه تسمى وهذا عقربا واقفه
ذا ألف ليست لوصل وذا واو ولكن ليست العاطفه
وقول العباسي :

نطمعني في الوصل أصداعه حين ترى أحرف العطف
وهو ينظر إلى قول البهاء زهير - وفيه من الرشاقة واللفظ
ما فيه - :

عسى عطفة للوصل ياوا صدغه على فاني أعهد الواو نعطف
وقول أمين الدولة التلمساني :
نصبت على التميز إنسان مقلتي أشاهد قدأ منه نصبا على الظرف
أأخشى فراقا بعدها وقساوة وقد جاء وار الصدغ للجمع والعطف
وقول برهان الدولة القيراطي :

ووردى خدى نرجسي لواحظ مشايخ علم السحر عن لحظه روراً
و واوات صدغيه حكين عقارباً من المسك فوق الجلتنار قدالتوا
ومن النثر قول ابن حبيب الحلبي^(١) : وصدغ معقرب ، لكنه لرقية
السليم^(٢) باب مجرب ، بعيد من القطف ، كأنه واو العطف ، أو جيم بحكمة
الصوج ، أو منجل صيغ من سيج^(٣) .

ويأتى ذكر لواوات الأصداغ في البلاغة لدى التكلم على مواضع وصل
الجملة ، وهو عطف بعضها على بعض بالواو أو إحدى أخواتها .

فإن ذلك أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع ، بأن تكون إحداها
خبرية والآخرى إنشائية ، فإن هذا من مواضع الفصل وهو ترك
العطف ، ولكن ترك العطف يوم خلاف المراد في مثل قولك : لا ،
وشفاك الله لمن قال لك : إنه مريض .

فإن الفصد الدعاء للمخاطب ، ولكنه لو ترك الوصل بعدم العطف
لأوم أنه دعاء عليه لاله ، فوصل بين الجملتين بالواو العاطفة لرفع التوهم ،
مع أن الأصل في ذلك الفصل لا الوصل .

ويسوق البلغاء في ذلك مثالا طريفا بعد غاية في أدب النفس والدرس
والأنس^(٤) وسلامة الذوق ؛ وهو أن المأمون^(٥) قال يوماً ليحيى بن أكرم :
هل تغدبت اليوم ؟

فقال : لا ، وأيمد الله أمير المؤمنين !

فقال المأمون : ما أخطف هذه الواو وأحسن موقعها !

(١) نسيم المصباح - ٤١ .

(٢) السليم : الصوج .

(٣) السيج كسب : الخرز الأسود .

(٤) يقسم الأدب إلى هذه الأقسام الثلاثة .

(٥) في زهر الزميع للأستاذ الخلاوي : أنه الرشيد - ٢٢ - ٦٨ .

وذلك أنه لو قال : لا ، أيد الله أمير المؤمنين ! لكان أشبه بالدعاء عليه لا له .

ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين لا ، و أيد الله أمير المؤمنين ، حذراً من وقوع الشبهة^(١) .

وفي رواية : أن المأمون سأل يزيد بن أبي ربيعة : فقال : لا ، وجعل الله فداك يا أمير المؤمنين !

فقال : لله درك ! ما وضعت هذه الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا !

ووصله وحمله^(٢) .

وكان صاحب بن عباد يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداع في حدود الملاح !

وكان الثعالبي يسمى مثل هذا : حشو اللوزنج !
والحق : أن الإشادة بقيمة هذه الواو والحث على استعمالها في مثل هذه المقامات ، يرجع إلى عهد بعيد ، فأول من به على ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — .

فقد رووا : أنه مر به رجل معه ثوب فقال له : أتبيعه ؟

فقال الرجل : لا ، رحمك الله !

وفي رواية : لا ، عافاك الله !

فقال الصديق : قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون^(٣) ! ألا قلت : لا ، ورحمك الله^(٤) !

(١) غار القلوب — ١٨٩ .

(٢) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٠٤ .

(٣) في السطرف ١ — ٤١ : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم .

(٤) غار القلوب — ١٨٩ .

وفي الرواية الأخرى : قل : لا ، وعافاك الله^(١) .
وبما يتصل بالواو : أن القدماء كانوا يطلقون على ما بعد العشرين من
الشهر ، الواوات .

وكان أهل بغداد يقولون لرمضان بعد العشرين : وقع في الاثنين
وبعضهم يقول : وقع في الواوات .
وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قد قرب الله منه كل ما شئنا كأنني بهلال الفطر قد لمعا
نخذ لشرك قبل العيد أهيت فإن شرك في الواوات قدوقعا
٧ - واو عمرو .

يضرب بها المثل لما لا يحتاج إليه .

وأول من ضرب بها المثل أبو نواس حيث قال لأشجع السكلى :
أيها المدعي سلبها سفاها لست منها ولا قلامة ظفر^(٢)
إنما أنت من سليم كواو ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو
وفي بعض الروايات :

إنما أنت ماصق مثل واو ألصقت في الهجاء ظلما بعمرو
وتبعه الشعراء في ذلك فقال ابن بسام :

ياطلوع الرقيب ما بين إلف يا غريماً أي على ميعاد
يا ركوداً في يوم صيف وغيم يا وجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنا فإنما أنت فينا واو عمرو أو كالأحدث المعاد
وأحسن ما سمع في ذلك قول أبي سعيد الرستمي للصاحب بن عباد :

(١) البيان والتبيين — ١ — ٢٩٦ .

(٢) يريد قبيلة سليم .

أفى الحق أن يعطى ثلاثون شاعراً ويُحرّم مادون الرضا شاعر مثلى^(١)
 كما ألحقت واو بعمر و زيادة وضويق وبسم الله في ألف الوصل
 وقد جاءت في وصف شوقي من قصيدة يصف بها البسفور :
 فيا من يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيداً أو سميعا
 رأيت محاسن الدنيا جميعا فهن الواو والبسفور عمرو
 ومثل واو عمرو في التثيل بالزيادة التي لا يحتاج إليها : بغلة الشطرنج .
 ٨ — النون .

ويشبه بها شعر الأصداغ كقول ابن المعتز :
 غلالة خده ورد جنى ونون الصدغ منقوط بحال
 وقوله :

له طرّة كجناح الغُداف تلوح على غرّة مقصّره^(٢)
 وفي عطفة الصدغ حال له كما استلب الصولجان الكره
 والصولجان معقوف كالنون .
 وقول العسكري :

لا والذي دار من صدغيك وانعظفا وصار نونا إذا صيرته ألفا
 وقوله :

إذا التوى الصدغ فوق وجنته رأيت تفاحه بها عضه
 وأثر المعنة مفوس كالنون .
 وقول نصر المروى في تفاحة معضوطة :

(١) حكذا ورد في ثمار القلوب — ١٢٠ ، وفي طراز المجالس للنفائس — ١١٣ :
 من الناس من يعطى المزيد من النى .
 (٢) الطرّة : شعر التامية ، والغداف : الفراخ .

تفاحة قد عضها قر عداً ومسك موضع العضة
فكأنما نونان قد كُتبا بالمسك في كرة من الفضة
شبه في البيت الثاني أثر الأسنان العليا والسفلى بنونين بجامع التقويس .

وقول شيخ الشيوخ الخوى :

قلت وقد عقرت صدغاً له عن مشقة الحاجب لم يحجب
قدست يارب الجمال الذي ألف بين النون والعقرب
وقوله أيضاً :

وبدر دجى لم يفتقل كسيته ولكنه مازال في القلب والطرف
بلوح لعينى ماشقاً نون صدغه فأعبد خلاقى على ذلك الحرف
وفي الحرف تورية لطيفة .

أخذها ابن الوردى بفاثيتيهما وغالب ألفاظهما فقال :

يأبدر رنم نوره باهر منزله في القلب والطرف
صدغك حرف النون في مشقه من يعبد الله على حرف
ولعمري إنها سرقة فاحشة كما يقول الخوى (١) .

وقول ابن جابر الأندلسى :

سلب القلب غزال قدسه قد حكي الباب لنا والعلى
نون صدغيه إذا أبصرها كاتب ألقى إليه القلبا
ويشبه بالنون الحاجب أيضاً ، وهو تشبيه فاض كثير كقول ابن حجلة
المغربي :

يرنو إلى بعين نون حاجبها كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان

والشطر الثاني مأخوذ من قول ابن الرومي :

تصمى المحب وتلقى الدهر شاكية كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان
وقول ابن نباتة :

أغمزه بناظر ولم أفه بكملة
يجيبني بحاجب لكن بنون العظمة
وسرقه الصفدي فقال : (١)

إن قلت زرتي قال لا بحاجب ما أظلمه
فما ترى جوابه إلا بنون العظمة

ونون العظمة : هي نون المضارع التي للتكلم مع الغير ، لأنه يتكلم بها
المعظم نفسه .

وقول آخر :

لها حاجبان الحسن والسفنج فيهما كأنهما نوتان من خط ماشق
وقول أمين الدولة التليساني :

أضيف الدجى معنى إلى لون شعره فظال ولولا ذلك ما نخص بالجر
وحاجبه نون الوقاية ما وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر
٩ - الحرف المشدد .

ويشبه به المتعافان كقول ابن سناء الملك :

وليلة بقنا بعد سكرى وسكره نبذت وسادى ثم وثقته يدي
وبقنا كجسم واحد من عناقنا وإلا كحرف في الكلام مشدد

وقد اعترض عليه : بأن العروضيين يعدون الحرف المشدد بحرفين ،
ولو قال : كحرف في النظام لسلم من النقد ؛ لأن الحرف المشدد في الخط

يعتبر حرفاً واحداً ووزن البيت لا يخلت به (١).

١٠ - لا .

وتستعمل في القلة كقولهم : فلم يكن إلا كلا ولا حتى حدث كذا .
وكقول أبي نواس :

يا عاقر القلب منى هلا تذكرت خللاً
تركت منى قليلاً من القليل أفلاً
يكاد لا يتجزأ^٢ أقل في اللفظ من لا

وقد تستعمل مهموزة أو غير مهموزة في العناق كقول أبي جعفر
الإليري :

لقوامه الألف التي جاءت بحسن ما ألف^(٣)
عانقته فكانتني لام معانقة ألف

وقول بعضهم - يخاطب المحبوب - :

إذا اجتمعت لامي مع الألف التي حكمتك قواماً ما يصير فقال لا
وقول نور الدين أبي الحسن المايرقي :

وذى هيف راق العيون انثاؤه بقدر كريان من البان مورك
كتبت إليه هل تجود بزورة فوقت « لا » خوف الرقيب المصدق
فأيقنت من « لا » بالعناق تفاؤلاً كما اعتنقت « لا » ثم لم تتفرق

ويقول المصنف (٤) : وهذا أحسن من قول ذي القرنين بن حمدان :

إني لأحسده لا في أحرف الصحف إذا رأيت اعتناق اللام والألف

(١) تزيين الأسواق — ١١٧ — ديوان الصباية — ١٧٢ .

(٢) ما ألف : ما عهد من قبل .

(٣) تقع الطيب — ٢ — ٢٩ .

وما أظهما طال اعتناقهما إلا لما لقيا من لوعة الأسف
وفي رواية :

إلا لما لقيا من شدة الشغف (١)

وهو عندي أفضل ، لأنه ليس من الضروري أن يعتنق الأسيفان ،
ولكن فرط الشغف يحمل على ذلك دائما .

وهو كذلك أحسن من قول القيسرائي :

استشعر اليأس منها ثم تظمعتني إشارة في اعتناق اللام والالف
ومن قول الحموي :

بالحب صيرت لاما قاعتي أترى يوما تعانق من أعطافك الألفا
لأن التكلف فيهما ظاهر .

وأشهر ما قيل في هذا المعنى قول أبي بكر بن عارضة :

إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الألفا
وقد قالوا : إنه من المقلوب ، لأن الألف هي التي تعانق اللام .

ويجوز أن يحتاج له بأن يقال : الألف لا تعانق اللام إلا واللام
معانقة لها (٢) .

١١ - الشكلتان .

وثانيتان في وصف تحول العاشقين مع المعانقة كقول أبي الحسين
التونسي :

ثم اعتنقنا فترا ! معا في ظلة الليل ونور العتاب
جسمين صارا في الهوى واحدا كشكلين اختلطا في كتاب

(١) ثمرات الأوراق — — ٢٢٤ .

(٢) ديوان المعاني — ١ — ٣٤٣ .

وقول آخر :

سقى لعيش مضى والدهر بجمعنا ونحن نحكى عناقا شكل تنوين

وقول المتنبي :

كم وقفة سحرتك شوقاً بعد ما غري الرقيب بنا ولج العاذل^(١)

دون التعانق فاحلين كشكتي^(٢) تصنّب أدقهما وضم الشاكل^(٣)

يقول : مع الشوق العارم الذي نحن فيه لم نقدر على المعانقة خشية الرقيب والعاذل ، ولكننا وقفنا فقط متقاربين ، فكنا من شدة تحولنا في هذه الحال كأننا شكلتنا نصب في دقتهما وتقاربهما . وهو من مبالغات المتنبي المذمومة . والفرق بين قول المتنبي وقول من قال :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

أن الثاني قد أدّى إليك شكلا مخصوصا ، لا يتصور في كل واحد من المذكورين ، على الانفراد بوجه وصورة لا تكون مع التفريق . وأما المتنبي فأراك الشيتين في مكان واحد وشدد في الفرق بينهما ، وذلك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة في فرط التحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا ، والاول لم يعن بحدث الدقة والتحول ، وإنما عني بأمر الهيئة التي تحصل في العناق خاصة : من انعطاف أحد الشكين على صاحبه ، والتفاف الحبيب بمحبه كما قال الآخر :

لف الصبّا بقضيب قضيبا

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة ، لأن خطي اللام والألف في

(١) سحرتك : ملأتهك أو أهبتك ، ويروي : سحرتك : بمعنى حبستك عن الكلام ،

ويروي سحرتك

(٢) الشاكل : الذي يرسم شكل الكتاب ، وهو فاعل أدق أو ضم على التنازع .

، لا ترى رأسيهما في جهنم ، و تراهما قد تماسا من الوسط ، وهذه هي حال المعتنقين على الأمر المعروف ، فأما قصد المتن في ليس بصفة عناق على الحقيقة وإنما هو تضام وتلاصق ، وهو بنحو قوله :

ضمته ضمة عدنا بها أحدا فلو رأنا عيون ما خشيناها
وذهب القاضي الجرجاني في بيت المتن : إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

ثم يقول : ولئن كان أخفاه كما يقولون فليس عليه من عتب ، لأن التعب في نقله ليس بأقل من التعب في ابتدائه .

ويقول عبد القاهر : ولئن كان المتن قد زاد على الأول ، فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكاين ، ولكن من جهة أخرى وهي الإعراق في الوصف بالنحول ، وجمع ذلك للخلتين معا ، سم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك^(١) .

١٢ - بقيت حروف أخرى يقع بها تشبيه الأعضاء على فلة ، وهي :

(١) عطفة الرء ، ويشبه بها الشارب .

(٢) السين ، وتشبه بها النيا ، والطرة .

(٣) الشين ، وتشبه بها الطرة المضفورة .

(٤) الصاد ، وتشبه بها العين ، والفم .

(٥) العين ، وتشبه بها العين ، والصدغ .

(٦) الميم ، ويشبه بها الفم .

(٧) النقطه ، ويشبه بها الخال .

وما تقدم من هذه التشبيهات تظهر في بعضه المناسبة واضحة معقولة :

(١) أسرار البلاغة — ١٦٢ — ١٦٤ .

كتشيبه الحاجب بالنون : والدين بالعين : وانغم بالميم : والقدر بالالف :
والصدغ بالواو : والحال بالنقطة : والثنايا بالسين .

وبعضها لا نكاد نبين وجه الشبه فيه : كتشيبه العين بالصاد : والطره
المضفورة بالسين مثلاً .

وفيما يلي أمثلة عامة تنظم هذه التشبيهات الأخيرة وما سبقها : وبعضها
يحتوى على ضربين أو أكثر .

قال ابن عبد ربه :

وأزهر كالعيّوق من كف زهراء	لنا منهما داء وبرء من الداء ^(١)
ألا بأبي صدغ حكى العين عطفه	وشارب مسك قد حكى عطفه الراء
فما السحر ما يُعزى إلى أرض بابل	ولكن فتور العين من طرف حوراء
وكف أدارت مذّهب اللون أصفرا	بمذهبة في راحة الكف صفراء

وقال أبو جعفر الإلبيري على لسان محبوب يعتذر عن ترك السلام :

لا تعنّ على ترك السلام فقد	جاءتك أحرفه خطا بلا قلم
فالسّين من طرّقتي واللام مع ألف	من عارضتي وتلك الميم ميم فى

وقال بدر الدين بن لؤلؤ :

لك مبسم عذب اللى يفتر عن	برّد وسلسال الرضاب مرادى
وفم يحاكي المسم إلا أنه	كم حوله عين نحووم كصاد

وقال ابن مطروح :

قالت لنا ألف العذار بخده	فى ميم مبسمه شفاء الصادى
--------------------------	--------------------------

وقال آخر :

يا سين طرتها وصاد عيونها	إنى أعوذها بسورة طه
--------------------------	---------------------

(١) الأزهر : يريد به الكأس ، والعيوق : نغم أحمر مضى فى طرف الحجرة .

وقال ابن نباتة من أرجوزة :

لأحرف الحسن على خديه خط
وإن رأيت قد العلى فصيف
والعارض التوفى ما أنصفته
وأهأله من حرف نون قد عُرِف
يأتى بنقط الحال فى الإعجام
وقال ابن نقادة :

صنم الجمال فصاده من عينها
والميم فوعا فالخروف تألفت
وقال ذو الوزارتين ابن الحكيم
القول فيه (١) :

الا واصل مواصلة العذار
فغضب مائس من فوق دِعَص
ولاح بخده ألف ولام
رمانى قاسم والسين صاد
وقد قُسمت محاسن وجهيه
فذاك الماء من دمعى عليه
ألفت الحب حتى صار طبعاً
ودع عنك التخلُّق بالوقار
تعمم بالدجى فوق النهار
فصار معرفاً بين الدرارى (٢)
بأشفار تنوب عن الشِّفار (٣)
على ضدين من ماء ونار
وتلك النار من فرط استعارى
فا أحتاج فيه إلى أدكار

(١) نفع العليب - ٣ من ٥ - ٩ .

(٢) يعنى بالألف واللام : العذار .

(٣) الأشفار : الأعصاب جمع شفر بالضم والفصح .

فقال عن مذاهبيه ذهاب وفي هذاك أشعاري رشعاري

وقال شمس الدين الضربير الأندلسي :

قد حَفَّقَ الحسن نون حاجبه وخطَّ في الصدغ واوردحان

ومدَّ من حسن قدح ألفا أوقف عيني وقوف حيران

وقال أيضاً :

ألف ابن مقلة في الكتاب كقده والنون مثل الصدغ في التحسين

والعين مثل العين لكن هذه شَبَّكَت بحسن وقاحة ومجون

وعلى الجبين لشعره سين بدت حار ابن مقلة عند تلك السين

قل للذي قد خط تحت الصدغ من خيلائه نُقِطًا لجانب فتون^(١)

يا للرجال وبأهلها من فتنة في وضع ذاك النقط تحت النون

وقد أخذ عليه قوله :

شَبَّكَت بحسن وقاحة ومجون

فإن الوقاحة لا يصح وصفها بالحسن مهما بلغ صاحبها من الجمال ، ولو قال : خلاعة ومجون لحف نصيبه من الملام .

وقال بعضهم :

كأن عذاره في الخلد لام ومبسمه الشهي العذب صاد

وطرة شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقاد

وقد ولد الشاعر من تشبيه العذار باللام ، وتشبيه الفم بالصاد : لفظة « لعل » ، وولد من معناهما . ومن معنى تشبيه الطرة بالليل : ذكر سرقة النوم ؛ وهذا أغرب توليد سمع^(٢) .

(١) الخيلان بالسكسر : جمع خال .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ٢٧٧ .

وقول بعض الوعاظ - وقد رواه لسان الدين بن الخطيب^(١) - وهو من البدائع :

عانت لأمّ صدغها صادٌ لثي فأرنتها المرآة في الخد لصا^(٢)
فاستراحت لما رأت ثم قالت أكتاباً أرى ولم أر شخصاً^(٣)
قلت بالكشط يمتحنى قالت اكشط بالثنايا وتابع الكشط مصاً
ثم لما ذهبت أكشط قالت كان لصاً فصار واقعاً فصاً
قلت إن الفصوص تُطَبَّع بالثم م على خد كل من كان رخصاً^(٤)
وقول شهاب الدين الخبزي :

إن صدغ الحبيب والقم والعما رضى منه ، وار ، وصاد ، ولأم^(٥)
هي وصل بين المحاسن لما تم حسناً وبالعذار الثمام
غير أنى أراه وصل وداع فيه يُقضى افتراقنا والسلام
وقول ابن حجلة المغربي :

حبيب تغالى قدّه حين لُحمته وقال قواى ربحه ما يُفوّم
وخطّ عذارى اعجم الخال لأمه ولم أدر أن اللام في الخط يُعجم
وقول ابن سناء الملك :

له قم يمنع ضيقه أن يُخرج اللفظ بتقويم
ولفظه سكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم
ما فيه ميم ولحكه علامة الجزم على الميم

(١) نفع الطيب - ٣ - ٣٦٤ .

(٢) يريد باللام شعر الصدغ ، وبصاد القم : القم .

(٣) الكتاب : الكتابة .

(٤) الرخص : الطرى الفس .

(٥) الواو لصادغ ، والصاد لقم ، والعارض - وهو العذار - للام .

ومن أجمع ما قيل في ذلك قصيدة طويلة لعلاء الدين الشاهينى :

كتب الجمال على صحيفة خده بيراع معناه البهيج ومثلاً
فبدا بنونى حاجيه معرقاً من فوق صادى مقلبه وأفقلاً
ثم استمد قد أسفل صدغه ألفاً ألفت بها العذاب الأطولاً
فأعجب له إذ هم ينقط نقطة من فوق حاجبه فجاءت أسفلاً
فتحققت في حاء حمرة خده خلا فعم هواه قلبى المبتلى
قسماً بفاء فتور جيم جفونه لأخالفن على هواه العذلاً

وقد عد داود الأنطاكى هذه القصيدة من أبدع ما رأى (١).

والحق أنها متكلفة غارقة في التصنيع ، وقد تراكت فيها الحلى
والبهارج ، كما كثرت نوالى الإضافات في قوله : . حاء حمرة خده ، و . فتور
جيم جفونه ، فزادتها ثقلاً .

وإن كان فيها شئ طريف ، فهو محاولة الشاعر أن يرسم صورة تسودها
الوحدة والانسجام لوجه جميل قسيم ومبسم ، تألفت الطبيعة في إبداعه فجاء
تحفة من التحف !

وحسن منه أن يذكر : أن الجمال أراد أن ينقط نون الحاجب ، لأن
من حق النون أن تكون لها نقطة ، ولكن النقطة وقعت على الخد
فاستحالت خالاً !

فهذا تعليل دقيق جميل لوجود الخال على الخد ، وإن شئت نقل
مغالطة رائعة ؟

ولا شك أن هذه التشبيهات تنفاوت تفاوتاً كبيراً ، بمقدار حفظ قائلها
من القدرة على النظم ، ومبلغ نصيبهم من موافاة الطابع وتوهم الخيال ،
ولكن قيمتها في دلالاتها على مبلغ ثقافة الشعراء العلية وفطنتهم إلى

خصائص الحروف في استعمالها ، واستخدام صورها في البيان ، وتطويع الشعر لذلك .

وقد وقع هذا النوع من التشبيه أيضاً في الرسائل الإخوانية كثيراً ، ولا يقل طرافة عن سابقه .

فمن الشعر : ما جاء في تصاعيف رسالة بعث بها القاضي الفاضل إلى موفق الدين خالد القيرواني - وقد وقف له على رسالة كتبها بالذهب - ...
فمن ألفاتها ألغت الهمزات غصونها حنائم ، ومن لامات بعدها يحسدها
الحب على عناق قدودها النواعم ، ومن صادات نعتت غلة القلوب
الصوادي ، والعيون الحوائم ، ومن واوات ذكرت ما في واوات الأصداغ
من العطافات ، ومن ميات دنت الأفواه من نغرها لتناول جنى الرشقات ،
ومن سينات كأنها الثنايا في تلك الثغور ، ومن دالات دللت على الطاعة
لصكاتها بإحناء الظهور ، ومن جيمات كالمناسر^(١) تصيد القلوب التي تحفق
لروعات الاستحسان كالطيور ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ،
وخالد ، فيها خالد ، وتحيته المحامد ، ويده تضرب في ذهب ذائب ،
والناس تضرب في حديد بارد^(٢) .

وقد جمعت هذه الرسالة خصائص القاضي الفاضل في كتابته ، وكتابة
عصره ، كما جمعت معظم التشبيهات الماثورة في الحروف ، وتشبيه الهمزات
بالحنائم تشبيه جيد صائب ، فالتمشابه بينهما على طرافتها وغرابتها ودقة
التفطن إليها ، يشهد البصر بتمام المطابقة فيها ، فهو من التشبيه المنظور
القريب البعيد .

وما جاء من الشعر في وصف كتاب قول المفسري :

رأينا به روضاً تدبج وشبه إذا جاد من تلك الأبادي غنائم

(١) المناسر : المنابر جمع منبر بالفتح والكسر .

(٢) ديوان الصباية - ٤٢ - ٤٣ .

به ألفات كالغصون وقد علا عليها من الهمز المطَّلَّحات
وقوله أيضاً في وصف كتاب - وقد وقع فيه النظم خلال كلام
نثرى - :

ولم تر عيناى من قبله كتابا حوى بعض ما قد حوى
كان المباسم ميمانه ولاماته الصدغ لما التوى
وأعينه كميون الحسان تغازلنا عند ذكرى الهوى
كتاب ذكرت بالفاظه عهداً أزكت بالحى والمثوى

وبلاحظ أن التشبيهات قد وقعت مقلوبة بخلاف ما مر منها ، كما
يلاحظ أن الشعر بعيد عن التكلف ، رقيق البسج ، سلس الحاشية .
وقول ابن حيطة المغربي في تقرير قصيدة مدح بها السلطان : الناصر
حسن :

فكم ألف بها أمسى رشيق القامة النضره
وكم شين بحاشية الكتاب م تخالفا طوره
وعين أصبحت في العين م مثل العين والشقره
وقوله أيضاً - يقرظ كتاباً ورد عليه من بعض أصحابه في مفتتح
رسالة - :

ووافق كتاب منك عال حكمت أفاضله السمر الطوالا
وكم شأدت من تحت ولكن مثالك ما رأيت له مثالا
لئن أمست به ألفات قطع فكم وصل به ضمن الوصالا
وكم ألف به للوصل لاحت كفصن البان لنا واعتدالا
تعاق لامها طورا يمينا وآونة تعانقها شمالا (١)

(١) الضمير في تعانق اللالاف .

ظننت اللام فيه عذار خد وخلت النقط فوق الحد خالا
وأسمى طالع الطاءات فيه يُعلم لينته الغصن الكالا
والشاهد في البيت السادس حيث شبه اللام بالعذار ، والنقط بالخال ،
وقول أبي العلت الأندلسي :

ورد الكتاب فكان عند وروده عيدا ولكن هيج الأشواقا
نواته قد عانت صاداته كعناق مشتاق يخاف فراقا
فكانما النوات فيه أهلة وكأنما صاداته أحداقا
والشاهد في البيت الأخير :

ومن الإخوانيات الطريفة : أن جمال الدين بن مطروح كتب إلى
بهاء الدين زهير ، يطلب منه دَرَج ، فرخ ، ورق وكانت قد ضاقت به الحال :

أفلس يا سيدي من الورق فجذب دَرَج كمرضك اليَقَق (١)
وإن أتى بالمداد مقترنا فرحبا بالحدود والحدق
فكتب إليه البهاء :

مولاي سَيرت ما رسمت به وهو يسير المداد والورق
وعز عندي تسير ذلك وقد شبهته بالحدود والحدق
وقد ذكر ابن خلكان : أنهما كانا بالمشرق (٢)

وهذا النمط من التشبيهات يكاد يكون معدوما في شعر العصرين .
وقد وقع منه التشبيه بالحروف في شعر شوقي كقوله في الحمزية
النبوية :

(١) ديوان البهاء زهير - ١٤١ .
(٢) البقي بقصصين : العهد البهاقي .
(٣) وفيات الأعيان - ٢ - ٣٤٣ .

نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة في اللوح واسم محمد طغفراء
اسم الجلالة في بديع حروفه ألف هناك واسم طه الباء
وقوله :

في كل منطقة حواشي نورها نون وأنت النقطة الزهراء
وقوله من أندلسية :

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فتترعى
وسوار كأنها في استواء ألفت الوزير في عرض طرس^(١)
وشبه البارودي بالحروف إجمالا في قوله :

غادر الندى بالجزيرة الفيحاء واحد الصبوح بنفمة الورقاء
والمح بطرفك ما رحت يد الصبا فوق الغدير تجد حروف هجاء^(٢)
من كل حرف فيه معنى صبوة تتلو به الورقاء لحن غناء
ومن قول المؤلف^(٣) في وصف رسالة لصديق جاء فيها تشبيه أدوات
الكتابة ببعض سمات الحسن :

أتحف الخلل خله بكتاب نهل القلب من الماء وعلا
قد حكى طرسه بحيا وضيا وحكى خطه عذارا تدلى
وحكى نفسه سواد عيون لسواد القلوب سدا^(٤) دن نبلا^(٥)

(١) السوارى : السد : والوزير : ابن مدة .

(٢) الوعى : الكتابة .

(٣) ألحان الأسيل — ٥٠ .

(٤) النفس بالكسر : الحبر .

الفصل الحادى عشر

التشبيهات العقم

الأصل فى العقم بضم فسكون : عدم قبول الحمل .

نقول : امرأة عقيم ، ورجل عقيم : لا يولد لها .

ومن المستعار : ربح عقيم : غير لاقح ، والدنيا عقيم : لا ترد على صاحبها خيراً ، والمملك عقيم : لا ينفع فيه نسب ، لأنه يقتل فى طلبه الأب والولد والأخ والعم ، وعقل عقيم : لا ينفع صاحبه ، وفى الحديث المرفوع العقل : عقلان ، فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم ، وأما عقل صاحب الآخرة فنمر (١) .

ومن التشبيهات الممتازة نوع يسمى : التشبيهات العقم جمع عقيم .

وقد وصفها ابن رشيق بأنها : التى لم يسبق إليها ، ولا تعدى أحد بعدهم عليها (٢) .

وقد جعلوا اشتقاقها من الريح العقيم خاصة ، وهى التى لا تلحق شجرة ولا تنتج ثمرة (٣) .

وكان الأولى أن يكون اشتقاقها من الرحم العقيم : لأنها الحقيقة والأصل ، وعقم الريح مستعار منها .

ومهما يكن فالمناسبة واضحة . فهذه التشبيهات لانعقب ولداً ولا توئى

(١) الأساس والقاموس مادة عقم .

(٢) المبدؤ — ١ — ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق — ١ — ٢٠٢ — خزائن الأدب البندادى — ١ — ١٢٤

تمرة ؛ لعدم استطاعة محاكاتها ، فكأنها بتراء لاخلف لها ولا عقب ، فلما كانت كذلك ، وصفت بالعقم على التشبيه بالريح العقيم كما شاءوا ، أو الرحم العقيم أو المرأة العقيم ، أو الرجل العقيم إذا شئت .

ولا غرو في هذه التسمية ، فكثير من التشبيهات يصح وصفه بأنه : ولود ؛ كتشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والجمل بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد ، والسخي بالغيث والبحر والريح ، والعزيم بالسيف والسيل ؛ ونحو ذلك ، لأن الناس كلهم الفصيح والأعجم والعالم والجاهل فيه سواء ؛ لآنا نجده في مغارم الطباع ، ومناهب الأفكار ، فهو مولود من عدة بطون ؛ وموصول النسب بكثير من الأرحام .

بل وجد أن بعض الكلمات كالأسد واليد ، تكثر فيهما الاستعارة في جميع اللغات (١) .

وهناك ضرب آخر كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخرا عن أول ؛ نحر قولهم في صفة الحد كالورد ، وفي القدر كالفضن ، وفي العين كعين المهابة من الوحش ، وفي العنق كعنق الظبي وكأبريق الفضة أو الذهب .

فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعا ثم تساوى الناس فيه ، إلا أن يولد أحد منهم فيه زيادة ، أو يخص بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم .

ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح ، والذكاء بشواظ النار (٢) .

فأمثال هذه التشبيهات لا توصف بالعقم ، لأنه يمكن الإتيان بأمثالها والحدو على منوالها .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب - ٩٩ .

(٢) المعنى - ١ - ٢٩ - ٨٠ .

ومن أوائل التشبيهات العقم قول امرئ القيس :

له أبطالا ظي وساقا نعامة وإرخاء رحان وتقريب تغفل
شبه خاضرت فرسه : بخاضرتي الظي في الضمور ، وساقيه بساق
النعامة في الانتصاب والطول ، وعدوه بإرخاء الذئب - وهو نوع من العدو
يشبه خبب الدواب - وتقريبه - وهو وضع الرجلين موضع اليدين في
العدو - بتقريب التغفل ، وهو ولد الثعلب .

فجمع أربع تشبيهات في بيت واحد .

وفيه يقول خلف الأحمر ^(١) : لم أر أجمع من بيت امرئ القيس :

له أبطالا ظي

• • •

وقوله أيضاً :

له قصصاً غير وساقا نعامة كفضل الهجان القيصري العضوض ^(٢)
ويقول فيه ابن قتيبة ^(٣) : وقد تبعه الناس في هذا الوصف وأخذوه
ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد . وكان أشدهم إخفاء لمرة
الشاعر ابن المعتز في قوله :

له قصصاً رثم وساقا حمامة وسالفنا هيسق من الزبد أريد ^(٤)

وبما جاء على نهج امرئ القيس ما نسب إلى يزيد بن معاوية :

لها حكم لقمان وصورة يوسف ونفمة دارد وعفة مريم
ولي سقم أيوب وغربة يونس وأحزان يعقوب ووحشة آدم

(١) البيان والبيان — ٣ — ٢٥٣ .

(٢) القصصيان : ضلعان ثلبان الفرقونين ، والهجان من الإبل : الأبيض الكريم .

(٣) الشعر والشعراء — • • .

(٤) الحيق : الظليم ، والزبد : العير .

وقول أبي الحسن الموسمي في مدح الطائع العباسي .

وإذا أمير المؤمنين أضاف لي أملى نزلت على الجواد المفضل
رأى الرشيد وهيبة المنصور في حسن الأمين ونعمة المتوكل
وقول التتالي :

لما نزلت على الجواد المفضل ووجهك للغم والهم فارح
وفيك لنا فن أربع تسل علينا سيوف الخوارج
لحفظ الضياء ومشى القبايح وطوق الحناء وحسن الدوارج^(١)
وقول العبدار في الغضب — وكان يراه دائماً على مائدة أيوب بن جعفر —
وكان لا يذب أكل الضباب :

له كشف إنسان وخلق عظاية وكالقرود والخنازير في المسخ والغضب^(٢)
يشير في الشطر الثاني إلى قوله — تعالى — : « قل هل أنبئكم بشر من
ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القرود والخنازير
وعبد الطاغوت » .^(٣)

وقول ابن حمديس الصقلي في وصف الزرافة :

لها نخدا قمرم وأظلاف قره ب وناظرنا رنم وهامة أبئل^(٤)
وقول شاعر في هجاء محمد بن أحمد بن الحسين بن حرب — وكان موثقاً
بييع الغلات ببغداد بأمر المعتمد — :

ألا تعسا ونكسا لابن حرب وضرباً بالمقارع أي ضرب^(٥)

(١) القبايح : الخجل ، والدوارج : ضرب من الطيور ، جميل النظر ، ملون الريش .

(٢) العظاية بالغص : دويبة تشبه سم أهرمن .

(٣) هاشم الحيوان — ٦ — ٧٨ للاستاذ عبد السلام هارون .

(٤) القرم : الفحل بترك « للعلوفة » والقرمب : السور السن أو السكير الضخم ،
والأبل يضم الهزلة وكسرها وفتح الياء الشدة . التيس الجبل .

(٥) نكسا بالضم ويفتح ازدواجاً .

لقد ملكت به بغداد جورا وأفرغ بفضه في كل قلب
تبارك من حياء بوجه فرد ونكهة ضيغم وطباع كلب^(١)
وعيني فارة ولسان ثور وخلفة فتقد وجبين دب
ومن التشبيهات العقم قول النابغة :

تراهن خلف القوم خُرُرًا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرائب
يصف النور بضيق العيون وصغرها ، ويشبهها وهي جائعة بشيوخ
جلوس ، في ثياب خلط غزلها بور الأرائب .

ولم يسلم لهم بن رشيق بأن هذا التشبيه عقم ، وعده من قول طرفة
بصف عقابا :

وعجزاء دقت بالجناح كأنها مع الصبح شيخ في بحاد مقنع^(٢)

وهو ينظر أيضا إلى قول امرئ القيس :

كان ثيرا في عرائن وبله كبير أناس في بحاد زمثل

• • •

ومنها قول النابغة المشهور :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وفيه يقول الأصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كان زهير
يمدح السوق ، ولو ضرب أسفل قدميه مائة مرة على أن يقول مثل
قول النابغة :

فإنك كالليل . . .

ماقاله ، ومالا يقوله مثل زهير فإن غيره أبعد منه^(٣) .

(١) النكهة : ربح الفم ، والأسد يوصف بالخر كالصقر .

(٢) تدف : تدنو من الأرض حين تقتفص .

(٣) ديوان الماتى ١ - ١٧ - ١٨ .

ويقول ابن قتيبة : وهو مما سبق إليه ولم ينازعه (١) .

• • •

ومنها قول زهير — شبه فيه المرأة بثلاثة أو صاف في بيت واحد — :
تنازعت المهبأ شهبأ ودُرأ البحور وشا كمت فيها الظباء (٢)
فأما ما فُريق العقد منها فن أدماء مرتعها الخلاء (٣)
وأما المقلتان فن مهابة وللدرد الملاحاة والصفاء
وقد أعجب النقاد بتقسيم زهير هذا حتى قال بعض الرواة (٤) : لو أن
زهيراً نظر في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ما زاد على
ما قال (٥) .

وقد قلده الشعراء في هذا التقسيم فقال البحتري :

وفي القهوة أشكال من الساقى وألوان
حباب مثلها يضحك عنه وهو جذلان
وسكر مثداً أسكر طرف منه وستان
وطعم الريق إذ جا دبه والصب هيمان
لنا من كفه راح ومن رياه ربحان

وقول ديك الجن :

وغرير يقضى بحكمين في الرا ح بحور . وفي الهوى بمُحال
للقار دفه وللخوط ما سُحِّل م لنا رجيد للفسال (٦)

(١) الشعر والشعراء — ٨٠ .

(٢) شا كته : شابه وشا كله .

(٣) الأدماء : الغلبة المشرية بياضاً .

(٤) الشعر والشعراء — ٥٠ .

(٥) يشير إلى رسالة عمر في القضاء وهي من مفاخر الشعر مع الإسلامى خالد .

(٦) النقا : القطعة من الرمل المنقادة المحدودة .

فعلت مقلناه بالصب ما تفعل م جدوى الأمير بالأموال
وقول سيف الدين المشد :

وغادة أعشق من أجملها بدر الدجى والظلي والخيزران
لأن ذا يشبهها بهجة وذاك الحاظا وهذا بسان
وقول كشاجم :

البدر لا يغنيك عنها إذا غابت وتغنيك عن البدر
في فها مسك ومشعولة وحرف ومنظوم من الدر
فالملك للنسكة والخمر الريقة م واللؤلؤ للفسر

وفي قول كشاجم بقول العسكرى : قد جمع تقسيما صحيحا ، ولم
يترك مزيدا (١) .

• • •

ومنها قول عنقرة في وصف ذباب الروض :

ونحلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترثم
هزجا يحسك ذراعاه بذراعاه قدح المسك على الزناد الأجذم
الأجذم : المقطوع اليدين ، والمسك : المقل على شيء .

وترتيب الكلام قدح المسك الأجذم على الزناد .

شبه الذباب -- إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى -- برجل
مقطوع اليدين ، بقدح بعودين .

ومنى سقط الذباب يفعل ذلك ؛ لأنه أبدأ بحك إحدى يديه بالأخرى
كانه بقدح بعود ن مرخ (٢) أو عفار أو عرجون ، أو غير ذلك مما
يقدح به .

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٤٠ .

(٢) المرخ والعفار : ينفع الميم والعين : شجر شديد الاحترق .

وقد نوه النقاد بهذا التشبيه ، وبالفوا في الإشادة به إلى درجة الإسراف فقال الجاحظ : قالوا : لم يدع الأول للآخر معنى شريفا ولا لفظا بهيا إلا أخذه غير عنقرة .^(١)

ويقول : ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب قام ؛ أو في معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء بعده أو معه — إن هو لم يقدر على لفظه فيسرق بمضه أو يدعيه بأسره — فإنه لابدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعارض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، ويقول إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنقرة في صفة الذباب ؛ فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ، ولقد عرض له بعض المحذنين من كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر .

ثم يقول : ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنقرة^(٢) .
ويقول في موضع آخر : لو أن امرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنقرة لا فتضح^(٣) .

ويقول ابن عمر البغدادي : وهذا من عجائب التشبيه ، يقال : إنه لم يقل أحد في معناه مثله^(٤) .

ويقول العباسي : ولا يعرف المتقدمين معنى شريف إلا نازعهم إياه

(١) البيان والتبيين — ٤٣ — ١٩٥ .

(٢) الميوان — ٣ — ١٩٦ ، الماسي ، ٤ .

(٣) المصدر السابق — ٣ — ٣٩ .

(٤) خزانة الأدب لبغدادي — ١ — ١٢٥ .

المتأخرون ، وطلبوا الشركة فيه إلا قول عنقرة وما زال الشعراء وجهابذة النقد يرون : أن قول عنقرة أوحده ، ويقيم فذ ، وأنه من المعاني العقم التي لا توجد^(١) .

ومع هذا فينبغي ألا تتابعهم على هذا الغلو ، وتلقى أقوالهم بالحذر ، فقد ظهر أن البيت معيب وأنه مبني على أساس منهار ، والفضل في ذلك للتحقيق العلمي ؛ فقد ذكر المغفور له أحمد قيمور باشا نقلاً عن مجلة البيان لليازجي : أن صوت البعوض والذباب والنحل وأشباهاها ، يحدث من اهتزاز أجنتها في الهواء ، على حد ما يكون من أجنته الحام .

وعلى هذا في قول عنقرة تناقض ظاهر ؛ لأنه لا يمكن أن يحك الذباب إحدى ذراعيه بالأخرى إلا وهو واقع ، ومتى كان واقعاً تكون أجنته ساكنة فلا يمكن أن يصوت ، ولكن عنقرة توم أن صوته من حنجرته فلم يمتنع عنده الجمع بين هاتين الحالتين . انتهى بمعناه وأكثر لفظه .^(٢)

وعنقرة معذور في ذلك ، فإن هذه من المسائل العلمية الدقيقة ، التي لا تدخل تحت ملاحظته ، ويمكن أن مضت القرون على ذلك ، ولم ينسب إلى هذا الخطأ إلا في العصر الحديث .

وللغزالي رأى في الذباب وعمل ذراعيه لا يتخلو من طراقة ، ولا ندري مبلغ صحته ؛ يقول : خلق الله العين طبقات لطيفة ، وجعل الأجفان غطاء ملاصقاً لها بأهداب طويلة ؛ فانفتح الأجفان وانطباقها ، تتمسح به الحديقة من دقيق الهباء الذي يتخالط الهواء ، ويخرج بشعاع البصر من بين الأهداب وهو كالشبكة عليها بحكمة باهرة ، ولما كان الذباب لا أجفان له تراه يمسح

(١) معاهد التنصيص - ٢ - ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) أوام شعراء العرب - ٣٧ .

بيديه عينيه ثم يحكمهما ؛ لينزل ما تلبد بهما بما فضل مع الهواء ، وهذه حكمة
بالغة (١) .

وقد اندفع الشعراء وراء عنقرة ؛ يقلدونه في بيته تقليداً أعمى ، نائراً بما
ذاع له من حسن الصيت وقبالة الشأن .

فشبه بعضهم من يفرك يديه ندامة بفعل الذباب ، وزاده اللطم ؛ فقال :
فعل الأديب إذا خلل به مومه فعل الذباب ، يرن عند فراغه
فتراه يفرك راحتيه ندامة منه ويقبعا بلطم دماغه
وقول السلاحي في وصف زيار :

إذا حكّ أعلى رأسه فكأنما بسالفتيه من يديه جوامع (٢)
وتعرض حازم في مقصورته لتشبيه عنقرة فقال :

ألقي ذراعاً فوق أخرى وحكى تكلف الأجذم في قطع السنا
كأنما النور الذي يفرعه مقتدحا لؤنده سقط وري (٣)

فقصر عنه التقصير البين ، وأخل بذكر الإكباب والحك — ولها في
تشبيه عنقرة موقع بديع — هذا إلى التكلف البادى على قوله :

تكلف الأجذم في قطع السنا

ثم رام أن يزيد فيه فقال .

كأنما النور

ويرى المصطفى — وما رآه هو الحق — : أن المعاني الشهيرة البارعة
كتشبيه عنقرة هذا ، لا ينبغي أن يتعرض لأخذها متعرض إلا بالزيادة
البيئة البديعة الموقع ، والعبارة الناصعة السهلة ، حتى يبين المفضل للثاني على

(١) طراز المجالس — ٢٤٨ .

(٢) السالفة : ناحية مقدم العنق ، والجوامع : الأغلال .

(٣) يفرعة : رملوه ، والبيضة مثلت العين : ما يقطع من النار عند الاندفاع .

الأول ، والشفوف للأخذ على المأخوذ منه ، وإلا كان فاضحاً لنفسه ، وما سنا
للمعنى الذى تعرض لأخذه^(١) .

وقد أحجم بعض الشعراء عن تقليد البيت الثانى الذى هو محل الشاهد
لعسر أخذه . وفلدوا البيت الأول الذى يصف ترنم الذباب ، فقال
ابن الرومى من قطعة رائعة :

إذا ارتفعت شمس الأصيل ونفّضت

على الأفق الغربى وكُرُسا مُزعزعا

وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة^٢

من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا

وظلت عيون الروض تُفَصِّلُ بالندى

كما اغرورقت عين الشجر لتدما

فكانت أرافينُ الذباب منالكم

على شدوات الطير ضربا موقعا

وفى ذلك يقول الحصرى^(٣) : وقول عنزة فى وصف الذباب أوحده

فرد وينيم قد ، وقد تعلق ابن الرومى بذيله وزاد معنى فى قوله :

إذا ارتفعت شمس الأصيل

وقال عبد الحميد بن عبدون :

ساروا ومسك الدياجى غير منهوب وطرة الشرق غفل غير تذهيب

على رُبالم يزل شادى الذباب بها يلهى بألق ملفوظ ومضروب

وقول سعيد البطليوسى :

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٣ .

(٢) زمر الآداب — ٣ — ١٦٠ .

كان أهاذيج الذباب أساقف لها من أزاهير الرياض محارب

ومن التشبهات العقم قول عنبرة أيضاً في صفة الغراب :
خرق الجناح كان لحسي رأسه جلمان بالأخبار عش مواع
شبه لحيه بالجلدين وهما آلة الجز .

وقول الفر بن توكب :
كعاب عليها لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد المفصل (١)
قال العسكري : كأجواز الجراد غريب بديع ، لم يسبق إليه ولا أعرف
واحداً أخذه (٢) .

وقول الحطينة في الناقة :
ترى بين لحسها إذا ما رَغَمَتْ أسعاما كبيت العنكبوت الممدد
رَغَمَتْ : غضبت ، واللفام : الزبد .
يشبه الزبد الذي يخرج من فيها فسيح العنكبوت .

وقال الراعي — يصف جعودة الرأس — :
جدلاً أسك كان فروة رأسه بُذرت فأنبت جانبها قُلفلاً (٣)

(١) الأجواز : الأوساط .

(٢) ديوان المعاني — ١ — ٢٥٥ .

(٣) الجدل ككثف وعدل : الصلب ، والأسك : الصغير الأذنين .

وقول بشر بن أبي خازم - يصف عروق الأرملى (١) وقد كشفها
ثور - :

يُشير ويُبدى عن عروق كأنها أعنسة خراز تخط وتُنشر
* * *

وقول الطرماح في الظلم :
بجتاب شملة بُرُجد ، لسرايته قدر وأسلم ما سواه البُرجد (٢)
* * *

وقول مضر بن ربيعي في صفة رأس النعامة :
سكا عاربة الأخادع رأسها مثل المدق وأنفها كالمرصد (٣)
* * *

وقول ذى الرمة في وصف الليل :
وليل كجلباب العروس قطعتة بأربعة والشخص في العين واحد
أحم علاف وأبيض صارم وأعيس مهرب وأروع ماجد
وأشد هما الغرناطلى (٤) :

وليل كأنشاء الرويزى جبته . . .
والرويزى : الطليسان كما جاء في القاموس نقلا عن الصاغاني .
وفي اللسان . أراد ثوبا أخضر من ثيابهم شبه سواد الليل به .
وفي الأساس : الرويزى : ضرب من الطلياسة ، تصغير رازى منسوب
إلى الرى ، على غير قياس .

(١) الأرملى : نوع من الشجر .

(٢) السراية . الظهر ، والبرجد بالضم : كساء غليظ .

(٣) الدق بكسر الميم وفتح الدال وكهتعد : آلة الحق .

(٤) شرح مقصورة خازم - ١ - ٣٥ .

والأحم : الأسود ؛ يعنى به الرجل ، وعلافي : منسوب إلى علاف
ككتاب : وهو رجل تنسب إليه الرجال ؛ لأنه أول من عملها : والأعيس :
بغيره الأبيض ، والمهرى بفتح فسكون : منسوب إلى متهرة بن حيدان حتى
من العين ، والأروع : الماجد يكتفى به عن نفسه .

وجلباب العروس : أخضر اللون ؛ والعرب تعبر عن السواد بالخضرة
قال تعالى : «مُدَّهَا مَنَانٌ . . .»

قيل في تفسيرها : خضر أو ان من الرى سوداوان ؛ ويقال : إن العراق
إنما سمي سوادا ، بلون السعف الذى فى النخل ومائه .

ويقول الجاحظ^(١) : إنه لا يريد لون الجلباب ولكن يريد سبوغه .
وقد أخذ ابن المعتز ونقله إلى ما هو أطرف منه وهو قوله :
وليل كجلباب الشباب قطعته بفتيان صدق يملكون الأمانيا

* * *

وقول عدى بن الرقاع :

تَرْجَى أَغْنَى كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقَةٍ قَلَمَ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاءِ مَدَادَهَا
وقد سبقت قصته مع جرير .

* * *

وقول مجنون ليلى^(٢) :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قَبْلَ يُغْدَى بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحَ
قَطَاةَ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تَعَالَجُهُ وَقَدْ غَلِقَ الْجَنَاحُ
عزها : غلبها ، وغلق بالكسر : من الغلق بالفتح وهو الحبس .

(١) الحيوان — ٣ — ٧٧ .

(٢) لبها السكرى لقيس لبي في ديوان المداينى — ١٠ — ٢٧٠ .

ويروى : تجاذبه بدل تعالجه .

والبيت تصوير رائع لقلب العاشق الواله في حالة الذنوى والاضطراب ا
وفيه يقول المبرد : وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا
المقدار^(١) .

* * *

وقول بشار :

كأنما النقع يوماً فوق رؤوسهم سقف كواكب البيض المبائر
وهذا المعنى كما يقول الجاحظ^(٢) : غلب عليه بشار كما غلب عنزة
على قوله :

وخلا الذباب ، البيتين ،

وقد أورد ابن قتيبة^(٣) البيت هكذا :

تبني سناكبها من فوق رؤوسهم سقفاً كواكب البيض المبائر
ونسبه إلى العتابي ، وقال : إنه أخذه من قول بشار المشهور :
كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهادى كواكب

* * *

وقول ابن الرومي في خباز رفاق - وقد أشدهما أبو عمر والفيدي^(٤) - :
ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشكّ اللحم بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

(١) الكامل - شرح المسمى - ٦ - ١٠٤ .

(٢) الحيوان - ٣ - ٣٩ - السامى .

(٣) الشعر والشعراء - ٤٧٩ .

(٤) المواقف الفصحى - ٢ - ٩٣ .

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرى فيه بالحجر

• • •

وقوله في أحدب^(١) :

قصرت أعادعه وغازض فكذاله فكأنه مترقب أن يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفحة وأحس ثانية لها فتجتمعا
وابن الروي في وصف خباز الرقاق، يجري على عادته في الاستقصاء
والاستيعاب والشمول ؛ فهو يحلو علينا صورة كاملة النواحي ، تامة
الأضواء والظلال ، متدرجة في استيفاء أجزائها مع الترتيب والتنسيق ،
فن قطعة عجين إلى تكويرها إلى تقويرها .

ثم زاد الصورة وضوحاً بما مثل لها في البيت الأخير من تمثيل حمى ،
فلو أن إنساناً رسم الخباز والرقاقة ، ما زادنا معرفة بهما أكثر من وصف
ابن الروي لها .

فهذا تشبيه عجيب يوشك أن يكون قطعة من الشاشة البيضاء ، لما فيه
من الحياة النابضة النامية والحركات المختلفة .

وتشبيه الأحدب لا يقل عن سابقه طرافة ولا حيوية ولا دقة ، فهو
يصور الأحدب تصويراً شاملاً جامعاً في قصر عنقه ، وتطامن مؤخر رأسه
ولم يكفه ذلك حتى التمس له علة من رقب الصفع ، ومن يخش الصفع يصر
إلى هذه الحال الزرية !

ثم وصف مرة أخرى شكل بدنه في تقوسه وتقارب رأسه من رجليه
والتمس لذلك علة طريقة أيضاً ، وهي رقب الصفعة الثانية بعد أن ذاق
حرارة الأولى !

وأحسب أن هذا وصف يرثى على الرسم والتصوير والنحت في وضوحه

(١) في معاهد التنصيص - ١ - ١٧١ : أنها لعبد الله بن النطاح .

وبيانه ؛ لانه لا يقف عند رسم الاشكال ؛ بل يملأ وجودها على هذه الصفة .

° ° °

وقول سيف الدولة في قوس قزح :

قال أبو الحسن الإفريقى : أنشدنى سيف الدولة لنفسه - وهو أحسن ما قيل في وصفها - :

وساق صبيح للصبح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الفمض
يطوف بكلمات العقار كأنهم فن بين منقضى علينا ومنقضى
وقد نشرت أبدى الجنوب مطارفا

على الجو دُكنا والحواشي على الأرض^(١)

بطرؤها قوس السحاب بأحر على أخضر في أصفر إثر مبيض
كأذيال غود أقلت في غلال مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقد فقس على آثاره كثير من الشعراء فأجادوا ، ولكنهم لم يلحقوا به .
قال العلوى الجمالى :

فشئت سرعة أيامهم بسرعة قوس يسمى قزح
تلون معترضا في السماء فاتم ذلك حتى نزع

وقال الواواء الدمشقى :

أحسن يوم ترى قوس السماء به والشمس مسفرة والبرق خلس
كانها قوس رام والبرق لها رشق السهام وعين الشمس برجاس

وقال ظاهر الدين الحريرى من شعراء الحريرة :

(١) غس ربح الجنوب لأنها تجمع السحاب .

ألت ترى الجوى مُستعبراً يضحكه برقه الخلب
وقد بات من قزح قوسه بعيداً ونحبه يقرب
كطابق عقيق وفيروزج وبينهما آخر مذهب
وقال سعيد بن حميد القيرواني :

أما ترى القوس في الغمام وقد نَمَقَ فيه الهواء نُوءاراً
حكى الطواويس وهي جاعلة أذناها للياه أستاراً
أخضر في أحمر على يَمَقَ على وشاح السحاب قد داراً
كأما المزن وهي راهبة شدت على الأفق منه زُتاراً
وقال عبيد المحسن الصوري :

تأمل الجو ترى والياً قد ولي العهد على الشَّحْب
سار وقوس الله تاج له ركضاً من الشرق إلى الغرب

وقوس قزح يشبهها ما يقل لونه ولا يدوم مكانه ، وقد سميت بذلك
لنونها من القزحة بالضم وهي الطريقة من صفرة وحمرة وخضرة ،
أو لارتفاعها من قزح بمعنى ارتفاع ، أو قزح اسم ملك موكل بالسحاب ،
أو اسم ملك من ملوك العجم ، أضيفت قوس إلى أحدهما^(١) ، أو هو قزح
بالعين أي قوس السحاب .

وبلاحظ ما تقدم أن سيف الدولة سماها : قوس السحاب ، والعلوي
سماها : قوس قزح ، والوأياء سماها : قوس السماء ، والقيرواني سماها :
قوس الغمام ، والصوري سماها : قوس الله .

وفي الحديث : لا تقولوا : قوس قزح ولكن قولوا : قوس الله ، فإن
قزح من أسماء الشياطين^(٢) .

(١) القاموس المحيط مادة قزح .

(٢) المواهب اللطيفة — ٢ — ٢٧

وفي رواية : أن ذلك لابن عباس^(١) .

ويحوز أن تكون سميت بهذا الاسم ، قوم ، وأضيفت إلى الله
— تعالى — لأنها من فعله وسائر القسي من يرى الناس وفعلهم^(٢) .

ومن التشبيهات العقم الثرية قوله — تعالى — ، والقمر قدرناه منازل
حتى عاد كالعرجون القديم .

، والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظان ماء ، حتى إذا
جاءه لم يجد شيئا .

« وإذا غشيهم موج كالظلل .. » .

« كأنهم جراد منتشر . » .

« أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه بحاب
ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها . » .

ومن الحديث : « الناس سواسية كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون
بالعافية ، » .

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . » .

ومن صور البيان العقيم — وإن لم يكن من التشبيهات — قول
أبي نواس ، نذكره لصلته بما نحن فيه :

ودار ندائى عطلوها وأدجوا بها أثر منهم جديد ودارس
ماسب من جر الزقاق على الرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صمبي وجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك الحابس

(١) نهاية الأرب — ١ — ٩٠ .

(٢) غار القلوب — ١٩ .

تُدار علينا الراح في عسجدية حبشها بأنواع التصاوير فادرس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهأ تدربها بالقسي الفوارس^(١)
فللراح ما زرعت عليه جيوها والماء ما دارت عليه الفلاس
أقنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترحل خامس
يريد بالعسجدية : كثوساً مذهبة فيها صور منقوشة ، وهي صورة
كسرى ، وصورة المها والفوارس .

ومعنى البيت السادس : أن حد الخمر من هذه الصور التي في الكثوس
إلى التراقي والنحور ، وأنها مزجت بالماء فانتهى المزاج فيها إلى ما فوق
رؤوسها ، وقد يكون الحجاب هو الذي انتهى إلى ذلك الموضع لما مزجت
فأزبدت .

والمعنى الأول أبدع ، وفائدته معرفة حدها صرفاً من حدها ممزوجة .
وفيهما يقول الجاحظ نظرنا في الشعر القديم والحديث ، فوجدنا المماثي
تقلب ويؤخذ بعضها من بعض غير قول عذرة في الأوائل .

وخلا الذباب بها

وغير قول أبي نواس في المحدثين ، الأبيات المتقدمة ،

وعن يموت بن المزرع : قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً
يفضل هذه الأبيات التي لأبي نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلاء فقال
واقه بأبا عثمان : إن هذا هو الشعر ولو نقر لطن !

فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجراز والحرف .

وقد علق على ذلك ابن الأثير بقوله : ولعمري إن الجاحظ عرف
فوصف ، وخبر فشكر ، والذي ذكره هو الحق^(٢) .

ولكن ابن الأثير يناقض نفسه في موضع آخر فيقول : أكثر

(١) تدربها : تخطبها .

(٢) القل السائر - ١٢٠ .

العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه : إنه مبتدع ، ثم يقول : ويحكى عن الجاحظ أنه قال : ما زال الشعراء يتناقضون المعاني قديما وحديثا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه ، وما أعلم أنا ما أقول لهم ولأبي نواس سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار ، وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى ؛ فإنه لا كبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير لحسكها في شعره .

والذي عندي في هذا : أنه من المعاني المشاهدة فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيرا ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلائس التي على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر (١) .

فنحن نرى أن ابن الأثير في هذا القول الأخير ، قد عدل عن موافقة الجاحظ في وصفها بالإبداع المتفرد بعد أن وافقه أولا .

وقد اختلف الناس في تفسير البيت الأخير ، فذهب بعضهم إلى أن الأيام سبعة : ثلاثة في المصراع الأول ، وأربعة ذكرت مطوية في المصراع الثاني . والآكثرون والصولي يذكرون : أن أبا نواس مر بالمدائن فعدل إلى ساباط ، فقال له بعض أصحابه : ندخل إيوان كسرى ، قال : فدخنا فرأينا آثارا في مكان حسن تدل على اجتماع كان لقوم قبلنا ، فاقننا خمسة أيام نشرب هناك ، وسألنا أبا نواس صفة الحال فقال : هذه الآيات . . . ويقول ابن الأثير : ومراده من ذلك : أنهم أقاموا أربعة أيام .

ثم يعيبه بالتكرير والتطويل : فيقول : وبالعجالة ! يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العلى الفاحش في ضمن تلك الآيات العجيبة الحسن (٢) .

(١) اللؤلؤ السائر - ١٢٥ .

(٢) المصدر المتقدم - ٢٢٩ .

والمعجب : كلام ابن الأثير لا كلام النواصي : فذكر الأيام هنا
مستملح ، لأنها أيام قصف ولهو وطرب ، فلكل يوم نصيب من اللذة ،
وله وزنه في الدهر : وقيمته في العمر ، حتى تستحق أن تذكر تفريق لاجلة
لمزية كل منها ، ولعله لو استطاع أن يأتي بها جميعاً على هذا الشاكلة لفعل .
فهو كمثل قول الفرزدق :

أسقني خمسا وخمسا وثلاثا واثنين

من عقار كدم الجو ف يحتر الكليتين^(١)

فالتطويل هنا غير موجود ، وقد أوقع ابن الأثير في هذا الوهم أنه
جعل الأيام أربعة .

ومعنى هذا : أن المصراع الثاني يحتوي على يوم واحد هو اليوم الرابع ،
ولو عرف أنه يتضمن أربعة أيام ، وأن البيت كله يشتمل على سبعة
أيام ، هي الأيام التي أقاموها في النصف كما يدل عليه الفهم الصحيح ، لعدده
من الدعة الدالة لا التطويل المحل .

نعم بعد من التطويل والفضول قول ابن حيون :

أيامشبه البدر بدر السماء لسبع وخمس مضت واثنين

وباكامل الحسن في نعتة شغلت فؤادي وأسهرت عيني

فأما مننت وإما قتلت فأنت القدر على الحاليتين

لأن قوله :

لسبع وخمس مضت واثنين

ليس في ذكرها تلذذ ولا استرواح ، وإنما هو العي والحصر .

وكذا قول ابن الرومي :

(١) بحر بفتح الحاء : لازم ومتعد .

بنت سبع وأربع وثلاث أسرت قلب رجبها المشتاق

فإنه يريد أنها بنت أربع عشرة سنة؛ فأطال بدون فائدة .

وفد ذكروا : أن أبانواس اهتدى إليه من قول امرئ القيس :

فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وجاءوا بماء غير طرقي ولا كدر^(١)

فجعل الماء والشراب قسمين ؛ فقلق أبانواس عليه وأخفاه بما

شغل به الكلام من ذكر الصور^(٢) .

والحق أن المرفة غير واضحة ، ولا يحتاج الأمر هنا إليها ؛ فالشاعر

بسبيل وصف شيء مشاهد تكرر رؤيته ؛ كثوس ذهبية نقشت صورة

كسرى فارس في قمرها ، وفوارس تختل بنفسها وسهامها بقر الوحش في

جوانبها ، ونهر تبلغ من الكثوس إلى حد الفراق والنحور ، وما يمزج

بها يغطي قلانس الفرسان .

والبيت بيان لحد الخزة الصurf من حدها بمزوجة ، وليس في وصف

الكثوس على هذه الحال ما يعيا به إنسانا

وقد أخذه أبو العباس الناشيء فولد معنى زائدا^(٣) ؛ وذلك حيث يقول :

ومدامة لا يفتنى من ربه أحد حباه بها لديه مزيدا

في كآسها صور تظن لحسنها عرّبا برزن من الحيام وغيدا^(٤)

وإذا المزاج أثارها فتقسّمت ذهبا ودرأ توّما وفريدا

فكأنهن لبسن ذاك مجاسدا وجعلن ذا لنحورهن عقودا

(١) الطرقي : المطرون التي خوضته الإبل وبولت فيه .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٢ .

(٣) زهر الآداب — ٣ — ١٥٨ .

(٤) العرب بضمين : التحبيات إلى أزواجهن جمع عروب بالفتح .

الفصل الثاني عشر

تشبيه السخرية والتهكم

هناك لون من التشبيهات يقصد منه فوق الذم ، نوع من السخرية والتهكم ؛ يستمدان عناصرهما من الوصف بأشياء تبعث على الضحك في العادة. وليس من الضروري أن تكون هذه التشبيهات مقذعة ، أو جارحة للشرف ، أو قارضة للعرض ، وإن كانت لا تخلو من ذلك في الجملة ، وإنما المهم أن تشوبها روح الهزء ، وأن يكون الغرض الأول منها ؛ اللذع والتسكيت والتبكيت ، وأن ترمى إلى الهزل والتندر أكثر مما ترمى إلى السب والقذف ونحو الآثلاث !

فن ذلك مثلا : أن نصيبيا الشاعر خرج من عند هشام بن عبد الملك وعليه ثياب بيض ، فنظر إليه الفرزدق فقال :

كانه لمّا بدا للناس أيرحارُلف في قرطاس

فالغرض الاساسي من مثل هذا التشبيه التهزؤ بالموصوف ، والضحك منه ، وإن حوى ذمالة بالسواد ، واختلاف الهيئة ، وعدم التناسب بالجمع بين النقيضين !

وأنت ترى حقا ؛ أن هذا الوصف يحملنا على السخرية والضحك من صاحبه ملء الأشداق ، ولكننا مع هذا لا نشعر بأنه مهين أو حقير أو نذل أو صاقل ، ولا هو نفسه يحس ذلك وإن أحس الخجل ، لأن الأمر لا يتعدى تصويره في لونه ولباسه ، وما تفرع عنهما من هيئة ، تصويراً بطابق الحقيقة وإن لم يفتن لها الناس ، وفتن لها الشاعر الأملح ، وليس في ذلك انتقاص لكرامته ، وقدح في مروءته ، ووضع من منزلته ؛ فالسواد بما

لا حيلة فيه ، والبياض في الثياب مما يجب ويستجد ، ولكنه الشعر الذي قال فيه أبو تمام :

يرى حكمة مافيه وهي فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ومن بدع ذلك قول رجل من أهل الكوفة في المغيرة بن شعبة —
وكان أعور آدم دميما — (١)

إذا راح في قطية (٢) متازرا فقل جعل يستن في لبن محض
فأقسم لو خرت من استك بيضة

لما انكسرت من قرب بعضك من بعض
قال ابن دريد لأبي حاتم : ما أظن أحدا سبقه إلى قوله : يستن في لبن
محض .

قال : بلى ، كان إبراهيم بن عربي واليا لليامة : فصعد المنبر يوما ، وعليه
ثياب بيض ، فبدا وجهه وكفاه ، فقال الفرزدق :

ترى منبر العبد اللئيم كأنه ثلاثة غربان عليه وقوع
فهذا يشبه ذلك وإن لم يكنه (٣)

وهناك أسلوبان للسخرية لا يكاد يكون لهما ثالث ، وهما : أسلوب السخرية
المباشرة ، وأسلوب السخرية التي تلف وتدور ، والتي لا بد من أن تلقى العدو
في الميدان سافرة غير مقنعة ، تخيل للناس أنها تنحو سبيل الحياء ، ثم تخبى .
بعد ذلك فتتسلف عدوها نسفا بالأساليب الدبلوماسية الناعمة الملمس .

وفي ذلك يقول جوفسون : إن الفضح لا يكون ذا خطر إلا إذا حملته

(١) آدم : أسمر .

(٢) القطية على غير قياس وقد تسكر : ثياب بيض تنسب إلى قبط مصر ، والجمع :
قباطى يضم القاف وفتحها .

(٣) أمالي الغالي — ١ — ٢٨٢ .

مركبة من الكياسة والذكاء . والفرق بين الفضح الفج وبين الفضح المذهب هو كالفرق بين الرأس الذى تهشمه مراوة ضخمة ، والرأس الذى يردى به سهم مسموم^(١) .

ولست طريقة السخرية سهلة ميسرة لكل أديب وشاعر ؛ لأن ذلك يرجع إلى مواهب رزقها أفراد قليلون فى الزمن المتطاوّل .

ونحن نعرف مئات من الناس بل ألوفاً ، ولا نكاد نعرّ بينهم على واحد خفيف الظل ، طيب النفس ، لطيف الروح ، رقيق المزاج ، حلو النادرة .

وأحسب أنه قد تمرّ عصور ، وتتعاقب أجيال ، ولا يجود الزمان بمثل نجيب الريحاني مثلاً ؟

والإجماع متعقد على أن مجالس الأئس والظرف والابسط والمفاكحة قد أجدبت بموت البايلى ، وإمام العبد ، وعبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم وغيرهم من زعماء النكسة ، ولا تزال أما كنهم شاغرة تنتظر من يملؤها .

وفى الهجاء نفسه لا يجيده كل شاعر ؛ لأن بعض النفوس لم تؤت موهبته ، وقد كان البحرى — وهو علم من أعلام الشعر ، وثانى المطبوعين على خياله بعد ابن نواس — فى حكم النقاد بكينا متخلفا فى الهجاء ، لا يوابه منه إلا الرذل السخيف المخشوب ، الذى ينال من قائله أكثر من قيل فيه ، على حين ترى جماعة من الشعراء على رأسهم الخطيب ، وبشار ، وابن الرومى كأنهم خلقوا له ؛ لكثرة ما تصرفوا فى فنونه ، ولجريانه على ألسنتهم بلا جهد ولا كلفة ، حتى لنخالهم عقارب شائلة الأذنان ، مسوقة إلى ضرب كل ما لامسته بحكم الفطرة .

وهذه النزعة التهكية قديمة قدم الإنسان ؛ فهى تتخلل آحادنا اليومية

ومشاجراتنا في الحياة قيل أن تسجلها بطون الكتب ؛ زارها في هجاء زهير
لآل حصن حيث يقول :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
ولكن جريراً هو الذي أرمى قواعدها ، وثبت أركانها ، ووطأ نهجها
حتى عرف بها وعرفت به ، فقد كانت عادته في الهجاء أن يتلفظ بالمهجور
ويعبث به ليلالة غيظاً وحنقاً .

وقد أوصى بذلك الشعراء فقال : إذا هجوت فأضحك^(١) .
وقد أضحكنا جرير كثيراً من هجائه ومن المهجور به معاً ، وإن صحب
هذا الضحك كثير من التفرؤ والاشتمزاز .

ومن الذي لا يضحك بكل فنه ، ومن كل قلبه حين يسمع قوله^(٢) :
تعرض النسيم لي عمداً لأهجوها كأن تعرض لأمست الخاري الحجير^(٣)

• • •

كان وجوه السيد^(٤) حول ابن أختم وجوه خنازير يراقبن خارياً

• • •

كان بنى طهينة رهط ملهى حجارة خاري يرمى كلاباً

• • •

إذا ضحكك شبت أنيابها العُلا خفافس سوداً في صرارة^(٥) قلب

• • •

(١) العقد الفريد — ٣ — ٣٩٨ .

(٢) ديوانه — ٦٦ — ٨١ — ١٧٢ — ٣١٦ .

(٣) التيم : نيم عدى وكانت ترمى بالحقبة .

(٤) السيد من بنى ضبة أخوال الفرزدق :

(٥) الصرارة بالفتح : الماء المجتمع المتغير .

ولو وضعت قفاح بنى نمير على خبث الحديد إذا لذابا
فصبراً يا تبوس بنى كُمير فإن الحرب موقدة شهابا

إذا جاء روح التغلي من استه دنا قبضُ أرواح خبيث مآلها

أخضر عبد أمه تغليبة

قد اخضر من أكل الخنايص^(١) نابها

غليظة جلد المنخارين مصنة على أنف خنزير يشد نقابها

أمسى الفرزدق يا نوار^(٢) كأنه فرد يبحث على الزناة فرودا

وهل كان الفرزدق غير فرد أصابته الصواعق فاستدارا^(٣)

على أنه حيناً كان يقنع بالتهكم المحض ، والسخرية الخالصة ، فلا يخلطها
بشيء من هذه المفاذير التي كان يلمح بها ، كقوله للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل ربعا أبشر بطول سلامة يامربع
وقوله للراعي النيرى :

ففض الطرف إليك من كُمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومثل هذا الهجاء الخالي من الفحش ، يعرف عند أهل البديع بالنزاهة.

ومع ذلك ألتست ترى أن طريقة جرير في جعلتها ، هي طريقة أولاد
البلد في تلاحيمهم وشتائمهم وسبابهم وتهكمهم .

(١) الخنايص : صفار الخنازير جمع خنوص بكسر الخاء وتشديد النون المفتوحة .

(٢) النوار : زوج الفرزدق وبنت عمه .

(٣) استدار : تحول ، وبهذا البيت يشير جرير إلى نظرية درون من غير قصد .

إن الفائز منهم في ميدان اللدِّ والملاحاة ، ليس هو الذى يفهمش
في سبابه ، ولكن هو الذى يستطيع أن يجعل خصمه أضحوكة السامعين ،
وموضع هوم وتدرهم .

ومن الطرائف التهكمية : أن إحدى السيدات الإنجليزيات ، شكت مرة
شكوى عجزت عن تفسيرها ، فقالت : إن أظافرى يعلوها القدر أيام
إقامتى بلندن .

فأجابها الدكتور صمويل جونسون من فوره : قد يكون هذا راجعا إلى أنك
تحككين جلدك بتلك الأظافر .

ومن الواضح : أن قواعد اللياقة والسلوك تأبى أن يقول سيد لسيدة :
إنها قدره ، ولكن جونسون بطريقته البارعة في تركيب الجمل ، قد تجنب
نقد الناقدين ، فقال ما يريد أن يقول دون أن يفصح عنه .

وهو يظفر ببعض إعجابنا لقدرته على أن قال قوله تلك
ومن هنا نبذر السخرية وكأنها أودج من القول السيئ المرخص به .
وترى هذه السمة واضحة في بعض أهاجى الشعراء كقول جواس
— يهجو بعض القبائل — :

كأن تحروء الطير فوق رؤوسهم إذا اجتمعت قيس معا وتميم
جعلهم أدلاء يسكتون إذا اجتمعت القبائل في الموسم ، كأننا على رؤوسهم
خروء الطير لا الطير فقط .

وقول يزيد بن قنافة الطائي — يهجو حاتم طي . — :
غداة أتى كالنور أخرج فاتقى بحجته أقتاله وهو قائم
يصف حاتما على سبيل السخرية : بأنه خرج على أقرانه المقاتلين له
مثل النور الخارج إذا ضيق عليه ، فلما جاء وقت الدفاع ولّى منهزما
وقول حرث بن عتاب النهاني — يهجو بني ثعلل — :

ديافيسة^(١) كُلف كأن خطيبهم سرارة الضحا في سلفه يتمطق
بصف خطيبهم إذا تكلم عنهم : بأنه يتلجج في كلامه عليه ؛ كأنه يتمطق
في حرته .

وقول الأختال يهجو :

والخبز كالعنبر الوردى عندهم والقمح سبعون إردبا بدinar
وقول الحارث الخفاجي :

وتزيت لتروعي بجمالها فكأنما كمن الحمار نحارا
فخرجت أعر في قوادم جبي لولا الحياء أطرتها إحضارا^(٢)
وقول أعرابي - يهجو زوجه - :

إذا سمرت كانت لعينك سحنة وإن برقت فالفقر في غاية الفقر
حديث كخلع الضر من أوتف تارب ودل كشم الأنف عيل به صبرى
وتفتر عن ثلج عدمت حديثها وعن جيلي طى . وعن هرمى مصر
وقول شاعر - يهجو بخيلا - :

نوالك دونه تحرط القتاد وخبرك كالثريا في السجاد
ولو أبصرت ضيفا في منام لحرمت المنام إلى التئادى
أرى عمر الرغبة يطول جدا لديك كأنه من قسوم عاد
وقول الناجم في الحية :

ولحية يحملها مائق مثل الشراعين إذا أشراعا
لو غاص في البحر بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا

(١) ديافيسة : أى أتيان منسوبون إلى دياف ؟ وهى أرض بالشام لهم ، وكلف : غير
مختوفين جمع أكلف ، وسرارة الضحا : وسنه . والساج : العذرة . والذماق : الذوق بضم
إحدى الشفتين على الأخرى مع صوت بينهما .
(٢) الإحضار : ضرب من العدو .

وقول آخر :

ألم تر أن الله أعطاك حية كأنك منها قاعد في جوالق

وقول آخر :

وله حية تيس وله منقار نمر

وله نكبة ليث خالطت نكبة صقر^(١)

وقول الثعالي :

لى صاحب لا يسمّى بين الودى إنسانا

لأنه التيس قرنا ولحية وحنانا

وقول آخر - يهجو بقبح الخلقة - :

أما الرجال لجعلان ، ونسوتهم مثل القنافذ لا حسن ولا طيب

وقول ابن شهيد الأندلسي :

ويح الكتابة من شيخ هبنة يلقى العيون برأسه رار^(٢)

ومتن الريح إن ناجيته أبدا كأنما مات في خيشومه فار

وقول المنفلت القرطبي - يهجو ميمون الفراء - :

لأن ميمون قريض زمهرير البرد فيه

فإذا يئس يئس نفقت سوق أبيه^(٣)

وقول بعض العرب :

نفسرجة ينظر من ظل الشجر فؤاده أثنى وضرره ذكر^(٤)

(١) يوصف الليث والصقر بالبحر لثقل ريقهما .

(٢) الهبنة : الأعق والقصير ، واسم « جعا » والرار والزرر : الفاسد .

(٣) يريد أن البرد يشتد إذا نظم شعره فيحتاج الناس إلى شراء الفراء للتدفئة .

(٤) النفرجة : الجبان .

وقول دعبيل :

وإن له لطباً سخا وخبزا وأنواع الفواكه والشراب
ولكن دونه حبس وضرب وأبواب تطابق دون باب
يذودون الذباب يمر منه كامثال الملائكة الغضاب

وقول السلامي :

يحلوا بأفواه الأصابع صفه حتى كأن كذاله من سُكَّر

وقول الناجم :

يُنْقَصُ الأحرارَ من شأنهم وهو أخو القسلة والنقص
كأنه البرغوث لم يخطه في صغر الجفان والقرص

وقول أبي نواس في الهجاء بالبخل :

على خبز إسماعيل واقية البخل وقد حلّ في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حزون ولا سهل
وما خبزه إلا كمنقاه مُغْرِب تصوّر في بسط الملوك وفي المشثل^(١)
يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما قد تمر مع النقل
وما خبزه إلا كليب بن وائل ليالى يحمى عزّه منبت البقل
وإذ هو لا يستبّ خصمان عنده ولا الصوت مرفوع بجذ ولا مهزل
فإن خبز إسماعيل حلّ به الذي أصاب كليبا لم يكن ذاك عن ذل
ولكن قضاء ليس يُسطاع دفعه بحيلة ذى مكر ولا فكر ذى عقل

وقول ابن المعتز :

(١) عنقاه مغرب: يقال : العنقاء المغرب، وعنقاه مغرب ومغربة على الوصفية ، وعنقاه .

مغرب على الإضافة .

ويُبرز للرائين وجهها كأنه كساء أبوه من قشور الخنافس
وقول أبي الشمقمق :

الطريقَ الطريقَ جاءكم اللاحق م رأس الاتان والفانذره
وابن عم الحار في صورة الفيل م وحال الجاموس والبقره
يمشي رويداً يريد يخلعكم كمشي خنزيرة إلى عذره
وقول أبي عثمان الخالدي :

ولي صاحب نحس على كل صاحب هو الداء أعيا أن يصيب دواء
أخف الوري عقلاً وأثقل طلعة وألحم إلا أن يقول خطاء
وقول الصاحب :

زادت قرونك يا عمير م على مساويك الجليئة
وأقل قرن حزنه كنسرة الإسكندرية
وقول غرادة الخياط في هجاء أبي السمي المغني :

كان أبا السمي إذا تغنى يحاكي عاطساً في عين شمس
يلوك بلحيه طوراً وطوراً كأن بلحيه ضرباً بان حرس
وقول بعض الظرفاء في ثقيل :

أنت واقه ثقيل وثقيل وثقيل
أنت في المنظار بمنا ن وفي المخبر فيل

وقول الأسعد بن بليطة في أسود :

يا رب زنجي لموت به الشمس عند سناه بمقوته
محدود قد غاب كاهله في منكيه فلا ترى ليلته^(١)

(١) البيت بالسكسر : مفعلة العنق

قد أحكم التجميد لمنه فتراكت فمكأنها توتنه
وإذا سعى بالكأس تحسبه 'جعل لا يدحرج فص ياقوته
وكأنه والكأس في يده نجم رمى في الجو عفرته
وفي البيت الرابع يقول ابن بسام^(١) . وهو مأخوذ من قول ابن
زرقون الأندلسي في الكميث الشاعر :

تأملت الكميث وقد علاه من الأثواب ثوب ذو احمرار
فقلت لصاحبي 'جعل تمشي لعمري في ثياب الجلائر
ورأيت أنه مأخوذ من قول بعض أهل الكوفة المتقدم في المغيرة
ابن شعبة :

إذا راح في قبطية متأزرا فقل جعل يستن في لبن محضر
ونحب أن يلاحظ : أن الهجاء في العصر العباسي قد تنوع وتلون ؛ فشمس
المعرب الجسمية ، وما يخالف آداب اللياقة والسلوك ، لانتشار الترف
والرفاهية ، ورفى الذوق الجماعي والفردى ، وقد مر طرف من ذلك .
ونحب أن نقول : إن ابن الرومي ورث طريقة جرير وأمعن فيها
وأمدته الحضارة بما يشبع سفاهته الجبليّة ونهجه إلى التشني والانتقام ،
فأتى في ذلك بالعجب العجيب !

فمن ذلك قوله في ضرطة سليمان بن وهب^(٢) :
ما لقينا من ظرف ضرطة وهب تركت أهل دهرنا شعراء

(١) الذخيرة - ٢ - ٣٩٥ .

(٢) هو وهب بن سليمان بن وهب صاحب بريد الحضرة ، أفلتت منه ضرطة في مجلس
الوزير عبد الله بن يحيى بن خالان ، فطار خبرها وتلقى بها الشعراء وسارت مثلاً في الشهرة ،
حتى قالوا : أشهر من ضرطة ابن وهب وأفظع من ضرطة ابن وهب ، وعمل أحمد بن طاهر
كتاباً في ذكرها والاعتذار عنها .

هي عندي كجود فضل بن يحيى غير أن ليس تنعش المقراء
وقوله في ثقل بارد :

يا أبا القاسم الذي ليس يدري أرواص كيانه أم حديد
أنت عندي كما برك في الصيف م ثقل بعـلوه برد شديد
وقوله في صلعة أبي حفص الوراق :

يا صلعة لأبي حفص مرمدة كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكناف بغداد
وقوله :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي زجوه الكلاب طول
وأنت من بيت أهل سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات لكن أقفاهم طبول
مستفعلن فاعلن فـمـول مستفعلن فاعلن فـمـول
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فـمـول

وقد انتهى فن السخرية في العصر العباسي الثاني إلى المعرى ، فنقد كل
شئ ، وسخر من كل شئ ، وأعانه على ذلك علم غزير ، واطلاع واسع ،
ولسان ذليق ، وبيان طليق ، وأفق رحب ، وبصيرة نافذة ، وعاطفة حية ،
وزهد في الدنيا ، وتسام على الزمان ، واستهانة بالناس ؛ فترك نفسه على
سجيته ، وعلى ما غيـلت يحد بالمجتمع ويهزل لا يرجوه ولا يخشاه .

وقد ورد للعرب أشعار تضمنت تشبيهات بما كانوا يلدأونه من
الأطعمة والأشربة كقول شاعر :

كان ثنابها وما ذقت طعمها لبنا نعبه سوء طنه بدقيق

اللبأ بكسر ففتح : أول اللبن ، والتسويط : خلط الشينين في الإنباء ، ثم
ضربهما باليد حتى يختلطا .

شبه ريقها بلبن النعجة أول ولادتها وقد خلط بالدقيق .
وقول آخر :

رمتني بسهم الحب أما قذاده فتمر وأما نصله فسويق
القذاد : ريش السهم جمع قذة بالضم ، والسويق : ما يعمل من الخنطة
والشعير .

يريد أنها كانت تطعمه التمر والسويق ؛ فهو لذلك يحبها .
وقول آخر :

الأرب خوذ عينها من خزيرة وأنيابها الغر الحسان سويق
والخزيرة : لحم يقطع صفاراً ، ويغلي بماء ويدبر عليه الدقيق .
شبه عينها بهذا اللون من الطعام .

وقيل : المقصود بذلك بنو مجاشع من تميم ، وقريش ، وكانت العرب
تغيرهما بأكل الخزيرة .

وقول آخر :

فيا صحفة مادومة ياهالة بأطيب من فيها ولا أقط رطب
والياهالة كل ما يؤتد به . والأقط : ما يتخذ من الخيض الغنى .
يريد : أن ترشف فيها أطيب مذاقاً من طعم هذين الطعامين !

وقول آخر :

فياك إذ ترى عرصات مجنل بعاقبة فأنت إذن مسعيد^(١)

(١) العرصات : الأمكنة الواسعة ، جمع عرصة كثيرة . وبالعاقبة : أي عقب معرفتها .

لها عينان من أقط وتغر وسائر خلقها بعدد الثريد
يريد بالأقط والتمر : ما اجتمع في عينيها من بياض وسواد ، وبالتريد
لين جسمها وغضارته ١

وقد أدخل أبو تمام هذا اللون في باب الملح من ديوان الحماسة (١) .
ومن أدباء المشهور الذين عرفوا بالتهكم : الجاحظ وأبو العينا .
ولكن ليس في أدباء العربية جميعاً ، من يصح أن يوصف بأنه بلغ مبلغ
فولتير وأناطول فرانس .

وقد عرف الأول بين الغربيين بالكاتب الساخر (٢) .
هذا ، وقد يختلط على الناس الفرق بين الفكاهة والهزل . وقد
فرق بينهما جورج ديهايل (٣) : بأن الهزل يرمى إلى إثارة الضحك ، كما
أن له أسلوباً خاصاً ، ولغة خاصة ، ومعجماً خاصاً ، بحيث يصعب أن يجاور
المأسى .

وهو يتميز من المزح الخالص الذي هو حالة نفسية عارضة ، بطول
أو يقصر دوامها ، وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس .
وروح الفكاهة نوع من التعبير في الضياء ، يمكننا أن نرى الشيء
في كافة مظاهره . ولقد يكون من بين تلك المظاهر تناقض : بفضلته تكسب
المظاهر دلالاتها .

إن في روح الفكاهة نوعاً من الخفر والتحفظ ، ونملك النفس ،
لا يعرفه الهزل الصريح ، ولكنها - إن أصبحت مذهبا يصطنع -

(١) ديوان الحماسة - ٢ - ٤٠٤ .

(٢) أبو العلاء نالد المتهتم - ١٥٣ .

(٣) دفاع من الأدب - ٢٢٥ - ٢٢٦ .

انحرفت عن سبيلها ، وأخطأت هدفها ؛ إذ لا يجوز أن تظهر إلا تحت
ضغط الملايسات .

والهزل عزيمة منعقدة منذ البدء على إثارة الضحك ، بينما الفكاهة
لا تضحك دائما ، وإن ضحكك فذلك لأنها لا تستطيع أن تتجنب
هذا الضحك .

وروح الفكاهة استعداد طبيعي في نفس صادقة ، لا تهدف أن تعرف
كل ما ترى ، وأن تقول كل ما تعرف .

فهرس لأمهات المسائل

الفصل الأول

محسنات التشبيه

٣٥ - ٤

وجوه البلاغة لا تنحصر . ما تجب مراعاته في التشبيه إذا كان الغرض بيان الحال أو المقدار . مراعاة الأعرافية في وجه الشبه والسر النفسى في ذلك . تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة في الآية الكريمة ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا مراعاة أن يكون القدر المشترك أبعد من الزيادة والنقص في بيان المقدار . ما تجب مراعاته إذا كان الغرض تقرير المشبه أو بيان إمكانه أو تحسينه أو تقييده أو استطرافه أو كان التشبيه مقولاً . صب الأمور المعنوية في قوالب المحسوسات تحقيقاً لوجود التشبيه . صحة وجه الشبه ودقته وشموله للطرفين . انتظام المعانى بتنسيق الأبيات الشعرية وحسن تجاورها والتخيل لذلك . التفريق بين ما به المشابهة وما به الامتياز . متى يسهل انزعاع الصور العقلية . استحسان قدامة اجتماع عدة تشبيهات ونقد ذلك . بحى . التشبيه على صور التشكيك وفائدته . التوطئة للتشبيه وقيمه البلاغية . اجتماع لونين من الشعر في التشبيه . تشبيه حالة الوجود بحالة العدم وعكس ذلك . مذهب قدامة والآمدى والخفاجى في المدح والذم بالصفات البدنية ونقد ذلك . قيمة الألفاظ ذات الظلال والأشعة في التشبيه . عقد الصلة بين الأشياء المتباعدة في التشبيه والتخيل لذلك .

الفصل الثاني

موقع الألفاظ حسنا وقبحا في التشبيه ٣٦ - ٦٠

اجتماع الإصابة والقيح في التشبيه . وصف الأنامل
المخضبة في شعر الجاهلين والمولدين والموازنة بينهما . تشبيهات
دقيقة غرض منها سوء اللفظ . التشبيهات بالأفعى وحسن
بعضها دون بعض . أثر العرف والعادة في استحسان التشبيه
واستقبحه . ما تجب مراعاته في تشبيهات المعلوم والمشروب
والتشيل لذلك . متى يجوز استعمال الألفاظ الكريمة في التشبيه .
أوصاف مختلفة لبيان حسن الألفاظ وقبحها في التشبيه
ونقد ذلك .

الفصل الثالث

اقران التشبيه بالحلي البديعية ٦١ - ٧٧

قيمة الحلي الإضافية في التشبيه وشروط حسنها . التشبيه
مع التذيل والإيغال وأسلوب الحكيم والتشيل لذلك .
الاستطراد بطريق التشبيه والعادة المتبعة في ذلك . التشبيه مع
المنهج الكلامي والتشيل لذلك . اعتذار النابغة للنعمان وبجته
على صورة القياس مع تحليله ونقده . التشبيه مع التناسب
والتقسيم والتسهم ، مع التشيل وبيان سر الصنعة في ذلك :
التشبيه مع حسن التعليل . إعجاب عبد القاهر بهذه الطريقة
والتنويه بها . التشبيه مع التذيع والمقابلة وصحة التفسير
والرجوع والمزاوجة إلخ . التخيير البديعي في التشبيه . اجتماع

التشبيه مع عدة محسنات . موازنة طريفة بين قول أبي تمام
ونعيم بن مقبل في وصف القدود المهنزة

الفصل الرابع

التشبيهات المبتكرة ٧٨ - ١٢٢

تعذر رسم طريق الابتكار وعلة ذلك . أثر الحضارة
والثقافة في الابتكار . اختصاص الابتكار بقلة من الأدباء
وسر ذلك . محاولة ابن الأثير رسم طريق للابتكار وإخفاقه
فيه . نقد رأيه في أن أكثر المعاني قد طرقت وسبق إليها .
الابتكار عند ابن رشيق ومطابقته لأرسطو في بعض الآراء .
المعاني المبتكرة وغيرها عند ابن الأثير وتفصيل ذلك . النظرة
التي يعتمد عليها الأديب في الابتكار . معنى الابتكار الذي
نريده من المثنى . أثر اختزان الصور والتشبع بالتجارب
في سهولة الابتكار . أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر .
الابتكار عند أرسطو وبيان حدوده . ملكة الابتكار
وجوهرها وصعوبة رياضتها . طبيعة الابتكار الأدبي عند
سقراط وحاجتها إلى التعبير . المبتكرون من الشعراء وما قيل
فيهم . صور للتشبيهات المبتكرة في جميع العصور ونقدها .
ليس حتما على الشاعر الابتكار كالفلاسفة والعلماء . اعتراف
ابن رشيق بقلة الابتكار في عصره . تعصب ابن أفلح للمحدثين
وردد ابن الأثير عليه . الابتكار بين الجاهليين والمحدثين .

الفصل الخامس

التشبيهات القبيحة ١٢٣ - ١٨٤

ظهور العيب الطفيف في التشبيه بخاصة . مرجع القبح في التشبيه . صور للقبح في التشبيه في جميع المصور مع تقدما والموازنة بينها . مواخذات النقاد لأمرى القيس . نقد الأصمعي . لنظر السقيم ، في شعر النابغة والرد عليه . أحسن ما قيل في فتور الطرف . اختلاف النقاد في معنى قول النابغة خطاطيف حجن المعاظلة في التشبيه . معنى أحذ يد القميص في شعر الفرزدق . تشبيه الثور بالكوكب ونقده . تشبيه المحبوبة بالخيزرانة وما قيل في ذلك . التشبيهات الباردة والتثيل لها . سخر تشبيه المحبوبة بالآخت . التشبيه بالملو والرشاء والمفتاح والسلم وتفصيل ذلك . عادة العرب في المدح والذم بالتشبيه . نقد بعض تشبيهات البحتري والمتني . رأى الخفاجي وابن الأثير والعلوي في قول المتني : العارض الهمن ورأى المؤلف . تشبيه المحبوبة بضره الشمس وما قيل في ذلك ونقده . قبح تراكم التشبيهات . مثال للتشبيه البالغ غاية القبح ونقده .

الفصل السادس

أثر البيئة في التشبيه ١٨٥ - ٢٠٩

دلالة التشبيه على بيئته . معنى البيئة المرادة هنا . أثر البيئة في نشأة الآداب وإيجاد الفوارق بينها . سر نشأة أدب القصة

في شمال أوروبا . أثر البيئات الشرقية في تنوع آدابها ومظاهر
هذا الأدب . أمثال شعرية تمثل البيئات المختلفة في جميع
العصور . تشبيهات لانتملحها لبعده العهد بها . تشبيهات
حيوانية . من ضرب بهم المثل في أشياء . تشبيهات عصرية
منزوعة من البيئة .

الفصل السابع

جمال الجسد في التشبيه ٢١٠ - ٢٢٤

معنى الجمال والحسن والملاحة لغة واصطلاحاً وما بينها من
فروق : الجمال غير محدود ، ويختلف باختلاف الأذواق .
اختصاص كل عضو بصفة . سحر المرأة وسلطانها على الرجل .
الشعراء العذريون والمرأة . سر هيام العربي بالمرأة . الأشياء
التي شبهت بها المرأة الجميلة . كثرة التشبيهات الخاصة بالوجه
وسر ذلك . وصف أعضاء المرأة تفصيلاً . ضيق الفم في
النساء والرجال . جمال المرأة أرفع أنواع الجمال . المرأة الجميلة
قديماً وحديثاً .

الفصل الثامن

الخطأ في التشبيه ٢٢٥ - ٢٣٨

الخطأ اللفظي ومواضعه . الخطأ المعنوي . خطأ المعاني
وصوابها وبيان ذلك . مرجع الخطأ في اللفظ والمعنى مع
التمثيل لذلك . سبب خطأ العرب في وصف النجوم . وصف
امرئ القيس للثريا وما قيل فيه .

تفصيل ما قبل في أحمر عاد . الخطأ بسبب المبالغة والتشيل
لذلك . ما يحتاج إليه التشبيه حتى يعصم من الخطأ . صفات
الخيال الجيدة . سبب ذهول الشاعر عن الصواب . التشبيه
الفاسد وما قيل فيه .

الفصل التاسع

أخطاء الشعراء في التشبيه ٣٣٩ - ٣٧٩

أراء العلماء في جواز اللحن على العربي وتفصيل ذلك .
رأى حمزة فتح الله وفارس الشدياق في وقوع اللحن من العربي
الصميم وشواهد ذلك . أمثال لمسا لحن فيه الشعراء . أثر
الاعاجم في شيوع اللحن . علوم العرب الستة . العلوم التي
يستشهد عليها بكلامهم . أمثلة لأخطاء العرب في التشبيه
جاهلية وإسلاما . أخطاء المولدين . مثال لما أخطأ فيه شوقي .

الفصل العاشر

أدوات الكتابة وحروف الهجاء في التشبيه ٣٨٠ - ٣١٢

هذا اللون من التشبيه يروج في عصور العلم والحضارة .
وجوده على قلة في العصر الجاهلي والإسلامي والتشيل لذلك .
وصف أعرابي أمي لرقم خمسة . كثرة هذه التشبيهات في
العصر العباسي وسر ذلك . وصف الجوارى الكائنات وما
يتصل بذلك . وصف الصحيفة والدواة والقلم والخبر .
الاشياء التي كثر بها التشبيه . الشطبة . الهمزة . الأنف . اللام .

الواو وكثرة ورودها في شعر الغزل وسبب ذلك . واوات
الأصداغ في البلاغة . حشو اللوزنج . واوعرو وما جاء فيها .
النون . الحرف المشدد . لا . الشككتان وما قيل فيهما . عطفة
الراء . السين . الشين . الصاد . العين . الميم . النقطة . أمثلة
تنظم التشبيهات المتقدمة . نوع من التوليد الغريب . تشبيهات
الحروف في الرسائل الإخوانية .

الفصل الحادي عشر

التشبيهات العقم ٣١٣ - ٣٣٥

معنى التشبيه العقم وسبب هذه التسمية واشتقاقها . التشبيه
الولود . ورود بعض الكلمات في جميع اللغات . تشبيهات
زالت عنها صفة الاختراع . أوائل التشبيهات العقم . أمثلة
للتشبيهات العقم في أغراض مختلفة . وصف الفرس . الضب .
الزرافة . النسور . وصف بديع للراءة . التشبيهات البديعة .
وصف عنزة لذباب الروع وإعجاب النقاد به . خطأ عنزة في
هذا الوصف وعدم تنبه القدامى له . تقليد الشعراء لعنزة في
وصف الذباب . لا يصح التعرض لتقليد المعاني المشهورة .
وصف ذي الرمة لليل وما قيل فيه . تشبيهات عقم
لابن الرومي وتحليلها . قوس قزح وما قيل فيه . التشبيهات
العقم في القرآن والحديث . وصف أيام قصف لآبي نواس
وتصاوير الكتوس وتقليد الشعراء له ، مع شرح ذلك وإيراد
آراء النقاد فيها .

الفصل الثاني عشر

تشبيه السخرية والتهكم ٣٣٦ - ٣٥٠

بيان كنه هذا التشبيه وجوهره . الغرض الاساسي منه .
العناصر المؤلفة له . تشبيه عجيب في قصير أسود . روح
الفكاهة والتندر وقلتها في الناس . فن الهجاء مقصور على بعض
الشعراء . الزعة التكمية في الشعر الجاهلي . طريقة جرير
في الهجاء وآثارها الموجهة . أمثلة من تشبيهات السخرية
والتهكم . براعة ابن الرومي في الهجاء . تنوع الهجاء في العصر .
العباسي وتناوله العيوب الجسمية وآداب اللياقة والسلوك
وسبب ذلك . سخرية أبي العلاء بالمجتمع . تشبيهات العرب
بما يلدونه من الطعام والشراب ودخول ذلك في باب الملع .
الجاحظ وأبو العيناء والتهكم .

المراجع

التي ورد ذكرها في الأجزاء الثلاثة مرتبة على حسب ورودها

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
الرازي	نهاية الإيجاز	قدامة ؟	فقد النثر
السكاكي	مفتاح العلوم	الجاحظ	البيان والتبيين
العلوي	الطراز	المقري	نفح الطيب
عبد القاهر	أسرار البلاغة		ديوان أبي تمام
الجرجاني			ديوان البحري
المولى عصام	شرح الفوائد الغيائية	القالى	الأمالي
المرشدي	حاشية عقود الجنان		ديوان المتنبي
السيوطي	شرح عقود الجنان	المرزباني	الموشح
المغربي	مواهب الفتحاح		ديوان العباس بن الأحنف
	حاشية المدسوق على السعد	أحمد الشايب	الأمالوب
التهاب الخفاجي	طراز المجالس		ديوان كشاجم
الحوي	خزانة الأدب	التنوخى	الأقصى القريب
	ديوان عمر بن أبي ربيعة	الحصري	زهر الآداب
	ابن الرومي	ابن رشيق	العمدة
	الشوقيات	سامي النشار	مناهج البحث
ابن الأثير	المثل السائر		ديوان الأعشى
•••	كنز البلاغة	طبع وزارة	حافظ إبراهيم
ابن السبكي	عروس الأفراح	المعارف	
السيوطي	حسن المحاضرة		السري الرفاء

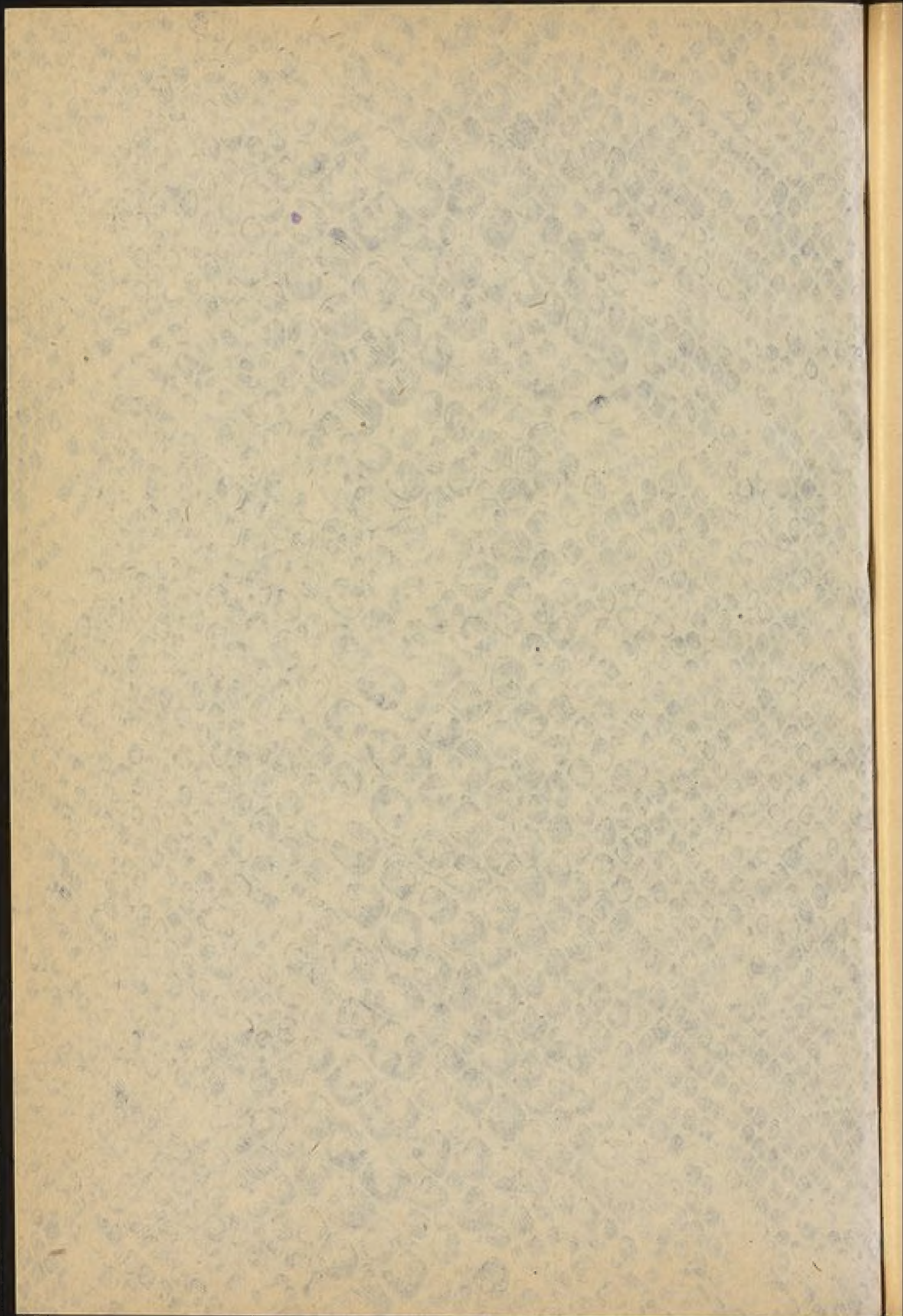
المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
المبرد	الكامل	أمين الخولي	فن القول
المرصفي	رغبة الأمل	عبد الحميد حسن	الفصول الفنية للأدب
ابن المعتز . ط	البديع	الفيروزا باذی	القاموس المحيط
الاستاذ حجاجي		الجوهري	الصحاح
قدامة	نقد الشعر	العسكري	الصناعاتين
الصفدي	شرح لامية المعجم		ديوان ابن هاني
اليازجي	العرف الطيب		• ابن المعتز
حامد عبد القادر	دراسات في علم النفس الأدبي		• الشريف الرضي
	ديوان الأمير تميم	الفزويني	• ذي الرمة
	• ابن سناء الملك		الإيضاح
	• البارودي	•	التلخيص
	• أبي فراس	البرقوقي	شرح التلخيص
	• ابن حمد يس	الحلي	حسن التوصل
حسن علوان	صريع الغواني	الوطواط، ترجمة	حدائق السحر
	ديوان زكي مبارك	الدكتور التواري	
	• ابن النيه	القيومي	المصباح المنير
	• ابن خفاجة	الجاحظ . ط	الحيوان
	• ابن نباتة	السامی	
العقاد	• دعاء الكروان		ديوان امرئ القيس
البغدادي	خزانة الأدب		• جرير
العسكري	ديوان المعاني		• الفرزدق
مصطفى السقا	مختار الشعر الجاهلي		• البهاء زهير
الباقلائي	إعجاز القرآن	ابن قتيبة	الشعر والشعراء

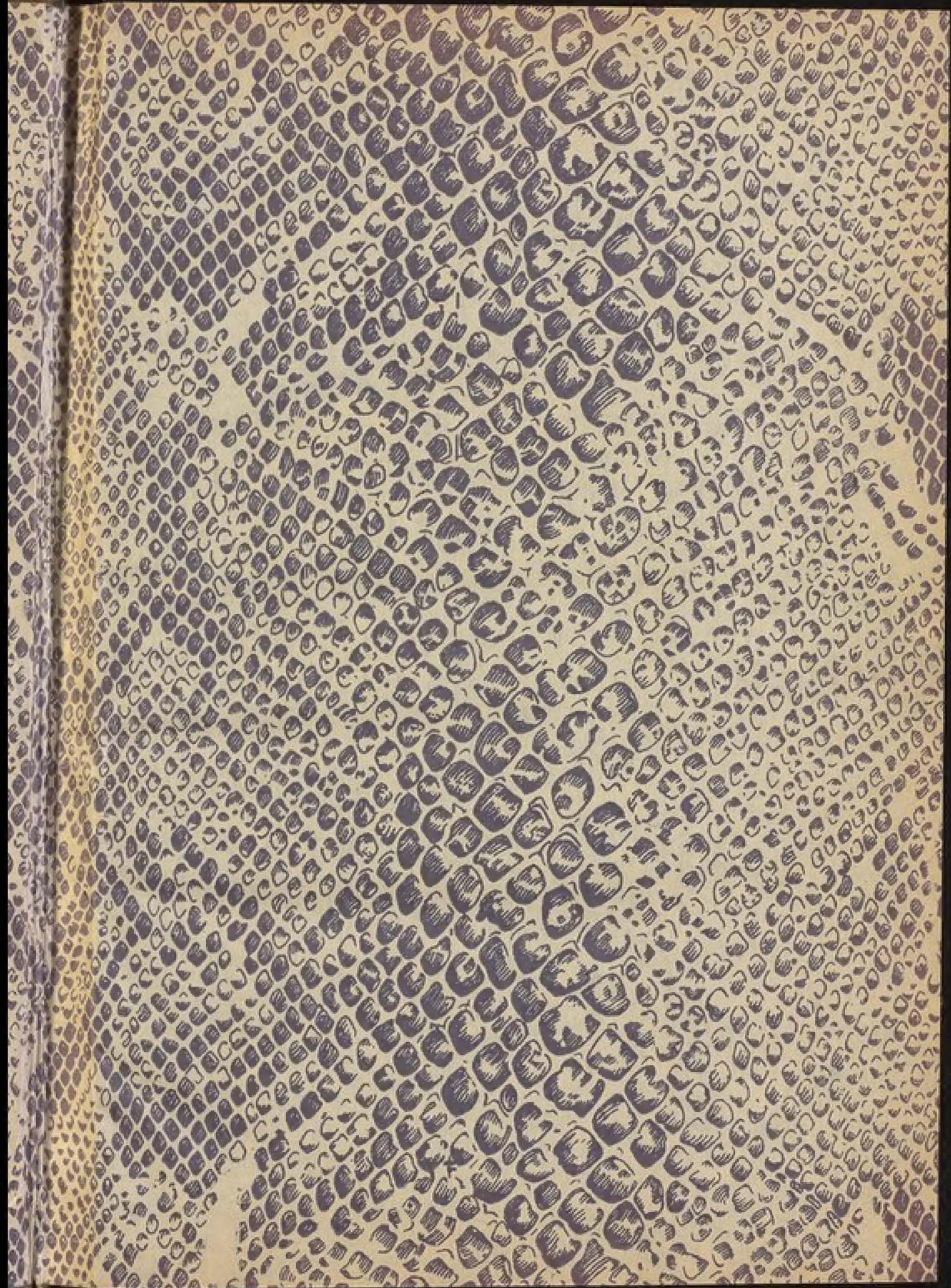
المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
الثوري	نهاية الأرب	الدكتور شوقي	الفن ومذاهبه في الشعر
جمع الأستاذ	رسائل البلغاء	ضيف	فنون الأدب
كرد علي		تشارلتن ترجمة	
القاضي الجرجاني	الوساطة	الدكتور زكي نجيب	بلاغة أرسطو
ابن بسام	الذخيرة	الدكتور سلامة	الأمالي
المدني	سلافة العصر	المرتضى	وفيات الأعيان
الغزولي	مطالع البدور	ابن خلكان	تزيين الأسواق
الأصفهاني ط	الأغاني	الأظفاري	زهة الألبا
دار الكتب		الأنباري	شرح المعاني
الطرطوشي	سراج الملوك	الزوزني	ثمار القلوب
جبر ضومط	فلسفة البلاغة	النجاشي	بلاغة العرب
ابن المنير	الاتصاف	الدكتور أحمد	
علي الجندی	الحان الاصيل	ضيف	العقد الفريد
ابن سنان الخفاجي	سر الفصاحة	ابن عبد ربه	ديوان أبي نواس
ديهاميل ترجمة	دفاع عن الأدب		الصنوبري
الدكتور مندور			مقامات الحريري
النجاشي	بقية الدهر		ديوان الصفي الحلبي
ابن حزم	طوق الحمامة		أساس البلاغة
محمود غنيم	صرخة في واد	الزحشري	الكشاف
	ديون صالح بن		ديوان الحمامة
	عبد القدوس	أبو تمام	معاهد التنصيص
	فؤاد الخطيب	العباسي	فوات الوفيات
	محمد الأسمر	المكتبي	أصول النقد الأدبي
الإمام علي	نهج البلاغة	أحمد الشايب	

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
ديوان نابغة بني شبيان	ديوان عنقرة	عبد الوهاب حمودة	التجديد في الأدب المصري
أوهام الشعراء	المواهب الفتحية	ابن حجلة المغربي	ديوان الصباية
نيمور ، باشا ، حمزة فتح الله الخوي	ثمرات الأوراق	السراج	مصارع العشاق
الثعالبي	نثر النظم وحل العقد	ابن يعيش	شرح المفصل
الحضري	إقامة الحجة	ابن جفي	الخصائص
كروثة	المجمل في فلسفة الفن	مصطفى وعلى أمين	جريدة أخبار اليوم
كرد على	أمراء البيان	على الجندي	فن الأسجاع
الغمر اوى	الغرائز	البنافى	التجريد
جويو ، ترجمة الدروبي ،	مساقل في فلسفة الفن	جاريث ترجمة	فلسفة الجمال
شارل بلوندل	المعاصرة	الدكتور عبد الحميد بونس	
ترجمة الدكتورين قاسم وسلامة ،	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	القالى محمد بن قاسم	ذيل الآمال
أغسطس ١٨٨٩	مجلة العالمين	ابن قتيبة	روض الأخبار
العقاد	شعراء مصر	الأبشيى	عيون الأخبار
على الجندي	أغاريد السحر	على الجارم	المستطرف
الدكتور طه حسين	في الأدب الجاهلي	ومصطفى أمين	علم النفس
ابن منظور	نثار الأزهار	الطبعة الأهلية	ديوان حافظ
البيدي ، ط	هبة الأيام	ابن أبي الإصبع	محمود حسن إسماعيل
محمود مصطفى ،	أدب المكاتب		تحرير التعبير
ابن قتيبة			ديوان صردر

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
الصولي	الأوراق	سيد نوفل	شعر الطبيعة
الدكتور بدوي طبانة	معروف الرصافي	كامل حجاج	خواطر الخيال
رشيد سليم خوري	ديوان القروي	أنطون غطاس	الرمزية والأدب العربي
علي أدهم	على هامش النقد والأدب	الزيات	دفاع عن البلاغة
الدكتور مندور	النقد المنهجي	٥٢/١١/١٣	الأهرام
الشهاب الخفاجي	شفاء الغليل	الفسق	مدارك التزويل
القاضي الجرجاني	كنايات الأدباء	١٩٤٨/١	مجلة الكتاب
الذهالي	الكنايات	ابن ظافر الأزدي	بدائع البدائنه
أبو زيد القرشي	جمهرة أشعار العرب	١٩٤٤/١٢	المقتطف
السيد المضر حسين	الخيال في الشعر العربي	زكي مبارك	مدامع العشاق
عبد السلام هارون	الميسر والأزلام	ابن تغري	النجوم الزاهرة
ترجمة نقولا الخداد	أسرار الحياة الزوجية	زكي مبارك	النثر الفني
الدكتور الخوفي	الغزل في الشعر الجاهلي	أحمد زكي	مبادئ علم النفس التعليلي
الدروبي	تعليقات على مسائل	الدكتور طه حسين	من حديث الشعر والنثر
	في فلسفة الفن	عبد المتعال الصبيدي	بغية الإيضاح
السيوطي	المزهر	الجمعي	طبقات الشعر والشعراء
الشنقيطي	الدرر اللوامع	عدد ٢٣ من ٤٤	مجلة الكواكب
الأب لويس شيخو	شعراء النصرانية	عبد القاهر الجرجاني	دلائل الإعجاز
البحاظر ه ط	الحيوان	الأنباني	التقرير
عبد السلام هارون		ابن عبد السلام	الإشارة إلى الإيجاز
ابن منظور	لسان العرب	الدكتور محمد فتحي	فلسفة السعادة
حازم	المقصورة	زكي مبارك	الموازنة بين الشعراء
الدكتور المحاسني	أبو العلاء ناقد المجتمع	الفتح بن خاقان	قلائد العقبان
	مجلة الربيع السنة الأولى	دكتور إبراهيم سلامة	تيارات أدبية
	العدد السادس	البرقوقي	دولة النساء

مَطْبَعَةُ النُّسَايَةِ
شارع محمود المقاول - عابدين ٣





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0315334015

893.741

J95

v. 3

APR 17 1962

